بسم الله الرحمن الرحيم

السر المفقود

GT 177

إلى صاحب القلم الحر.. صديق الحرف .. إلى ذلك الذى خط بأنامله أحلام وآمال وواقع جيل بأكمله..

إلى ذلك الصادق الذى لم يزيف الواقع ولكنه لم يحرمنا من متعة الخيال ولم يطفئ وهج الأحلام..

إلى ذلك الذى أكن له ويكن له جيلى وأجيال بعدى الحب والإحترام والإعتراف بالفضل..

إلى ذلك الذى كان السبب فى تغيير حياة الكثير من الشباب..

إلى ذلك الذى جعل الشباب يقرأون.. ففتح لعقولهم أبواب تطل على العالم.. وهم مقيمون..

إلى الحاضر الغائب أ/ أحمد خالد توفيق

لن أجد أفضل من كلماتك لتخبرك أن " فى حياة كل إنسان لحظة لا تعود بعدها الحياة كما كانت قبلها "

فكلماتك كانت بالنسبة للكثير هى تلك اللحظة التى غيرت وجه الحياة بالنسبة لهم..

فسلام على روحك التى لا زالت تنثر عبيرها فى حروف تُقرأ لتنمى الوعى وترتقى به.

تلميذ قلمك

عمرو مرزوق

المقدمة

****

إمتداداً لرواية ميدوم ومن بعدها سى أوزير، وإنطلاقاً من عشقى للتاريخ الفرعونى، تظهر للنور اليوم رواية (السر المفقود) ، تلك الرواية التى تنطلق بنا مرة أخرى فى أفاق التاريخ وعبر الحضارات لتستقر بنا هناك فى عصر رمسيس الثالث ، حيث تجرى أحداث واحدة من أكبر المؤامرات الحقيقية فى تاريخ مصر القديم .

ولتنطلق بنا فى رحلة عبر الزمن لنتعرف سوياً على لغز تلك المومياء الغريبة التى تقبع فى أقبية المتحف المصرى، دون أن يُسمح لها بالعرض أبداً، إنها المومياء الصارخة ، أو هكذا يُطلق عليها الكثيرين دون أن يدرك أحد سرها .

تلك المومياء التى تم إكتشافها بمنطقة الدير البحرى عام 1886، ضمن مجموعة كبيرة من المومياوات الملكية عن طريق عالم الآثار "جاستون ماسبيرو" لتتعدد فى شأنها الروايات والأقاويل .

وفى تلك الرواية ستأخذنا معها تلك المومياء لمعرفة قصتها وقصة تلك المؤامرة فى إطار من الفانتازيا التاريخية التى تعودنا عليها ، خاصة فى ظل تعدد الأقاويل وندرة المصادر وغياب المراجع التى تتحدث عن تلك الفترة فى تاريخ مصر ، والتى تروى تلك المؤامرة التى جرت أحداثها بالقصر الملكى للتخلص من حياة واحد من أعظم فراعين مصر.

ستأخذنا تلك الرواية فى دهاليز خفية من الخيانة والانتقام ، من إناس يدفعون العمر من أجل بناء ورفعة أوطانهم ، وغيرهم ممن يدفعون حياتهم لمجرد الإنتقام ، من يجاهد من أجل أن يدافع عن حضارة وتاريخ يعشقها ويؤمن بها بالرغم من أنه لا ينتمى إليها ، ومن يقاتل من أجل بيعها بأرخص ثمن حتى وهو ينتمى إليها.

سننتقل فى رحلة عبر الزمن حيث تتسارع الأحداث وتتبدل الأدوار وتتغير الأماكن ولكن يبقي السر في تلك النفس البشرية ، تلك النفس التى لن نتوصل أبداً لفهم طبيعتها ، تلك النفس التى تتبدل وتتغير في لحظات دون أن يحكمها قواعد أو نظريات ، فهى اللغز وهى الحل، هى السؤال والإجابة ، هى الخير والشر فى آن واحد.. لتبقى كل المحاولات لسبر أغوارها والتعرف عليها مجرد محاولات لا تخرج عن كونها كذلك .

إنها النفس البشرية ....

تلك هى السر المفقود..

الفصل الاول

****

الحفيد

****

أتتذكر..؟ كنا فيما مضي نلوم أحدنا إن كان له وجهان، والآن نتمنى مصادفة ذلك الشخص ذو الوجهين فقط لأن الجميع أصبح بألف وجه..

****

فى مكان ما فى صحراء قنا بمصر 1985

****

وقف بعض الرجال خارج المقبرة وهم يرتعدون من تلك الأصوات التى كانت تزأر بالداخل، بينما كان ما يطلقون عليه الشيخ فاخر يتلو بصوته الجهورى عدة ترانيم يعقبها صرخات تأتى من جوف الجبل..

إقترب أحدهم من الآخر الذى كان ممسكاً بمصباح زيتى قديم قائلاً وهو يرتعد:

- لقد تأخرنا يا سعيد والشيخ فاخر لا يزال بالداخل منذ عدة ساعات، فقد إقتربنا من منتصف الليل، ومن سوء حظنا أننا بداخل الكهف معه ونخشي أن.....

أشار إليه سعيد بالصمت وهو يهتف قائلاً:

- إصمت أيها الغبي، حتى لو قضي اليوم بأكلمه فى الداخل، لا تنس أنه الرجل المطلوب، والموجود بداخل هذه المغارة والمقبرة ربما لن نراه طيلة عمرنا.. كل الأوامر الصادرة إلينا أن نرافقه حيث يريد ونقف حيث يريد.. نحن وهذا الجيش الموجود فى الخارج.
- نعم، معك حق.. فخمس عربات محملة بالرجال والعتاد ينتظرون فقط إشارة الدخول حينما ينتهى من طقوسه.. لكن أخبرنى بالله عليك.. لماذا هو ..؟
- أنا لا أعلم، كل ما أعلمه أن الريس وهدان عثر عليه بعد أن ظل يبحث خمس سنوات كاملة يا سعيد.. حتى من قبل أن تنضم إلينا، أتعلم كم بلع هذا الكهف من جثث لمدّعين حاولوا إخراج ذلك الكنز..؟
- أعلم أعلم.. وأعلم أيضاً أن ذلك الشيخ لديه موهبة ما، لا أدري ما الذى يُطلق عليه يجعل الجن يسير تحت أقدامه.. إنه يُدعى.....

قاطعه فجأة صوت يوسف الطفل الذى لم يبلغ ثمان سنوات وهو يصيح عليهم ممسكاً بحصان خشبي مزركش الألوان :

- هيا بنا لننصرف فقد مللت من الجلوس هنا فى هذا المكان.. أين أبي...؟

نظر الإثنان إلى بعضهم فى دهشة دون أن يتحركا، بينما نظر سعيد إلى رشاد وإستطرد فى همس:

- وهذا أيضاً ما يثير حيرتى يا رشاد، لماذا يصر الشيخ على إصطحاب طفله فى زيارته الثالثة لذلك الكهف..؟
- إسمعنى يا سعيد.. إن كل ما فى الأمر يثير رعبي.. فأصمت بالله عليك.. كل مهمتنا هى مساعدة الرجل فقط حين ينادى علينا، وليس مسموحاً لنا بمناقشته أو حتى الدخول عليه دون استئذان..
- وهل نستطيع سماعه من هنا..؟، إن الرجل فى أسفل المغارة...
- بالطبع، فلازلنا نسمع الصرخات المتوالية التى تأتى من أسفل حتى يأخذ إذن الرصد وننتهى من نقل هذ الكنز..

****

وفى هذه الأثناء كان الطفل لا يزال يشعر بالضجر من الوضع ككل، فخرج سائراً من الكهف، وبشكل ما دار حول الفتحة الموجودة فى الجدار دون أن يلاحظه الرجلان أو حتى يلاحظه الجميع ممن كان خارجه.. فظل يسير حتى إقترب من فتحة صغيرة فى الكهف.. تختفى من وراء صخرة ضخمة..

شعر أن هناك من يصيح عليه من الداخل بصوت والده.. وما هى إلا لحظات حتى زحف بجسده الضئيل إلى داخل الفتحة التى تساعه بالكاد، مما جعله يترك حصانه الخشبي بالخارج.. ظل الطفل يزحف إلى الداخل وكأن شيئاً ما يدفعه أكثر فأكثر.. وكلما وقف ليلتقط أنفاسه كان يسمع صوت أبيه وهو يضحك منادياً عليه.. حاول أن يزحف أكثر، لكن تلك الأربطة التى يربطها والده على كفيه والتى كانت تمنعه كثيراً من الحركة.. تذكر قول والده والذى حذره ونبه عليه بألا يقوم بحل تلك الأربطة أمام أى شخص قريب، أما من يجهلونه فيستطع كشف يديه أمامهم..لم يدرى لما ..؟ هو فقط لا يمكنه إلا الإنصياع لأوامر والده فقط..

ظل يزحف قرابة العشرة أمتار حتى وقع فى حفرة أفضت به إلى مكان واسع.. تحسس ركبتيه بيديه من أثر السقوط، وقد شعر بالهلع وحاول أن يصرخ، لكن صوت والده كان يأتى من إحدى المنحنيات الموجودة بداخل المكان الذى وقع فيه..

فإتجه إليه، وكان هناك عدة أصوات تأتى من مكان فى الجوار، فحاول أن يتجه ناحيتها، وخاصة عندما وجد ضوءاً فى نهاية الممر الموجود على اليسار..

سار يوسف حتى وصل أخيراً إلى مكان واسع جداً، ولكنه إندهش لوجود عدد كبير من الأشخاص يجلسون القرفصاء بجوار الحائط، بينما كان هناك جسد مسجى على منضدة خشبية وبجواره ثلاثة أشخاص يقومون بلفه، فى الوقت الذى كان هناك رجل يرتدى زى أصفر اللون رافعاً يديه إلى السماء وهو يهتف بصوت جهورى لا يتناسب مع سنه :

- السلام عليك أيها الإله الأعظم إله الحق..لقد جئناك ياإلهي خاضعين لنشهد جلالك..

جئناك ياإلهي متحليين بالحق..متخليين عن الباطل..

هذا الجسد المسجى أمامك قبل رحلة خلوده الأبدية.. نشهد أنه لم يظلم أحداً ولم يسلك سبيل الضالين..

لم يحنث في يمين ولم تضله الشهوة فامتدت عينييه لزوجة أحد من رحمه.. ولم تمتد يديه لمال غيره..

لم يكن كاذباً ولم يكن لك عصياً.. ولم يسع في الإيقاع بعبد عند سيده..

إنه يا إلهي لم يُوجع ولم يُبك أحداً.. وماقتل وما غدر.. بل وما كان مُحرضاً على قتل..

إنه لم يسرق من المعابد خبزها ولم يرتكب الفحشاء ..

ولم يدنس شيئاً مقدساً، ولم يغتصب مالاً حراماً..

ولم ينتهك حرمة الأموات..

إنه لم يبع قمحاً بثمن فاحش ولم يغش الكيل..

إنه طاهر، إنه طاهر، إنه طاهر..

وما دام بريئاً من الإثم..

فاجعله يا إلهي من الفائزين...

ومن خلفه ردد الحاضرين جميعاً :

- آآآآمين..

المدهش أن تلك الكلمات كانت تُتلي بلغة غريبة، لكن يوسف قد فهم كل حرف تفوه به الرجل العجوز ..

وبمجرد ترديدهم لكلمة آمين، بدأت طقوس أخرى، فقد قاموا بوضع المومياء فى تابوت خشبي، ويوسف يراقب كل ذلك من خلف أحد الأحجار التى وارته عن الأنظار، لكن عندما بدأ فى البكاء خوفاً مما رآه إلتفت إليه العجوز فجأة منزعجاً وهو يصرخ على أتباعه للإمساك بالطفل..

سارع أحد أتباعه بتنفيذ أوامره، فأمسك بالطفل ووضعه على نفس المنضدة الخشبية التى كان يجري عليها التحنيط منذ دقائق، فإقترب منه العجوز وهو يضع يده عليه وسط صراخ يوسف، وينظر إلى أحد معاونيه قائلاً فى رعب هو الآخر:

- إحضرا لى الكاهن شميت فوراً، ولتقيدا هذا المخلوق حتى ننظر فى أمره.

وما هى إلا لحظات حتى إقترب منه رجلاً يقارب المائة عام، قصير القامة أقرع يرتدى ما يغطى نصفه الأسفل فقط، وهو يدور حول المنضدة مندهشاً من هيئة الطفل، بينما كان الكاهن الأكبر ينتظر ما سيقوم به شميت الذى جلس على ركبتيه وبدأ يرسم عدة دوائر على الأرض الترابية برموز ليست فرعونية، وهو يصرخ بعدة طلاسم لم يفهم منها الطفل شيئاً سوي كلمة (أدوميت) التى كان يصرخ بها تكراراً وبصورة مرعبة..

بعد عدة دقائق بدأ الكهف يضج بزئير شديد مما أفزع كل الحضور، فهرب الجميع إلى باقي ممرات الكهف بينما ثارت عاصفة ترابية معلنة قدوم شيئاً ما خلفها، وما هى إلا لحظات حتى كان معهم فى الكهف كائناً أسود اللون طويل القامة، يقارب المتران والنصف نحيف بصورة مرعبة، ممسكاً بعصا سوداء مثله تماماً.. ومن خلفه أتت بعض الكائنات التى إقتربت زاحفة من الطفل الذى لم يتحمل الصدمة، فأُغشي عليه بمجرد سماع صوت زعيمهم مُحدثاً الكاهن شميت....

****

وفى تلك الأثناء كان الشيخ فاخر يصرخ فى الرجال بعدما خرج من مهمته داخل المقبرة الموجودة بالكهف ليبحث عن طفله والذى لم يجده.. بينما لم يهتم سعيد ورشاد إلا بالدخول إلى الكهف، لكن فاخر صرخ بعدة كلمات فإنغلق مدخل الكهف ومنعهم من الدخول، بينما ظهرت من خلفه كائنات أشبه بالشياطين تقترب منهم لتمنعهم من الحركة مما أفزع

رشاد الذى لم يتحمل الصدمة فهوى مغشياً عليه، بينما هرب سعيد إلى خارج الكهف منادياً على بقية الجمع للبحث عن يوسف، فى حين جلس فاخر على الأرض متمتماً بعدة طلاسم، ليجتمع من حوله عدة أطياف سوداء تقترب منه، وكأنها تستمع لما يقول.. وما هى إلا لحظات حتى زحفت إلى ممر داخل الكهف مشيرة إلى فاخر ليتبعها ..

ظل فاخر يسير خلف إحداها، بينما كان سعيد يهرع ورائه وهو يكاد يصاب بأزمة قلبية، لكنه لا يستطيع الرفض بعدما رآه منذ عدة دقائق.. وبعد فتره وقف أحد الأطياف السوداء مشيراً إلى أحد الكهوف الجانبية بعد أن همس فى أذن فاخر بعدة كلمات هز فاخر رأسه على إثرها دليلاً على الفهم، ثم نظر إلى سعيد وأمره بالثبات وألا يتبعه، وأخذ منه المصباح وهو يدخل سريعاً إلى داخل الكهف المُشار إليه ..

وبمجرد دخوله وجد يوسف مُقيداً على منضدة خشبية قديمة، ومن حوله بدأت مخلوقات أقرب للجن من هيئتها المرعبة، وهم يتشممون الطفل، وكبيرهم ينظر إلى فاخر الذى إقتحم الخلوة دون استئذان.. وهو يقفز إلى جوار طفله ويرسم دائرة حولهما وقد بدأ فى الصراخ :

- أدوميت.. يا سكان الأرض استجيبوا بحق تلك الأقسام.. تشفيل تشفيل.. اديد.. يجوق.. هلخو.. استجيبوا أو اهربوا.. اركعوا اركعوا.. يا سكان الأرض استجيبوا بحق الأقسام المقدسة.. تشفيل تشفيل.. اديد.. يجوق.. هلخوا.. استجيبوا أو توكلوا لا ضارين ولا مُضربين..

إرتفع صوت أدوميت بالضحك وهو يتشكل على هيئة إنسانية عوضاً عن ذلك الخيال الأسود الضخم، وقد بدت هيئته أقرب إلى الشيطان، وهو يقترب من الدائرة دون أن يكون لديه الجرأة على إجتيازها.. وكلما حاول الدخول بقدمه تصيبه صاعقة دون سبب، مما جعله يصرخ أكثر وقد بدأ أتباعه فى الصراخ مجدداً وهم يقتربون من الدائرة، والتى بدأ يتوافد من حولها العشرات والعشرات منهم..

لم تُفلح أية طقوس قام بها فاخر فى هذه اللحظة، على الرغم من حفظه لعشرات الطلاسم، ولكن فجأة سطعت فى ذهنه فكرة أخرى.. فحمل طفله على يديه وفى لمح البرق كان يفك الأربطة المربوطة على كفيه وسط الصراخ الذى أصبح يصم الآذان .. فأمسك بيوسف وأخرج خنجر من بين طيات ثيابه ليحل تلك الأربطة ممسكاً بكفي الطفل الذى بدأ يصرخ من

ألم الخنجر على ساعديه، وبمجرد أن حل تلك الأربطة من على كفيه حتى أشار بهما إلى أدوميت الذى تراجع فَزِعاً إلى الجدار بمجرد رؤيته لكفوف الصبي، بينما سجد بقية الجن وقد دخل بعضهم إلى الدائرة ليقوموا بلعق ما يسيل من دم الطفل بجنون، بينما هرب البعض الآخر..

أما أدوميت فإقترب مرة أخرى من جسد الطفل وهو ينظر إليه تارة وإلى فاخر تارة أخرى، ثم سجد ليتلاشى كما يتلاشى الظل مع سطوع الشمس..

دخل سعيد إلى الكهف وهو يكاد يزحف من فرط رعبه من الموقف، وهو ينظر إلى الشيخ فاخر قائلاً فى رعب هائل وهو يكاد يغشي عليه :

- هل تريد مساعدة يا سيدنا..؟

****

الرابع من سبتمبر2016 فى إحدى ضواحى العاصمة الفرنسية باريس

****

هبط رجلان من سيارة رولز رويس فاخرة وهما يُسلمان المفاتيح لأحد الحراس الذى إقترب منهم فى أدب ليسيرا نحو الباب الحديدي الضخم.. ويدخلا وسط بهو هائل داخل أحد القصور العتيقة الطراز.. وليقتربا قليلاً من الجمع ويجلسا على أحد الكراسي المعدة لهم ..

أشار أحدهم إلى الآخر قائلاً فى توتر:

- مسيو جان، إن مسيو رينيه لم يحضر حتى الآن، وهذا ما يثير قلقي، أليس من المفترض تواجده فى البهو الخارجى لاستقبال المشترين..؟
- إن مسيو رينيه سينضم إلينا قريباً، وهو بالتأكيد فى مكان ما بداخل القصر، يلقي نظرة وداع على مقتنيات جده الراحل.
- إسمح لى يا سيدى أن أتساءل ، لماذا لم نقم بشراء القصر مباشرة، بدلاً من شرائه عن طريق المزاد العلنى..؟

لم يُجبه المسيو جان بل إنشغل بمتابعة أحد اللوحات الموجودة على الجدار الأبيض الذى يزين المدخل، بينما لم يصمت مساعده الذى إستطرد:

- أعتقد أن مسيو ماسبيرو العظيم لو كان حياً لقتل إبن حفيده ذاك.
- إنها ضرورات الحياة يا فيردى..الحفيد يحتاج إلى المال الوفير لإتمام تلك الصفقة التى يطلق عليها صفقة العمر، وهو يقيم غالباً فى ضيعته بالنمسا، لذلك لا يوجد طائل من الإحتفاظ بهذا القصر العتيق الذى لا يأتى إليه إلا كل عدة سنوات.. فبدلاً من إهماله قرر الإستفادة منه بعرضه للبيع وإنهاء ما يربطه بفرنسا.
- ولكن لماذا..؟، فالقصر وما يحويه يعتبر ثروة عظيمة لا تقدر بثمن..

- أخبرتك يا فيردى للمرة الألف أن الحكومة الفرنسية لها نسبة ما فى أملاك الراحل جاستون ماسبيرو، لذلك كان عليه قبل بيع القصر إستئذان الحكومة، ولذلك إتفقا سوياً على عرضه للبيع، بشرط أن يكون لشخص فرنسي الجنسية، بحيث يتم ذلك عن طريق المزاد العلنى.

- ولكن هناك الكثير من الأشخاص الذين قد يسعون إلى إقتناء ذلك القصر المملوك لعالم الآثار الراحل.

- وأنا أيضاً أدرك ذلك، فلا تقلق ..

- بالرغم من أنى سكرتيرك الخاص يا سيدى، إلا أننى لم أعلم ما قمت به من خطوات للحصول على هذا القصر، ولكن ..

قاطعه جان بإشارة من يده قائلاً:

- إذن إصمت وشاهد بهدوء، وإن كنت تود التنزه فى جنبات القصر لتشاهد تلك اللوحات النادرة وبعض المخطوطات الهامة فيمكنك الذهاب..

قالها وهو يفكر فى ذلك القصر العتيق ..

تلك الثروة التى لا تقدر بثمن ...

****

وسط بعض الأشخاص الذين كانوا يتجولون فى الجوار، كان رينيه فرانسوا جاستون ماسبيرو الحفيد الأخير لعائلة جاستون ماسبيرو، يجلس للمرة الأخيرة على كرسي جده الراحل فى مكتبه وهو يشاهد العشرات يتجولون فى أنحاء القصر المزمع عرضه للمزاد العلنى.. لا يهمه إن كان لم يحتفظ بإرث العائلة أم لا، ولأنه لم يتبق أحداً من عائلته تلك إلا هو ولكونه يعتبر نفسه نمساوى الجنسية وعمله لا يرتبط بأى شكل بفرنسا، كان ذلك من أهم الأسباب التى دعته لبيعه.. فقد ولد هناك لأم نمساوية منحدرة من الأصول النازية، ولطالما تفاخر هو بذلك، لكن يبقي السر الأكبر والذى لا يعلمه إلا هو وبعض المقربين جداً منه ومنهم المسيو جان دي بوردا الملياردير الفرنسي المعروف وتاجر الأسلحة الذى لا يعرف أحد شئ عن تجارته تلك، واللذان إتفقا سوياً على بيع القصر له لكن عن طريق المزاد العلنى كما إشترطت الحكومة

الفرنسية. أما ما يعلمه هو أن رينيه كان في عجلة من أمره لتقديم كل ما يملك لشراء مقبرة مصرية كاملة من العصر القديم لأحد ملوك الفراعنة، والتى لم تُكتشف بعد ولازالت فى أعماق الأرض فى إنتظار الكشف عنها.. فلقد كان رينيه من أهم السماسرة فى تجارة آثار الشرق الأوسط من الحضارات الفرعونية وحتى الآشورية والبابلية، وقد كوّن ثروة كبيرة لا بأس بها، ولكنه كان يطمح دائماً فى الحصول على إرث خاص له ولإسمه الذى بدأ يلمع لكن فى الأربعين من عمره أخيراً..

لذلك فقد تعرف على ذلك التاجر المصري الآخر منذ فترة بإعتباره من المهتمين بالتنقيب عن الآثار المصرية، وجري بينهم تعامل من قبل دون أن يتقابلا، ولذلك فهو يطمح فى الحصول على عدة ملايين ليلقيهم إلى ذلك المصري، والإتفاق على بيع محتويات المقبرة بعد تهريبها إلى الخارج عن طريق المصري الذى سيتكفل بتسليمه المقبرة كاملة فى المكان الذين سيقومون بتحديده فى العاصمة النمساوية.

ظلت نظراته مثبتة على تلك المفكرة القديمة الموجودة أمامه بخط جده الأكبر والتى قلبت حياته العام الماضي عندما إكتشف وقتها أنها إحتوت فى صفحة التى خُطت بيد جده الراحل على ما يشير إلى إحدى البرديات القديمة التى قد تغير أحداث التاريخ الفرعونى وتاريخ العالم للأبد.. تذكر كيف وقعت فى يده بالصدفة تلك المفكرة القديمة الموجودة بأحد أدراج مكتب جده، والتى يبدو أن العجوز قد إحتفظ بها فى السقف العلوى لدرج المكتب، ومرت عشرات وعشرات السنوات حتى وقعت فى يده دون قصد وهو يبحث فى مقتنيات جده الراحل.. كانت مذكرات عادية جداً، لكن ما أدهشه هو لما حاول العجوز أن يُخفيها هكذا..؟، ولما لم يتركها مع بقية متعلقاته..؟

ظل هذا التساؤل يدور فى عقله شهوراً وشهوراً.. فلم تكن بالفعل سوى مجرد مذكرات عادية ، فيما عدا صفحة واحدة مهمة.. تلك الصفحة التى قلبت حياته وتفكيره رأساً على عقب.. فأمسك بالمذكرات وفتحها على الصفحة المقصودة ليقرأ عدة أسطر بخط جده عالم الآثار المصرية:

- ((وبعد أن قمنا بنقل محتويات المقبرة، وتسليمها إلى السلطات المصرية، كان علىّ مراقبة العمال جيداً، والتأكد من أنه قد تم تسليم جميع المحتويات بالكامل إلى المتحف المصري، والذى عملت جاهداً طوال حياتى لإنشائه.. كنت أشعر أنها قد تكون آخر إكتشافاتى الفرعونية.. يا للمسيح..!!، كم أعشق تلك الأرض، والتى أود أن تحتضن رفاتى كما إحتضنت رفات الفراعنة منذ آلاف السنوات.. كم أعشق تلك الحضارة العريقة، ولذلك كان علىّ أن

أُخفي (G T 177) تلك البردية الملعونة إلى الأبد.. دارت فى ذهنى عشرات الأماكن، ولكنها قد تقع فى أيدى من لا يستحقها والذى قد يستغلها أسوأ إستغلال، ولم يكن لديّ القدرة على التخلص منها ، فربما كانت المفتاح لشئ لا أُدرك كنهه بعد، لذلك فقد إحتفظت بها فى أعز ما أملك))..

لم يفهم رينييه إلى الآن مصير تلك البردية، أو أين توجد..؟، رغم محاولته قراءة تلك الصفحات عشرات وعشرات المرات، ولكن دون جدوى.. فقد كان أعز ما يملك جده هو بالتأكيد ذلك القصر وما فيه، والذى قام بتفتيش كل شبر منه، ولكنه لم يحصل أبداً على مبتغاه، حتى غرفة مكتبه الخاصة، والتى كانت تحتوي على مئات الكتب والبرديات، وعلى الرغم من أنه قد قام بتفتيش كل جزء بالغرفة وكل الكتب أيضاً، لكنه لم يعثر لسنوات على البردية المفقودة مما يجعله يفقد الأمل تماماً فى العثور على تلك البردية الملعونة..

أفاق رينيه من شروده على صوت إعلان بدء المزاد، ليري الجمع وقد دخلوا جميعاً فى مدخل القصر حيث إجتماعهم، بينما بدأ صوت الرجل الجهورى فى الإعلان عن بدءه ..

طوي رينيه المفكرة واضعاً إياها فى حقبيته مع عدة برديات كان يحتفظ بها العجوز بداخل مكتبه، مع بعض المقتنيات الأخرى التى كانت ملقاة على مكتب جده، وأمسك الحقيبة ليضعها بجانب أخرى كبيرة بجوار الباب الداخلى، وخرج من مكتب العجوز مُلقياً نظرة وداع أخيرة على تراث جده الراحل، بينما وقف ليهمس فى أذن مساعده الخاص بمجرد خروجه بحزن:

- ألبير.. إحرص على على عدم المساس بهاتين الحقيبتين الموجودتين بداخل هذه الغرفة حتى صباح الغد.. وإحرص بنفسك على نقلهما مع كافة حقائبي بالكامل إلى النمسا.. وهناك أيضاً بعض اللوحات بجوار الحقائب قد إتفقت مع الحكومة الفرنسية على الإحتفاظ بها مع بعض الجوائز التقديرية يا ألبير، فإحرص على ألا يصابوا بأى خدوش يا ألبير..أفهمت..؟
- حسناً.. سأفعل ما أمرت به يا سيدى، وعلى نهاية الأسبوع سترى أن كل ما أردته قد نُقل كما هو إلى قصر سيادتكم فى (هالشتات) دون أن يمسه أحدهم بسوء...

تنهد رينيه بشدة وهو يتطلع مرة أخرى إلى ذلك القصر العتيق قائلاً:

- أدعو الله أن تتم تلك المهمة فى نجاح، وإلا أصبحت كالشخص الذي يحرث فى الماء يا ألبير..

ثم إلتفت ليغادر ويترك ورائه تراث وإرث أجداده..

والذى لا يُقدر بثمن..

****

بعد عدة أسابيع بمعهد يوروسنتر كامبردج بالعاصمة البريطانية لندن

****

كانت الساعة تشير إلى الرابعة عصراً فى إحدى قاعات المعهد الإنجليزى العريق، حيث كان أحد طلابه والتى تشير ملامحه بوضوح إلى أصوله الشرق أوسطية والذى كان من الدارسين للدكتوراة فى أسرار التحنيط فى التاريخ الفرعوني القديم، يشرح لأستاذه فى وجود الحاضرين عن أهم طرق العمليات الجراحية التى قام بها الفراعنة، وما أثبتته الإكتشافات الحديثة فى تل العمارنة والمومياوات التى تمت لها بعض العمليات، شارحاً فكرته عن طريق بعض الصور التى كان يُظهرها على جهاز العرض المسرحي..:

- ولذلك كان للطب فى مصر القديمة شأن عظيم، كما كان للأطباء فى الحضارة المصرية القديمة مكانةً هامةً ومرموقة، ولقد نال العديد من الأطباء فى مصر القديمة شهرةً واسعة، حتى أرسل الأباطرة أمثال كير، وشي ملوك الفرس إلى فراعنة مصر يرجونهم أن يرسلوا لهم هؤلاء الأطباء ليعملوا فى قصورهم، ويعتبر (ايمحوتب) هو أول شخصية طبية ظهرت فى العالم أجمع، وفى التاريخ البشرى بصفةٍ عامة، وكان ايمحوتب هو إله الطب عند الفراعنة، وعاش ايمحوتب فى عصر الأسرة الثالثة حوالى 3000 قبل الميلاد، ولقد برع المصريون القدماء فى جميع علوم الطب، حتى وصفهم بليونوس: بأنهم مبتدعوا فن الشفاء، ومكتشفوا خواص العقاقير..

وما من شك أيها السادة أن الطبيب المصرى القديم هو أول من درّس ووضع علوم الطب والتشريح فى العالم، ويُعتبر التحنيط أحد المجالات التى ساعدت الطبيب المصرى القديم على فهم الجسد الآدمى والحيوانى بل والطيور أيضًا، هذا الفهم أدى دون شكٍ إلى تقدم علوم الطب عند الفراعنة، سواء الطب البشرى أو البيطري...

وهناك من الأدلة الأثرية ما يثبت بأن الطبيب الفرعونى قد توصلّ إلى معرفة أدق وظائف الأعضاء وطبيعة عملها مثل القلب والرئتين والمعدة والكُلَى والكبد والبنكرياس وغيرها من الأعضاء، كما أن الممارسات الطبية جعلته يعرف من أى جزء تحديدًا يمكنه فتح الجسم البشرى والوصول إلى الأعضاء والأحشاء الداخلية دون

تدميرها، فمن خلال فتحةٍ صغيرة يصل طولها إلى بضعة سنتيمترات فى الجانب الأيسر من البطن تَمكن المُحنّط المصرى القديم من الوصول واستخراج كل أعضاء الجسد الآدمى وتحنيطها على حدة.

ولقد قدَّمت لنا الحفائر التى تم إكتشافها بمقابر العمال بُناة الأهرامات سيلًا من المعلومات عن مدى تقدم الطب المصرى القديم، فمنذ ما يقرب من 4500 سنة كان الجراح المصرى يجرى عمليات بتر للأرجل والأيدى المصابة دون أى مشكلة، مما يؤكد معرفته بطرق وقف النزيف ومعالجة الأوردة والشرايين، كما تم الكشف عن هياكل عظمية لعمال تعرضوا إلى كسور وتم علاجها بمهارة مذهلة وعاش العمال واستكملوا عملهم دون أى مشكلة، وكانت مفاجأةً غير متوقعة بالنسبة للعلم الحديث أن نكتشف وجود فريق طبى مقيم بموقع بناء أهرامات الجيزة، مهمته الحفاظ على صحة وسلامة العمال..

ولقد تم اكتشاف العديد من البرديات القديمة والتى كشفت إنجازات الفراعنة فى المجال الطبى، ومن أشهرها بردية أدوين سميث، وتُعد هذه البردية هى الأشهر فى تاريخ الطب عند الفراعنة، وسُميت بهذا الاسم نسبة إلى تاجر الأنتيكات الأمريكى أدوين سميث، وتوجد هذه البردية الآن ضمن مقتنيات أكاديمية العلوم بنيويورك، حيث تُرجمت على يد جميس هنرى عام 1930م بعدما أهدتها ابنة التاجر سميث بعد وفاته إلى جمعية التاريخ بنيويورك، ويرجع تاريخ هذه البردية إلى عام 1600 قبل الميلاد، وقد تحدثت هذه البرديّة عن الجراحات الطبية كجراحة الرأس والرقبة والأكتاف والصدر والثدي، كما تحدّثت عن حالات الكسور المختلفة فى الجسم، وتبيّن من خلال هذه البردية التى يمتد طولها إلى 5 أمتار أنها تصف كيفية التعامل مع 48 حالة جراحية مختلفة، ولكن وللأسف الشديد لم يتم العثور على باقى البردية، حيث وجدت غير مكتملة، ورجّح علماء الآثار أنها كانت تتحدث عن باقى الجراحات الخاصة بأجزاء الجسم.

كما تم الكشف أيضًا عن برديّة كاهون "اللاهوت"، والتى يعود تاريخها إلى حكم الملك أمنمحات الثالث عام 1825 قبل الميلاد، وتتكون هذه البردية من ثلاث صفحات، وتتحدث عن تشخيص أمراض النساء والولادة وتحديد نوع الجنين والمراهم الطبية الخاصة بالنساء، بالإضافة علاج آلم الأسنان، كما تم الكشف عن بردية إيبرس؛ والتى سُمّيت نسبة إلى عالم المصريّات "جورج إيبرس"؛ وهو من قام بترجمتها عام 1875م، ويعد العلماء هذه البردية من أقدم البرديات الطبية، حيث يعود تاريخها إلى عام 3000 قبل الميلاد، ويصل طول هذه البردية

20 مترًا، وقد ذكرت هذه البردية ما يقرب من 400 دواء، و877 طريقة طبية لعلاج أمراضٍ مختلفة كالعيون والنساء والجراحات والتشريح والباطنة والجلد.

بالإضافة إلى العديد من البرديات الأخرى، والتى اهتمت بالمجال الطبي، ولكن تعد أقل أهمية من البرديات السابقة، ولكن وللأسف الشديد تم فقدان أجزاء كبيرة منها أثناء العثور عليها كبردية تشستربينى الطبية، ليدن، وبردية برلين الطبية، والتى تحتوى على شرح مطول عن القلب والأوعية وأغلب العقاقير نباتية وحيوانية.

سكت الباحث برهة ليتناول كوباً من الماء وهو ينظر إلى أستاذه الذى ينظر إليه بإعجاب وزملائه من المحاضرين الذين كانوا يستعدون هم أيضا لمناقشة الدكتوراة فى القريب، وبينما بدأ فى عرض الصور قام أحد الطلاب مشيراً بيده مقاطعاً بإستخفاف :

- واليهود...؟!!

إندهش المحاضر من الكلمة فإبتدره المُحاضر قائلاً:

- لم أفهم قصدك يا سيدى، ما الذى تقصده بالضبط..؟

- ما أقصده هو لما لم تذكر فى دراستك تلك اليهود على أنهم هم من قاموا بالمساعدات الطبية..؟، إن إقامة العبرانيين الممتدة فى مصر منذ 1490 ق.م تركت آثاراً، ليس فقط فى حياتهم اليومية ومفردات لغتهم، وإنما أيضاً فى ممارساتهم الطبية، ولذلك وجدت أوجه تشابه عديدة بين أسفار موسى والطب المصرى، ولاحظ أيضاً أن المصادر التى إعتمدت عليها تتشابه تماماً مع ما ورد فى الأسفار يا سيدى.

- لاشك أن العبرانيين الذين استوطنوا مصر حتى مجيء النبي موسى الذي أخرجهم منها، كانت لهم مساهماتهم في الحضارة الفرعونية، لكن تلك المساهمات انصبت في إطار الحضارة الأشمل، كما هو الحال في الحضارة الإسلامية، حيث برز الطبيب موسى بن ميمون، على سبيل المثال، وقد يكون من بين جمهرة أطباء طيبة وممفيس القدماء، بابليون وعرباً وحيثيون وأفارقة ويونانيون وعبرانيون أيضاً، استوطنوا مصر وصاروا من جملة أهلها.

- يا سيدى.. لما أنتم كشعوب شرق أوسطية تعملون دائماً على قلب الحقائق.. فلا أدرى ما العيب إذا قلتم أن حضارتكم قامت أيضاً على سواعد عبرانية.

إنعقد حاجبي المُحاضر وهو يتطلع فى شك إلى صاحب السؤال :

- من أين أنت يا سيدى..؟

إبتسم صاحب السؤال فى خبث قائلاً:

- لا يهم من أين أنا الآن..؟، فأنا فقط أتحدث عن نقاط معينة تحاولون دائماً التغاضي عنها.. وأنا مثلك تماماً تقوم رسالتى على المساهمات العبرانية فى الحضارة الفرعونية، أنا فقط باحث..
- حسناً أعتقد أنه ليس من الملائم مناقشة ذلك الآن وسط العرض و......... .

قاطعه مره أخرى بإشارة من يده :

- حسناً لن أُطيل عليك، ولكن بصفتك مختصاً فى الآثار المصرية...

قالها وبدأ يُقلب فى بعض الأوراق أمامه وسط همهمة الحاضرين الذي بدأوا فى الإستياء من الوضع ككل مما جعله يردف سريعاً:

- هو سؤال واحد فقط، وأعتقد أنك قادر على إجابته إن كنت فعلاً مُلم بكل الحقبات التاريخية.. منذ فتره فتحت وزارة الآثار المصرية تحقيقاً بعد إكتشاف "نجمة داود "السداسية الأضلاع، والتي تعتبر بالطبع أحد أهم رموز الديانة اليهودية.. على آثار فرعونية جنوب البلاد .

لماذا..؟!!، سأخبركم لماذا ..؟، لأن البعثة الألمانية المصرية المشتركة العاملة في معبد "أوزير نسمتي"، الذي يعود للعصر الروماني قامت بإعداد تقرير علمي حول النقش الذي يحوي نجمتي "داود" على أحد الكتل الحجرية،

والتي تم رفعها مؤخراً من المعبد الموجود في جزيرة (لفنتين) غرب النيل في أسوان، علماً بأن التقرير تضمن صوراً أرشيفية للكتلة الحجرية، منذ أن تم الكشف عنها لتحديد أثرية النقش من عدمه..

المضحك فى الأمر أنه تم تسويف التقرير كعادة الشعوب العربية، وجاء فى ملخصه أنه ستتم الإستعانة بأحد متخصصي الآثار الإسلامية لتوضيح ما إذا كانت النجمة السداسية منتشرة في تلك الفترة المبكرة أم لا.. وبعد ذلك تمت إزالة البلوك الحجري الذى يحمل نجمتى داود داخل المعبد البطلمى بجزيرة أسوان بمعرفة البعثة الألمانية المسؤلة، خاصة بعد توجيه خطاب شديد اللهجة لها، وذلك بعد صدور تحذيرات من منطقة آثار أسوان والنوبة بإلغاء عمل البعثة الألمانية..

فلك أن تتخيل أن تقوم بعثة ألمانية بإكتشاف نجمة داوود اليهودية فى آثاركم المصرية ومع ذلك شكلتم لجان وطُويت الأوراق وتم إزاله البلوك الحجرى...ألا توجد أى إشارة أقوى من ذلك على مشاركة العبرانيين فى تراثكم..

إنبري الأستاذ المشرف على المحاضرين موجهاً حديثه للمُقاطع :

- أى نجمة داوود يا حاييم..؟، أتذكر قراءتي للموضوع هذا منذ فترة، لكن دون أن أذكر على وجه التحديد متى..؟
- يا بروفيسور ديكنز الموضوع باختصار يتلخص فى أن منطقة آثار أسوان المدينة القابعة فى جنوب مصر كانت قد اكتشفت في نهاية مارس الماضي، رسماً لنجمتين سداسيتي الشكل يمثلان "نجمة داود"، على نقوش معبد "أوزير نسمتي" البطلمي في جزيرة الفنتين، وقد أثار ذلك جدلاً حول صحة هذا الإكتشاف، وكيفية وجود النجمتين بهذا الشكل الذي يشكك في فرعونية الآثار.
- نعم.. نعم، تذكرت الآن، ففي مطلع الشهر الماضي نشرت صحيفة "هآرتس" الإسرائيلية، مجموعة صور للآثار الفرعونية التي تنوى إسرائيل عرضها بمتحفها الكبير في مدينة القدس، ضمن المعرض الذي سيقام للمرة الأولى حول الحقبة التاريخية، التي سيطرت فيها مصر القديمة على أرض كنعان، وأتذكر أنه كانت هناك تلميحات عن بعض الكتل الحجرية المختفية من ذلك المتحف، الآن فقط فهمت..

قاطع المُحاضر الإثنين قائلاً بهدوء:

- أيها السادة.. بروفيسور ديكنز.. لسنا هنا لمناقشة بعض الإفتراءات التى ينطق بها زميلى حاييم، والذى يقاطعنى الآن لأول مرة.. وإن كان ليس هناك أى مجال للرد عليه، إلا أنى سأخبرك بدرس بسيط.. هو إن النجمة السداسية تاريخياً، وكما أكدت الحقائق الأثرية، لم تُشكل رمزاً من الرموز التوراتية إلا فى الأزمنة الحديثة، ولا يوجد لها ذكر فى التاريخ العبري والعهد القديم والكتب اليهودية الأخرى، ولا توجد إشارة عن استخدامها فى زمن نبى الله داود أو نبى الله سليمان .. وبالله عليك يا زميلى العزيز إقرأ فى التاريخ الفرعونى جيداً، ووقتها ستعلم أن شواهد التاريخ تؤكد أن مصر أول من عرفت زخرفة النجوم، حيث نجد فى سقف مقبرة سنفرو من الأسرة الرابعة مزين بالنجوم السداسية، وحسب المعتقد المصرى القديم فإن النجمة السداسية كانت رمزاً للمعبود (أمسو) الذى كان أول إنسان تحول إلى إله وأصبح اسمه حورس، من هنا نجد أنه لا علاقة من قريب أو بعيد بتلك الرموز والتى ترتبط فى فكرك بنقطة ما فى العقيدة اليهودية..

شعر البرفويسور ديكنز بالحرج وهو يرى أنه فعلاً ليس هذا وقت المناقشات التى لا يوجد طائل منها، فأشار بإستئناف حديث المحاضر الذى نظر إلى غريمه فى إنتصار، ثم ما لبث أن إستكمل ما كان قد بدأ فى شرحه ..

لكن أحدهم لم يلاحظ وجود المسيو رينيه ماسبيرو الذى كان يجلس فى هدوء فى الصف الأخير، وبجواره سكرتيره ألبير وأحد حراسه، وهو ينظر بإعجاب إلى ذلك المُحاضر، بينما مال إلى أُذن ألبير قائلاً فى همس..

- أعتقد أننا قد أصبنا فعلاً فى إختيار الشخص يا ألبير.. فهو من سيقدم لى ما عجزت عن فهمه أو الوصول إليه طوال الفترة الماضية.. فربما كان لديه ما يعلمه عن (GT 177)..

تطلع إليه ألبير فى دهشة وهو يتساءل:

- عن ماذا يا سيدى..؟

- ليس الآن يا ألبير، سأخبرك بكل شئ، لكن فى حينه.

- أنا لا أصدق يا سيدى أن ذلك البروفيسور هو من قام بنقل المقبرة المصرية بنجاح إلى النمسا..

- أنا أيضاً لا أصدق، ولكن ليس لى دخل بذلك، فقد كانت مجرد صفقه وقد أتمها على أفضل وجه، واليوم أنا فى أشد الإحتياج له فى موضوع آخر، وهو فعلاً من أحتاج إليه..

- لا أفهم يا سيدى .. ولكن مجرد تواجدنا خارج النمسا قد يعرض عملياتنا للخطر، فأنا لازلت أشعر أننا مراقبان.

- إننا بالفعل مراقبان من سكوتلانديارد منذ أن أفشى أحدهم بسر المقبرة، لكن صدقنى لن يصلوا لشئ إلا للمراقبة فقط ..

- أتمنى فقط يا مسيو رينيه أن تكون مغامرتك تلك تستحق كل هذا السفر والعناء..

- ستدرك قريباً يا ألبير مدى إحتياجى لهذا الرجل...

قالها وهو يتطلع إلى المُحاضر الذى لا زال مستمراً فى الشرح ، ويُكمل بلهجة ذات معنى :

- البروفيسور المصري يوسف فاخر ..

****

لم تمر نصف ساعة حتى كان الإثنان يسيران سوياً فى الطريق إلى خارج المعهد فى طريقهم إلى السيارة الخاصة برينيه، الذى لم يحاول أن يدخل فى الموضوع مباشرة، وإنما ظل يتحدث عن المقبرة التى نجح يوسف فى إرسالها بالكامل الى النمسا.. حتى وصلا إلى سيارة رينيه الذى توقف قليلاً وهو يتطلع إلى يوسف قائلاً:

- ولكنى أود أن أسألك عن مهارتك فى نقل المقبرة إلى الخارج يا مستر فاخر..

- اسمي يوسف، ولا داعى للألقاب يا رينيه.. وهذا عملى وقد أخبرتك قبل ذلك عن طريق الوسيط بيننا..

- ولكنى لم أكن أتوقع تلك المهارة.. هل هناك من يساعدك فى سفر تلك المقبرة..؟

- إسمعنى جيداً يا صديقي، طالما وُجد المال فمن السهل إيجاد عشرات الأشخاص الذين قد يساعدوك..

- نعم.. نعم، وخصوصاً مع ذلك الرقم الذى يتكون من ستة أصفار الذى حصلت عليه يا صديقي.

إنعقد حاجبا يوسف فى ضيق وهو يهتف:

- لا تعبث معى يا رينيه، فأنا أعلم أنك قد حصلت على أضعاف ذلك المبلغ، وأن مبلغ خمسة ملايين دولار ليس بمقابل كبير أمام ما حصلت عليه..

قاطعه رينيه ضاحكاً:

- مهلاً يا صديقي، لا تغضب، فأنا فقط أمزح معك.

تطلع إليه يوسف فى شك وهو يسأله:

- لما أنت هنا يا رينيه..؟، لا أعتقد أنك هنا فقط لمجرد رؤيتى وتقديم الشكر لى على ما قدمته لك.. فأنا قد حصلت على المبلغ المُستحق وإنتهى الأمر.

ربت رينيه على ظهره بود وكأنهما صديقين حميمين:

- يعجبنى ذكائك يا يوسف .. هل تسير معى قليلاً..

ومد يده ليسير برفقة يوسف، بينما وقف الحارس ومساعد رينيه فى إنتظارهم بالقرب من السيارة، وعيناهم على سيارة تتبع سكوتلانديارد والتى لم تكن بعيدة لتستطيع مراقبة الكل.. فى حين بادر رينيه يوسف بقوله:

- اسمعنى جيداً يا يوسف، هناك أمراً ما أود مناقشته معك، لكن ليس هنا.
- هل هناك آثار أخرى تود....

قاطعه رينيه بهدوء وهو ينظر حوله:

- أبداً يا يوسف فالأمر ليس كذلك، ولكن هناك أمران يثيران حيرتى.. الأول ....

قاطعه يوسف بحذر:

- أخبرنى أولاً لما تلتفت حولك وكأنك تخشي أن يراك أحدهم..؟

- لأنى مُراقب بالفعل، فقد تم تسريب خبر للشرطة الفرنسية أنى أقوم بالإتجار فى الآثار وقد حاولوا عدة مرات تفتيش قصري فى النمسا، وفشلوا لأننا فى هالشتات بالنمسا لا نخضع لتلك القوانين الغبية، ولكن عندما وصلت إليك إنتبهت سكوتلانيارد وبدأت فى مراقبتى بمجرد وصولى..

هتف يوسف فى غضب :

- وتأتى بهم إلى هنا..؟، أمجنون أنت يا رينيه..؟

حاول رينيه تهدئته وهو يقول فى هدوء:

- إن الأمر الذى أحتاجك فيه يستحق المغامرة، ولن يُجدى الحديث معك هاتفياً، لذلك كان علىّ أن أقابلك مهما كلفنى الأمر، وخاصة أنهم ليس لديهم أي شئ يديننى، فقط مجرد وشاية من أحدهم دون جدوى، وبعد فترة سوف يرحلون، وإذا سألك أحدهم عن لقائى معك فلتخبرهم أنى قد أتيت إليك لبيع أحد مقتنيات جدى الراحل ماسبيرو.

تنهد يوسف فى نفاذ صبر وهو يحاول أن يبدو هادئاً:

- أتعلم يا رينيه، إن مجرد ذكر اسم جدك يجعلنى أحترم عائلتك بأكملها.. أعتقد أنه لو كان على قيد الحياه لكان قتلنى على الفور.

- هذا ما يدهشنى يا يوسف.. إن كل المعلومات التى جمعناها عنك تشير إلى أنك مصري حتى النخاع، وترفض تمام الرفض المساس بأية آثار بل وتساعد بكل ما تملك من جهد فى الإكتشافات الأثرية، وتسليمها إلى حكومتكم ومنع سرقة الآثار، تماماً كجدى الراحل ، وقد رأيتك تناقش بكل حدة صديقك اليهودى حاييم.

- إنه ليس صديقي يا رينيه، هو مجرد باحث مثلى لكنه يحاول الطعن فى أى تراث فرعونى وإلصاق اليهود فى صُنع الحضارة الفرعونية .

- حسناً لا تغضب يا يوسف، ليس صديقك، لكن هناك أمراً آخر يثير حيرتى...

قاطعه يوسف مبتسماً:

- أكمل... فلماذا إذن إن كنت بتلك الوطنية أقوم ببيع مقبرة كاملة فرعونية، وتحتوى على آثار لا تُقدر بثمن... حسناً يا رينيه.. إن لكل منا عدة أوجه.. أتعرف..كنا فيما مضي نلوم أحدنا إن كان له وجهان، والآن نتمنى مصادفة ذلك الشخص ذو الوجهين فقط، لأن الجميع أصبح بألف وجه..
- هذا يعنى أنك لن تجيبنى .
- ربما يأتى اليوم الذى ربما تفهم فيه ما أعنيه.

أومأ رينيه برأسه، ولكنه إستدرك قائلاً:

- هناك أمراً آخر..
- وما هو..؟
- ما سر ذلك القفاز الطبي الذى ترتديه على كفيك دائماً..؟

عقد يوسف حاجبيه وهو يجيب بملامح خالية من أى تعبير:

- أعانى من تشوه فى كفى يدى كنتيجة لحادث قديم، ولا أود أن يراها أحدهم.. ولكنى لا أعتقد أنك هنا لتسأل عن هذا يا رينيه...؟

أخرج رينيه مفكرة جده القديمة وناولها إلى يوسف وهو يشير بيديه ناحية صفحة معينة، ليبدأ يوسف فى قرائتها، لكنه أعادها إلى رينيه مرة أخري معتذراً لعدم فهمه الفرنسية... أمسك رينيه المذكرة وبدأ يقرأ منها على يوسف الذى لم يهتم بما يقوله حتى قاطعه بإهتمام مفاجئ:

- أعد الجملة الأخيرة يا رينيه.

لمعت عينى رينيه وهو يعيد الجملة المقصودة وقد أدرك وقعها على يوسف:

- ((ولذلك كان علىّ أن أُخفي (GT 177) تلك البردية الملعونة للأبد.. دارت فى ذهنى عشرات الأماكن، ولكنها قد تقع فى أيدى من لا يستحقها والذى قد يستغلها أسوأ إستغلال، ولم يكن لدىّ القدرة على التخلص منها، فربما كانت المفتاح لشئ لا أُدرك كنهه بعد، لذلك فقد إحتفظت بها فى أعز ما أملك))..

أمسك يوسف رأسه محاولاً تذكر إلى ماذا يشير هذا الرمز، وبعد لحظات تأوه مبتسماً :

- GT 177.. نعم.. نعم.. هو..

كاد رينيه أن يطير فرحاً وهو يسأل يوسف فى لهفة:

- من هو..؟؟

ولكن يوسف بادره متسائلاً فى إهتمام:

- أخبرنى أولاً أين هى تلك البردية..؟
- لا أدرى..
- كيف لا تدرى..؟
- لهذا جئتك.. انها صفحة من مفكرة ..لكن أخبرنى من هو الذى تقصده يا يوسف.؟
- أين وجدت تلك المفكرة ..؟
- فى مقتنيات جدى الراحل، فلم يقترب منها أحد طوال عشرات السنوات بسبب إخفائه لها جيداً، مع العلم أنى قد بحثت فى كل شبر فى القصر ولمدة سنة كاملة، ولكنى لم أعثر لها على أي أثر، ونظراً لإرتباطى ببيع المقبرة كان علىّ أن أبيع قصر جدى الراحل، والإنتقال إلى هالشتات فى النمسا و...

قاطعه يوسف فى صرامة :

- هيا بنا....

تطلع إليه رينيه فى دهشة وهو يهتف قائلاً:

- هيا بنا إلى أين يا يوسف..؟، لقد أتيت اليوم لأطلعك على الموضوع، لأنك الوحيد الذى أعتقد أنه قادر على مساعدتى، لذلك سوف أنتظرك فى نهاية الأسبوع، وهذه تذكرة سفر ذهاب وعودة من هنا إلى النمسا، وستجد سائقي وحارسي فى إنتظارك بالمطار، لكن أخبرنى أولاً بالله عليك، هل الأمر يستحق فعلاً..؟

أجابه يوسف بعد أن رجع بظهره مستنداً على سور حديدى وهو يضع يديه على رأسه:

- الأمر يستحق أكثر مما تتخيل يا رينيه .. فمجموعة (G T) تشير إلى برديات وُجدت فى أحد المقابر الملكية لقائد حرس الأمير(هقا- رع)، والذى أصبح فيما بعد رمسيس الرابع، والتى إكتشفها الراحل العظيم جدك ماسبيرو، وتشير إلى أول محاولة إغتيال لفرعون عن طريق إبنه.

هتف رينيه فى دهشة :

- إبنه..؟
- نعم.. وقد تم محو تلك الجريمة فى التاريخ الفرعونى وإخفاء تفاصيلها، ومن المستحيل أن تجد ما يشير إليها بصورة ما، كل ما تراه مجرد برديات على قطع مبهمة غير كاملة، وجدت فى مخطوطة موجودة الآن بفرنسا، وكذلك فى بردية هاميس الموجودة فى المتحف البريطانى.. أما القصة نفسها فطُمست معالمها ولن تجدها فى التاريخ كله إلا على إستحياء، والقصه كلها لخصها قائد الحرس فى بردياته فيما يشير إلى محاولة ابن رمسيس المدعو بنتائور والعديد من رجال البلاط الملكى لإغتيال أباه رمسيس الثالث.
- من..؟
- إنه الملعون (بنتائور) ... صاحب أول محاولة إغتيال لوالده الفرعون يا صديقي.

****

الفصل الثانى

****

البداية

****

إن كنت فى صحبة جماعة من الناس.. وكنت عليهم ملكاً ولشئونهم متولياً..

فعاملهم معاملة حسنة حتى لا تُلام، وليكن مسلكك معهم لا يشوبه نقص..

إن العدل يا ولدى عظيم، طريقه سوية مستقيمة،

هو ثابت لا يتغير..

من يخالف القوانين عاقبه..

من استحل حقوق الناس حراماً عاقبه..

ما كان الشر يوماً ويصل مقترفه إلى بر الأمان..

واعلم أنه قد يحصل المرء على شئ من الثروة عن طريق الشر..

ولكن قوة الحق ستبقي ثابتة، إن حدود الحق ثابتة يا ولدى..

والحلال بيّن والحرام بيّن والمرء يفعل ما تعلمه من ابيه

من وصايا رمسيس الثالث لولى عهده

"العام التاسع والعشرون من حكم رمسيس الثالث 1182- 1152 ق. م"

****

ها أنا ذا أجلس لأدون ما حدث، ليكون عبرة لكم.. فأمِل أذنيك لتسمع أقوالى وأعكف قلبك على فهمها لأنه شئ مفيد إذا وضعتها على قلبك..

ما أجمل طاعة الإبن المطيع الذى يأتى ويستمع مطيعاً، إنه عبقري فى سمعه.. عبقري فى كلامه، ذلك الذى يطيع كل ما هو نبيل، وطاعة المطيع شيئاً نبيلاً..وإن الطاعة هي خير ما فى الوجود، إنها تكون الغبة الحسنة، وما أطيب أن يأخذ الإبن من أبيه ما أوصلت إليه شيخوخته.. إن ما يريده الأب هو الطاعة، أما العصيان فهو بغيض إلى الرب..

حقاً هو القلب هو الذى يجعل صاحبه يطيع أو يعصي، لأن حياة المرء الصحيحة الحقة هى وحي قلبه...

إن من يطيع يطاع...

وكم هو جميل أن يطيع المرء أباه، فيصبح أبوه من ذلك فى فرح عظيم وأنس مُقيم، وهذا الإبن سيغدو رقيقاً ليناً عندما يكون سيداً، وكل من يستمع إليه يطيعه، فيصح جسمه ويوقره أبوه وتكون ذكراه خالدة فى أفواه الأحياء الذين يعيشون على الأرض ما داموا أحياء.

تلك هى مقدمتي فأصغوا واعوا لكل ما سأورده فى هذا الكتاب سأقصها عليكم بمداد حروفى على تلك البرديات وفقاً لما سمعته من عشرات وعشرات الشهود والأماكن والأحداث التى مرت عليّ وأنا فى آخر أيامى كأسوأ وقت عشته منذ ولادتى وحتى مماتى.. بل فى تاريخ طيبة بأثرها..:

****

كانت الأضواء تنتشر علي جانبي الممر الطويل من كوات جانبية، وروائح عطرة تفوح من ثنايا المكان المؤدى إلى قدس الأقداس داخل المعبد الكبير للإله آمون، حيث كان هناك اجتماعاً سرياً دُعِيَ إليه كبير الكهنة (حُتب) للإجتماع مع الوزير

الأول لملك طيبة رمسيس الثالث ومؤسس نهضتها الحديثة، الوزير (حور) وعدد من كبار القادة والكهنة..فقد كانت الرهبة تغزو الجميع بعد ما تواترت أنباء عن قيام بعض حركات التمرد فى بعض المعابد، وأصبح الأمر لا يُمكن السكوت عليه أو تجاهله..

جلس الجميع وكأن على رؤوسِهم الطير والكاهن الأكبر يتحدث، فقد كان فى منزلة عظيمة، فلا يستطيع أحد مقاطعته إلا رمسيس نفسه.. حيث إستطرد فى غضب..:

- إن كل الأمور الآن تسير من سيئ إلى أسوأ، ولا يوجد أى حلول تلوح فى الأفق.. فرمسيس المعظم عنيد ولن يرضخ لمطالب كل هؤلاء الغوغائيون..

قالها ثم إلتفت إلى أوناس متسائلاً:

- ما رأيك أنت يا أوناس بصفتك قائد الجيوش، لقد أخبرتنى أن لديك هذه الأمسية ما تود مصارحتنا بشأنه.

تنحنح قائد الجيوش (اوناس) وهو يُخرج بردية ملفوفة من طيات ملابسه، وقام واقفاً وهو يبدأ فى الحديث لشرح أبعاد الأمر على الحضور الذين لم يتعدوا العشر أشخاص.. وهم من كانت تُدار أمور البلاد عن طريقهم، فقد كانوا يستطيعون إشعال البلاد أو تهدئتها بما لهم من سلطة ونفوذ..

إقترب أوناس من عجوزين على رأس المائدة وهو يتحدث إليهم مباشرة :

- من عشرة أيام يا سيدى الكاهن الأعظم ويا سيدى المُبجل الوزير الأول (حور) بدأت المشاكل تعود مرة أخرى إلى معبد الرامسيوم، وذلك عن طريق عمال دير المدينة، والذين هم دائمي الشكوى من ارتفاع الأسعار وتدهور الحالة الإقتصادية للبلاد وتأخر صرف أجور عمال البناء أو الجبانة في دير المدينة في منطقة البر الغربي بطيبة، وهم أعداد كبيرة للغاية.. نعم لا أُخفي عليكم أن الإنشاءات كثيرة جداً، وتتم في تلك الفترة سنوياً وبشكل مستمر، حيث تُغدق عليها الأموال الطائلة فى إنشائها، وللأسف الشديد كنتيجة لإنشغال رمسيس المعظم........

قاطعه حور الوزير الأول قائلاً:

- لا تُجمل حديثك يا أوناس.. فأنت بصفتك قائداً عسكرياً لا تفقه الكثير من الجوانب المدنية، نعم نحن أهملنا فى إعطاء العمال مستحقاتهم المالية أكثر من مرة، مما تسبب في أول إضراب في نهاية العام الماضي، ووقتها توقف العمال عن العمل فى منطقة عملهم داخل المقابر الملكية، ولكن السبب فى ذلك أننا كنا نخوض معارك شرسة وقتها، وأنت أعلم منا بذلك.

استطرد أوناس قائلاً :

- أعلم ذلك يا سيدى فهذا بالفعل ما حدث فى ذلك الحين، أما فى حالتنا تلك وفى صباح اليوم التالى من الاضطرابات توجهوا إلي الوزير "تا" المقيم بمعبد الرامسيوم ورفعوا إليه شكواهم ولكن دون جدوي، لأن الوزير نفسه لم يكن لديه أية صلاحيات لحل الأمر، وقد أرسل إلىّ لمطالبتى فى إرساء الأمن فى الرامسيوم، فتوجهت بعدد من القطع الحربية، وإستطعت إحتواء الأمر بالفعل، ولكن إلى متى..؟

تراجع الوزير الأول فى مقعده قائلاً:

- لقد عرضت الأمر يا أوناس على رمسيس المعظم، ولكن أنت تعلم أن الرجل فى أرزل العمر ولا يكاد يتحمل العديد من الأخبار السيئة، فليكفي الرجل من مضايقات وليكفيه ما قام به للبلاد.
- فلتعرض الأمر إذن على مولاى ولى العهد.
- ليس الآن .. ألست قادراً على وأد تلك الفتنة يا أوناس...؟
- بلى يا سيدى، ولكنى لا أستطيع فعل ذلك إلا بعد الرجوع إليكم بالطبع.
- أوناس.. لا نريد لما حدث فى الثورة الأولى أيام الملك بيبي الثانى أن يحدث مرة أخرى، فقد إستطاعت ثورة الجياع أن تقضي على عصره الذهبي.

أشار إليهم الكاهن الأكبر بإشارة من يده موجهاً حديثه إلى أوناس:

- ما فحوى تلك الرسالة التى وصلت إليك يا أوناس.؟

- لقد وصلت تلك الرسالة إليّ عن طريق الوزير (تا) فى معبد الرامسيوم، وقد نقلها إليه وفد من العمال المضربين، وقد طلبوا منه أن يوصلها إلى مولاى رمسيس المعظم، وهذه فحواها:

(نحن جائعون.. وقد مضى ثمانية عشر يوماً من هذا الشهر.... جئنا هنا ويقودنا الجوع والعطش.. ليس لدينا الملابس أو الزيت أو الخضراوات.. اكتبوا هذا إلى (سيدنا الأعلى) والوزير (رئيسنا) واطلبوا منه أن يعطينا معيشتنا"

وهذا ما أخبرنى به (تا)، ولذلك جئتكم على عجل، فلا أدرى كيف أتصرف..

نهض الكاهن الأكبر ليعاود الحديث موجهاً كلامه للحضور :

- لا أُنكر عليكم أن طيبة تعيش أسوأ مراحلها.. سوف أحدثكم بكل وضوح وصراحة، وعلينا مواجهة الأمر كرجال، ولا نملك إلا تقديم الخير لأمتنا.. نحن ككهنة آمون لدينا بالفعل الكثير من الأوقاف والأراضى والأموال المخصصة للقصور الملكية.. و معبد الرامسيوم ومعبد رمسيس الثانى معبأ بالثروات والذهب.. لذلك فإن أى ثورة قادمة ستطيح بكهنة آمون وبالتالى طيبة المتدينة، ولا أبالغ إن قلت أن طيبة بأكملها سوف تفنى وتندثر عظمتها من الوجود.. أرى هنا أكثر الرجال الذين نثق في وطنيتهم، فهنا القاضيان المبجلان (نب رع) و (سيبي)، وكذلك أنت يا سيدى حور الوزير الأول، ورئيس حاشية البلاط الملكى السيد (بنجو)، والكهنة خنت و تتى و هابو.. وأنت يا أوناس.. لذلك أنا أعرض الأمر هنا وبكل وضوح ..

أرى أن الملك بعد أن قام بكل ما استطاع القيام به من إنشاء المعابد وترسيخ السلام وبعد إنتصاره فى المعركة الأخيرة، أرى أنه قد إنغمس فى الملذات، وأنا أرى من خلال إنتشار الكهنة وسط الشعب أن سخطهم نابع من تولى الأجانب وظائف الدولة العامة وخاصة في البلاط الملكي، ليصيروا أمناء للملك، الذي يستمع لنصائحهم مما زاد من الأزمة الاقتصادية التي سببت ارتفاعاً كبيراً في أسعار الحبوب الغذائية بصورة لم يكن للشعب عهد بها من قبل..

قاطعه الوزير الأول قائلاً:

- الملك لا يدرى عن هذا الموضوع أى شئ، هو يري أن كل الشعب يهتف له وبإسمه ولا يشعر ببعض الطوائف كما تقول يا سيدى.. لا ننكر أنه قد أدى كل ما عليه والذى سوف يتذكره التاريخ بكل فخر ولكن..

استطرد الكاهن الأعظم فى حديثه وهو يقترب من القاضيان ويربت على كتفهما:

- هناك الكثير من الأمور التى تحدث فى الآونة الأخيرة والتى لا نقبلها كما أنها تثير إستياء كل رجال البلاط الملكى، كهنة وقادة وحراس.. بل وقضاة أيضاً.

أجابه القاضي نب رع قائلاً فى دهشة وهو ينظر إلى القاضي الآخر سيبي :

- أهناك أمور أخرى أشد قتامة من الوضع المأساوى فى الخارج يا حتب المعظم...؟!
- الغرباء أو ما نطلق عليهم المبعوثين يا صديقي.. كيف لا ترى حفاوة الملك بهم هو وولى عهده..؟، لقد أصبح الآن يستشيرهم فى كل كبيرة وصغيرة.. يسير على طريق أسلافه الراحلين، وهذا لا أنكره بالطبع، ولكن تغلغلهم من أيام مولاى رمسيس الثانى ومن بعده مرنبتاح المعظم ودورهم فى إختفاء الأمير خا ام واس إن كنتم تتذكرون هذا الاسم.. وترحيبه بهم فى البلاط الملكى قد يتسبب فى إهتزاز عرش إمبراطورية طيبة، إننا حتى هذه اللحظة لا نعلم من هم ولا من أين أتوا، ولا يعلم ذلك إلا الأسر الملكية فقط.
- وإن يكن.. أنت ترى أنه لولا مساعدتهم فى كثير من العلوم الفرعونية وإنشاء المعابد و......

قاطعه حتب بحسم:

- وآمون..؟، هل أصبحتم تعولون نجاحاتكم على الغرباء متناسايين الأمور الدينية... تناسيتم أنكم كنتم تلجأون إلى الإله الأعظم فى كل نواحى حياتكم، والآن أصبح الغرباء.. الغرباء فى كل مكان.
- أنا لا أقصد ذلك إطلاقاً، بل أقصد أن مولانا الملك يعاملهم معاملة الملوك، ويحرص على توديعهم وإستقبالهم بنفسه هو وولى عهده.

تدخل الوزير الأول حور فى الحوار مكملاً الحديث:

- وولى عهده أيضاً أشد صرامة من والده.

- لقد ورث ذلك من أمه الملكة (أست)، بعكس الأمير بنتائور ابن الملكة (تيا) .

أجابهم أوناس قائد الجيوش:

- ليته كان هو ولى العهد والملك المنتظر عوضاً عن ولى العهد الحالى، فهو وأمه الملكة تيا من السهل التأثير عليهم، بعكس ولى العهد وأمه الملكة أست المعظمة.

قاطعه الكاهن الأكبر:

- كلها أمنيات يا عزيزى، لكن ربما حملت لنا الأيام ما لم نتوقعه، ما علينا الآن سوي الإنتظار..

أجابه حور:

- سنري فى الغد ما سوف يحدث فى الإحتفال المقرر عقده لتوديعهم والإحتفال بالنصر العظيم.

ثم استطرد وهو ينهض واقفاً :

- سنؤجل الحديث للأيام القادمة، والآن هيا بنا حتى لا يُقال أن هناك إجتماعاً يجرى فى الخفاء، فأنت تعلم أن العيون لا تنام فى طيبة.

وما لبث أن خرج القاضيان مع أوناس قائد الجيش والوزير حور... وبقى الكاهن الأكبر مشيراً إلى مساعديه خنت وتتى وهابو بالمكوث وما هى إلا لحظات حتى إجتمع الأربعة فى الغرفة الداخلية لكبير الكهنة الذى بدأ فى الحديث متوتراً:

- فلتسمعونى جيداً فالأمر غاية فى الخطورة، وما أخبرت به الجميع منذ دقائق ما هى إلا قشور، إن الوضع يغلى فى دير المدينة والعمال على وشك الانفجار فى وجه الحاكم والملك، ولابد أن يكون لنا دوراً فى الأحداث الجارية.

أومأ الكهنة الثلاثة برأسهم علامة الموافقة ، وقد إعتدل الكاهن تتى قائلاً:

- نعلم ذلك للأسف يا سيدى حتب، ونخشي من آثار ذلك الإنفجار علينا فى مرحله ما بعد الملك إن حدث فى الأمر شئ كما نتوقع.

إستطرد الكاهن الأكبر:

- لا تنسوا أبداً أن معبد الرامسيوم ومعبد رمسيس الثاني قد ينالهم الكثير من الإضطرابات، وذلك لما فيهم من ثراء وذهب، ولا تنسوا ما لكافة المعابد من الهبات كالأوقاف والأراضى والأموال، والمأخوذة من مخصصات القصور الملكية، وكذلك مخازن الغلال والتموين، لذا أري أن عليكم الذهاب غداً ومحاوله نقل كميات الذهب مع حراسة مشددة إلى هنا بأمر منى شخصياً وصك سأعطيه لكل منكم لاعطائه للكهنه هناك.

إعتدل الكاهن خنت وهو يتساءل:

- حسناً يا سيدى، سنفعل ما أمرت به من فجر الغد، ولكن هل تسمح لى بالسؤال عن أمر آخر.؟

أشار الكاهن الأكبر قائلاً:

- هذا الأمر الآخر هو ما جمعتكم من أجله..أخبرنى ما هى أخبار الوصيفة (مكت اتون) يا هابو هل هناك أى جديد..؟

هز هابو رأسه قائلاً:

- لا سيدى
- فلتخبر الكهنة عن تطورات الأمور فى جناح الملكة تيا.

إعتدل هابو وهو يشرح للكهنة قائلاً:

- يا سادة إن الملكة تيا قد أصبحت على شفا حفرة من الجنون، وقد أخبرتنى مكت اتون وصيفتها المقربة شخصياً أن المرأة إجتمعت بإبنها بنتائور وبدا واضحاً فى حديثهم غضبهم من تصرفات ولى العهد وتصرفات والده مولانا الملك مما دعاهم للتفكير فى الخلاص من ولى العهد و...و....

- أكمل يا هابو ولا تخف، فكلنا هنا على قلب واحد.

تنحنح هابو قائلاً في تردد:

- ان مولاتى الملكه اوعزت الى عدد من الوصيفات المقربات على التخلص من مولاى الملك .

بدأ تى و خنت فى الهمهمة وقد إنتابنتهم الدهشة، إلا أن الكاهن الأكبر أسكتهم بإشارة من يده، فأكمل هابو:

- ولقد علمت مكت اتون أن هناك نية مبيتة للتخلص من الملك فى القريب، وأنها فى إنتظار الرأى الأخير من ... من....

- فلتكمل يا هابو...

- منك أنت يا سيدى.

نهض الكاهن الأكبر وهو يتجه إلى القنديل المطفئ الموجود فى الغرفة، ويمد يده ليشعله وقد إحترم الجميع صمته.. فوضع القليل من زيت وردى اللون فى قرطاس ذهبي لتتصاعد الأبخرة ذات الرائحة النفاذة من عطر فاخر ، وقد سرح بنظره إلى لا مكان، ثم بدأ فى الحديث:

- بعد ولادتى عقب فترة كبيرة من زواج والديّ، وفشلهم فى إنجاب غيري، كان أبى يحلم بأن أصبح من عظماء البلاد، فزج بي في المعبد منذ نعومة أظافري حتى أتعلم وأصبح ذا شأن عظيم، فقد كان يرى العلم أساس كل نهضة و ارتقاء.... لم يكن يؤخر لي رغبة.. ولكنه توفي قبل أن أبلغ عامى التاسع لكِبر سنه...

كان التعلم في بدايته مرهقاً، وكان دوماً يصيبنى بالضجر، إلا أنى قاومت وصبرت ووضعت الحلم الذى لقننى إياه أبى دوماً ، وأخذت أتذكر أقواله لي عن العلم ومآثره وعن المستقبل الزاهر الذي ينتظرنى إذا واصلت السير فيه.. وحتى أكون شخصاً يُفتخر به يوماً ما، وكل ذلك كان بمثابة الحافز لي علي الإستمرار، فسرت علي الطريق الذي أراده له لي أبى، لم أتوان لحظة، ولم أُخلف ظنه فيما أراده لي ذات يوم.... تعلمت الحساب والفلك والهندسة وعاقرت لفائف طب البرديات، وأغلب العلوم الدنيوية، إلا أن هذه العلوم لم تستهوني بقدر ما إجتذبني سلك الكهنوت.. لم أرغب في الإلتحاق بجيش لأصبح جندياً مخلصاً وأصبح مصدر تفاخر لأبي فى العالم الآخر، وكما

كان يطمح كثير من زملائي في المعبد بعد إتمام دراستهم به، ولم أقنع بالتدرج في مناصبه حتى أصل بعد طول عناء وعطف من جلالته إلي أقصى ما قد يصل إليه إنسان، وفي نهاية العمر بعد أن أكون قد أفنيت حياتى في خدمة مولاى .. أصير ماذا..؟، قائد جيوش فقط.. لا.. لم يكن ذلك طموحى أو ما أسعى إليه أو حتى مجرد حلم كان ليُسعد أبي.. لقد أصبح الحلم كلما اقتربت منه يتباعد عنى وصار أكبر فأكبر فأكبر..

لقد إزدادت الرغبة داخلي في أن أصبح كاهناً، صارحت كبير كهنة طيبة بذلك، والذي لولاه لما تجاوزت بوابة المعبد، فسعد وشملني بعطفه ورعايته وحمّلني في عنقي ديناً آخر فوق ديوني الكثيرة التي أدين بها إلي روحه الطاهرة، فإتجهت إلي الدين بكل جوارحي، وقد كان سيدي كبير الكهنة سعيد بي، مسروراً من تفوقي وحماسي للدين، فقربني منه علي صغر سني حتى صرت ساعده الأيمن، وجعلني أحضر مجلس الكهان الأعظم، وتوسم الجميع فيّ النبوغ وتنبؤا لى بمستقبل عظيم .

من وقتها أيها السادة أدركت أن الدين هو المسيطر علي البلاد، وستزداد سيطرته عاماً بعد عام.. فعن طريقه تستطيع أن تفعل ما تريد وقتما تريد.. وأن تصل إلي ما تريد أياً كان ثمنه أو موقعه أو قدره..

مُر.. تُطَع.. ادخل أى شئ فى الدين وسترى أن العامة سيلتفون حولك.. لا يهم ماضيك أو حاضرك.. فقط تنكر فى زى كاهن و تحدث بأمور دينية، و سترى أنك قد أصبحت ملك هذه البلاد الحقيقى ..

تأمر فتُطاع ، ربما أكثر من الملك نفسه.

وبدخولي سلك الكهنوت أصبحت من ذوى الرؤوس الحليقة علي صغر سني، وإرتديت رداءاً من جلد الفهد لأصبح كاهناً يقوم بقراءة طقس فتح الفم حتى يعيد للموتى الحياة ويعيدهم إلي الحياة الأخرى ما بعد الموت.. تسابق الجميع إلى تقبيل أقدامى أينما أسير.. أصبحت كلمتى مسموعة فى البلاط الملكى بل من جلالة الملك نفسه.. أصبحت كالإله سواء بسواء، لي القدرة علي إعادة الحياة للموتى وإعادة الموتى للحياة كل هذا بفضل الدين.. فالشكر كل الشكر للدين الذى أوصلنى إلى هذا، أقول كما علمني سيدي كبير الكهنة (قم لترى عيناك ولتسمع أذناك ولتشم أنفك ولتتحرك أعضاؤك، لتدافع عن نفسك أمام أعدائك)

وتدرجت وتدرجت إلى أن جلست على كرسي الكاهن الأعظم وها أنا ذا....

مُر .. تُطَع..

ولكن هؤلاء الغرباء.. لقد أصبحوا فى كل ديوان ملكى.. أصبح تدخلهم فى الشئون الدنيوية أمراً لا يُطاق.. أصبحت كلمتهم مسموعة ربما أكثر من كبير الكهنة.. أصبحت الأمور الدنيوية عند جلالة الملك وولى عهده أهم من الدين.. أصبحت مشورة الغرباء أهم من رجال الدين.. والمحزن أنه تتم إحاطة وجودهم وزيارتهم بسرية تامة، ولا يحق لأحد مخاطبتهم إلا بعض رجال البلاط الملكى، منذ عهد جلالة الملك رمسيس الثانى إلى الآن وهم يتمتعون بمكانة خاصة.. حتى الكهنة غير مسموح لهم بالإقتراب من الغرباء.. وها هم يقيمون دائماً فى القصر الملكى ويقوم على خدمتهم ولى العهد بنفسه.. فهو مقتنع أن خدماتهم ومشورتهم لا تقدر بثمن منذ أيام أسلافه، فلطالما ساعدوا فى بناء المعابد والعلوم الحديثة والفلك وآلاف المعلومات التى لا تنضب منهم.. لذلك فهو يبقيهم إلى جواره دوماً..

والآن وبعد أن امتلأت خزائن معابد آمون بالذهب أصبح كل شئ فى وجود هؤلاء الغرباء فى مهب الريح.. فعلى الرغم من إنتصارات الملك فى شتى البلاد، لكن الحال سئ فى البلاد فقد إنتشر الإنقسام فى الداخل.. وعم ربوعها الفقر والجوع وأصبحنا في أزمة طاحنة وعلي شفا الهاوية، وأصبحت البلاد بين لحظة وأخرى تنتظر النهاية، والأمل الآن أصبح معلقاً علي الدين..

منذ فترة وبعد تعيين ولى العهد ابن الملكة أست بدأت القلاقل، وبدأت الغيرة تأكل فى قلب مولاتى الملكة تيا، وعندما صارحتنى بالأمر وفيما تفكر فيه، حيث كانت تفكر لما لا يكون مولاى بنتائور القريب من الكهنة والمعبد، لما لا يكون هو ولى العهد على الرغم من التقاليد الفرعونية التى تُلزم الملك بإختيار ولى عهده من أبناء زوجته الأولى، لكنى أخبرتها أننا لا نريد بطل مُحارب على قدر ما نريد شخصاً قريباً من رجال الدين.. شخصاً نستطيع نحن تشكيله والسيطرة عليه أيها السادة..

إن تعيين بنتائور كولى للعهد والموالى لنا، البعيد تمام البعد عن الغرباء، فإن ذلك يصب فى مصلحة البلاد ومصلحتنا أيضاً وذلك على قدر مقته لهم .. لذا كان لابد من جلوسي معه مرات ومرات لأستشف رأيه عن ما إذا كان فعلاً مؤهلاً ليكون هو ولى العهد المنتظر والذى سيخدم مصلحة البلاد ومصلحتنا أم لا..؟

وها أنا ذا أؤكد لكم أن الأمير على شفا الإنفجار من تصرفات أبيه وأخوه ولى العهد، ولا يدرى لما لم يعينه الملك كوريث للعرش، فهو يري أنه أحق من أخيه فى ذلك، لذلك عندما سألنى صراحة عن رأيي، أخبرته أن كهنة آمون

ورائه فى أى قرار أو عمل سيقوم به.. وقد تغيرت كل أراءه تماماً بعدما جلست معه مرات ومرات حتى شكلته بالشكل الذى كنت أريده تماماً.. جعلت منه وحش فى صوره آدمية ..

إن الأيام القادمة سوف توضح لنا الكثير من الوقائع، وعلينا التماسك يا حماة الدين..

التماسك يا حماة الدين.. فنحن عصب الدولة، هل تعلمون أنه يقوم علي خدمة معابد آمون مائة ألف وسبعة آلاف مصري تقريباً.. لذلك يجب علينا جميعاً الوقوف صفاً واحداً..

والآن عليكم الإنصراف والمرور عليّ غداً حتى أكون قد قمت بتجهيز الرسائل إلى كهنة المعابد لنقل الذهب إلى هنا حيث معبد آمون، و لتصحبكم السلامة.

وما هى إلا لحظات حتى إنطفأت أنوار القاعة الرئيسية بعد أن رحل الجميع .....

****

فى صباح اليوم التالى كانت الإحتفالات مقامة على طول الطريق المؤدى إلى قصر الملك وقد بدأت الموسيقي تصدح فى جنباته، بينما جلس الجميع فى انتظار دخول الملك الملقب برمسيس الثالث على عرشه الذهبي، وبجوار العرش جلس ولى العهد (هقا ماعت رع) و هو يوزع ابتساماته على الجميع، بينما انشغل بحديث جانبي مع قائد الجيوش اوناس..

كان البهو فسيحاً جداً وقد سطعت الألوان الذهبية من النقوش المتلألئة بالذهب الخالص والمنقوشة على جدران القصر، ولم تتوقف الموسيقي عن العزف وسط عشرات الحضور من كبار القوم فى طيبة والعديد من أصحاب المناصب وذوى النفوذ فى البلاد..

بينما فى الصفوف الخلفية كان هناك الأمير بنتائور الذى يكاد ينفجر غيظاً وهو ينظر بحقد إلى أخيه الغير شقيق، فلم يجلس بين القوم وظل يمشي فى الممر الخلفي المؤدى إلى حديقة القصر حتى وصل إلى الشرفة، وما إن لمحه الحراس الموجودين قادماً حتى سجدوا، فتوقف وهو ينظر إلى الموكب القادم لأبيه الملك، وقد أحاطت به حاشيته..

تنفس وقتها الصعداء عندما وجد أن جميع الحاشية الآن من الموالين له ولأمه الملكة تيا.. بينما من خلف الملك سار ثلاثة من المبعوثين ومن حولهم الحراسة المشددة، وقد إرتدوا ملابسهم السوداء، فقد كان من غير المسموح لأى أحد بالتحدث

معهم أو حتى الإقتراب منهم.. كان الجميع يسير بهرولة أمام الملك الذى كان يتحرك بصعوبة بعد وصوله لهذا العمر، مما جعل بنتائور يتهكم و يهمس فى سره:

- تحرك أيها العجوز.. تحرك.. لتترفل فى ملابسك الذهبية وتسير كما الطاووس المغتر فى مملكته.. لما لا تلقي إلهك الآن..؟، فأنت ستندم كثيراً على سوء إختيارك..

أُطلق النفير من الداخل إعلاناً بقدوم مبعوث الآلهة والملك المعظم (سر معت رع) أو رمسيس الثالث الذى دخل مزهواً إلى القاعة ليعتلى عرشه الذهبي فى صدارة القاعة، بينما سجد الجميع حتى جلس الملك إلى كرسيه وأشار للكافة بالقيام والجلوس فى مقاعدهم بينما توجه المبعوثين إلى أماكن معينة وضعت على يسار الملك بملابسهم السوداء والتى لا تُظهر أبداً حتى ملامحهم..

كان كبير الكهنة حتب والوزير الأول حور يتهامسان، وعندما نظر إليهم بنتائور وجدهم يبادلونه الإبتسام وكأنهما يتناقشا فى ذلك الإجتماع المزمع عقده غداً مع الملكة الأم ليناقشا الخطوط العريضة فى كيفية التخلص من الملك، ظل بنتائور يستمع إلى الحضور الذين ظلوا يمدحون الملك وولى عهده وما قام به من إنتصارات سوف تُخلد فى صفحات التاريخ، وكيف أن المصريين يسبحون بحمد الله إذ نصرهم على الأعداء فى كل المعارك التى خاضها أولاده.

ولكنه أفاق على صوت أخيه ولى العهد والملك المنتظر وهو يستكمل ما بدأه قائد الحرس أوناس...

- كم هو مخادع ذلك القائد..

هذا ما همس به بنتائور لنفسه وهو يستمع إلى أخيه ذو الصوت الجهورى وهو يُكمل...

- إن ربوع البلاد تفخر أنه في عهد مولاى الملك اختفت الإمبراطورية الحيثية والكيانات السياسية الأخرى الأقل أهمية، وقد تأثرت كل بلاد الشرق الأدني، ولكن دون التدخل الحازم من مولاى المعظم فى معركة زاهى لفقدت طيبة سيادتها كما حدث في عهد الهكسوس... إن ما قام به مولاى الملك حفيد الآلهة وحفيد مولاى رمسيس الثانى صاحب نهضة بلادنا الأولى الحديثة من إستعادة الهيمنة المصرية في السياسية الخارجية كما كان في السابق لهو إنجاز كبير.. ولا ننس أن الموقف المعقد الذي كانت تعيشه الشعوب المجاورة كان يتطلب رد قوى من

جانبنا العسكري، فشعوب البحر إنتهوا مع المملكة الحيثية وأيضاً احتلت قبرص وبلاد نارينا، وتلقت المقاطعة المصرية لدى كنعان غارات مستمرة من هؤلاء الغزاة، والتي يمكن أن تصل إلى مصر نفسها، وفي خلال السنوات الأولي من حكم مولانا الملك، تلقت منطقة دلتا النيل زيادة في عدد المهاجرين إليها بسبب البحث عن حياة أفضل، لذلك كانت سياستنا الداخلية تواجه مجموعتين من شعوب ما وراء البحار الذين توجهوا إلى الدلتا في العام الثامن من حكمه، ولذلك أيضاً وقعت تلك المعركة البحرية عند مصب نهر النيل حيث تم تدمير أسطول العدو، وبجانب تعزيز الحدود الشرقية، كل ذلك كان كافياً لتجنب الغزو من شعوب البحر ، وبالكاد قد تعافت طيبة واتجهت بنفس المصير إلى الإمبراطورية الحيثية، حيث انسحاب شعوب البحر قد شجع جيشنا العظيم لإستعادة السيطرة على الاستعمار الخارجى التي إضطلع بها أسلافه، وتم استرداد العديد من الدول جزئياً وأربع مدن محصنة شملت مناطق بالفرات، ولكن فرحة النصر لم تستمر إلا قليلاً، حيث أنه وبعد عدة سنوات فُقدت أرض كنعان إلى الأبد .

ومما لا شك فيه أيضاً أن الحدود الليبية كانت خطرة في أعقاب تنظيم السكان الليبيين الرُحل الذين يعيشون في تلك المنطقة في السنة الحادية عشر من حكم مولانا الملك، لذلك حرص الجيش الليبي على الاستقرار في الاراضي المصرية الخصبة، حيث اتجهوا إلى ممفيس، وبالقرب من تلك المدينة وقعت المعركة، معركة دلتا العظيمة حيث شرفت بقيادتها، وانتصر مولاى وجيشنا المعظم بمساعدة قائدنا الراحل كاجمنى، وكانت أعداد الأسرى كبيرة، وقُدموا كالعبيد إلى المعابد، وبمجرد قمع هذا الخطر الشرقي، ذهب جيشنا بقيادة مولانا الملك بنفسه فى إتجاه ليبيا حيث كان يوجد تمرد هناك وهُزمت القوات الليبية، وحصل جيشنا على الكثير من الأسرى...

إن ما فعله مولاى رمسيس الثالث بالأعداء أنه انقض عليهم كلهيب النار المنتشر في هشيم كثيف فأُلقُوا على الأرض غارقين في دمائهم واقْتِيدَ كل من بقي منهم حياً أسيراً إلى طيبة.

ظل ولى العهد (هقا ماعت رع) يتحدث ويتحدث وسط إعجاب والده والحاضرين، بينما كان بنتائور يود أن يكتم تلك الأصوات إلى الأبد، لكنه عاد مره أخرى إلى ذلك التفكير المقيت:

- لما لست أنا من يجلس الآن بجوار الملك...؟، لما تلك التقاليد الغبية التى تُلزم إختيار ولى العهد من الملكة أست المغترة..؟، وكيف لهذا المتفاخر أن يتلو كل تلك الخطب الرنانة ليثبت للكافة أنه هو من يستحق كرسي العرش من بعد العجوز..؟، لم ولن أندم أبداً على ما سأفعله بهم جميعاً، وليغفر لى آمون.. فبمجرد جلوسي على هذا العرش سأقوم بكل ما يطلبه الكهنة لتُغفر خطيئتى وأتقرب من آمون مرة أخرى.. ولكن أين أنت أيها الكاهن الأكبر..؟، هل تتلون أنت الآخر كالحرباء.. كلكم متلونون، كلكم أصحاب غايات وأهداف.. فلتحل عليكم جميعاً لعنة الإله آمون .. ولتنتظروا أدواركم جميعاً ، فأنا لن أرحم أحد منكم.

وفى هذه الأثناء كان كبير الكهنة يتحدث بصوته الهادئ وهو لا يزال مُشيداً بحكمة الملك الإله الأعظم، شاكراً إياه على الهبات التى يأمر بها للمعابد :

- يا سيدى إن ما قمتم به فى كافة معابد مصر في پي رمسيس وأون ومنف وأتريبيس وهرموپوليس وثيس وأبيدوس وكوپتوس والكاب والمدن الأخرى في النوبة وسوريا يدين لك بالفخر.. إن الإنشاءات والتماثيل والمقابر وكل شئ سيخلد اسمكم فى التاريخ وستدخلونه من أوسع أبوابه بصفتك الابن البار لآمون يا مولاى الملك، ولعل من أشد ما يشعرنى بالسعادة فى قلبي هو أن عظمتكم قد بدأتم فى إعادة بناء معبد خونسو في الكرنك من قواعد معبد سابق بناه أمنحوتپ الثالث، وكذلك أكملتم معبد مدينة هابو فى حوالي السنة الثانية عشر من عهدكم المبارك ، لذلك فقد أصدرت أوامرى لكل الكهنة وعمال المعابد بتزيين جدران معبد مدينة هابو بمشاهد من معارك مولانا الملك البحرية والبرية ضد شعوب البحر ..

  إن إنشاءاتك يا مولانا المعظم فى بناء ملحقات هامة في المعابد بالأقصر والكرنك، وكذلك المعبد الجنائزي والمجمع الإداري في مدينة هابو، التي تُعد الأكبر والأفضل في الحفاظ على طيبة والحفاظ على الدين.. الدين يا مولاى الملك هو عماد هذه الأمة.. والدين فقط هو من سيحميها إلى أبد الدهر..

إعتدل الملك وقد خرج صوته ضعيفاً موجهاً حديثه إلى كبير الكنهة حتب:

- الدين.. نعم الدين يا كهنة آمون.. وبخصوص الدين أخبرنى عن عمال المعابد يا حتب لقد أخبرنى رجال الشرطة أن هناك بعض القلاقل فى معبد الرامسيوم.

- بالفعل هناك بعضاً من المشاكل يا سيدى ولكن سيتم حلها فى القريب العاجل.

- بشأن رواتبهم المتأخرة .. أليس كذلك؟

- كان هناك خطأً ما وتم معالجته، فلا تشغل بالك يا مولاى الملك.

- أنتم الكهنة.. أنتم رمز لهذا الدين يا حتب، فلا تجعل العامة يظنون بكم السوء فيختلط الأمر عليهم، فلا يعودوا يفرقون بينكم وبين الدين، يسبونكم فيسبوا الدين دون وجه حق.

انبري ولى العهد قائلاً بصرامة موجهاً حديثه لوالده:

- لا تشغل بالك يا مولاى الملك، ففى الأسبوع القادم سأتولى حل هذه المشكلة و سأذهب إلى المعابد بنفسي على رأس حامية عسكرية إلى هناك، وسأحاسب المخطئ أياً كان اسمه أو موقعه.

قالها وهو ينظر بنظرات غير مريحة على الإطلاق لكبير الكهنة الذى كان فى حيرة من أمره.. فلا أحد يعلم حتى هذه اللحظة أنه هو من أصدر أوامره بتأخير أجور العمال فى هذه الأوقات من أجل الثورة على الملك ..فسكت هنيهة بينما استدرك الملك مُحدثاً الكافة:

- حسناً حسناً .. إننا فى هذا اليوم المبارك من أيام آمون المخلد أود أن أشارك أبناء طيبة الفرح والسرور.. وأشارك ضيوفنا المرسلين من بلاد ما وراء النهر، الشكر لكل ما قدموه ويقدموه لنا من علم على مدار عشرات السنوات.

وأشار بيده محيياً الثلاثة أشخاص المرتدين السواد الذين دلفوا معه إلى القاعة، فأومأ الثلاثة برؤسهم دليل على تبادل الشكر دون أن ينبث أى منهم بحرف كعادتهم دوماً، بينما استطرد الملك:

- أتذكر الآن بعض الكلمات التى كنت اتلوها فى مدارس العلم وأنا صغير، وكأنها حفرت فى ذاكرتى لوقت مثل هذا، لكنها تمس وجدانى من الداخل.. أبنائي وحاشيتى وجنودى وحراسي لقد أقبلت الشيخوخة.. وبدأ خرفها وسرت الآلام فى الأعضاء وتبدى الهرم وكأنه شئ جديد، وذهبت القوة وحل محلها الضعف والهزال، وصمت الفم وسيتوقف عن الكلام وقتاً ما، وغارت العينان وأصبحت الآذان صماء وأمسي القلب كثير النسيان لا يذكر ما حدث بالأمس، وتوقف الأنف فأصبح ساكناً لا يتنفس، وصار الوقوف والجلوس كلاهما شاقاً، وتحول الحسن

إلى سئ، ولم يبق لشئ أى طعم، وتقدم السن جعل أحوال المرء سيئة فى كل شئ، وكما إتخذت سنداً لى فى شيخوختى وجعلت من ابنى (هقا ماعت رع) خليفة لى باسم رمسيس الرابع المعظم لما اسداه من خدمات جليلة إلى طيبة، فسوف يحتل مكانى وسيتعلم عظات كل من يستمعون وأراء كل من سبقوا حتى يتعلم ويتعلم ليكون سبباً فى زوال النزاع بين الناس..

لم يحتمل بنتائور الجلوس فخرج دون أن يلاحظه أحد لكونه فى الصفوف الخلفية، وقد أوشك على الإنفجار، فى حين كان الكاهن حتب فقط هو من رآه، فإبتسم فى قرارة نفسه فقد كانت الأمور تسير بالشكل الذى يرسمه تحديداً...

استكمل الملك موجهاً حديثه هذه المرة إلى ولى عهده:

- وأنت يا ولى العهد، لا تغتر أبداً بما حصلت عليه من علم فتستكبر.. ولا تتجبر.. واجعل الأمر شورى مع الجميع، شاور الرجل الغير متعلم كالمتعلم، لأنه يا و لدى ليس هناك أى حد للمعرفة، ولا رجل وصل إلى نهاية الأمر بفنه، وان القول الحكيم نادر، وأكثر من اختفاء الحجر الأخضر الكريم، واذا وجدت رجلاً يتكلم وكان اكبر منك وأشد حكمة أصغ إليه واحن ظهرك أمامه، ولا تغضب اذا تفوه بالسوء، وقتها سيقول عليك الناس تباً له من جاهل، واذا وجدت رجلاً مساوياً لك يتجادل واثار حديث السوء فلا تسكت، بل اظهر حكمتك وأحسن أدبك فإن الكل سيثنون عليك وسيحسن اسمك عند العظماء، وإذا وجدت رجلاً يتكلم وكان فقيراً فلا تحتقره لأنه أقل منك، بل دعه وشأنه ولا تحرجه لتُسِر قلبك، ولا تصب عليه جام غضبك، فكلنا من نفس طينة طيبة يا ولدى.

  فإن كنت فى صحبة جماعة من الناس، وكنت عليهم ملكاً، ولشئونهم متولياً، فعاملهم معاملة حسنة حتى لا تُلام، وليكن مسلكك معهم لا يشوبه نقص.. ان العدل يا ولدى عظيم، طريقه سوية مستقيمة، هو ثابت لا يتغير .. من يخالف القوانين عاقبه.. من استحل حقوق الناس حراماً عاقبه.. ما كان الشر يوماً ويصل مقترفه إلى بر الأمان، واعلم أنه قد يحصل المرء على شئ من الثروة عن طريق الشر، ولكن قوة الحق ستبقي ثابتة، إن حدود الحق ثابتة يا ولدى، والحلال بيّن والحرام بيّن والمرء يفعل ما تعلمه من ابيه..

****

فى هذه الأثناء كان بنتائور يركل كل ما تصل اليه قدماه فى حديقة القصر وسط دهشة الحراس الموجودين حوله، بينما اقترب منه ضابط الحراسة بنموسي الضابط المسئول عن حراسة ولى العهد والموالى لبنتائور قائلاً :

- مولاي المعظم على رسلك، إن الحراس يلتفتون إليك فلا داعى لمثل هذا التصرفات والتى قد يأخذها عليك بعضهم.
- إنى أكاد أجن يا بنموسي، ليتك كنت فى الداخل لترى كمية الرياء لمولاهم ولى العهد.. حتى المبعوثين يا بنموسي فى صفه.
- يا سيدى نحن نعلم ذلك ونعلم أنه لولا هؤلاء لما قويت شوكته فى الحروب وعاد بالانتصارات التى بهرت العجوز.
- ولكنى أفنيت جهدى فى المعابد وتشييد حضارته، وقمت أنا بترميم ما فسد من المقابر الملكية والكثير الكثير يا بنموسي.
- كلنا نعلم ذلك يا سيدى، لكن بالله عليك فلتهدأ قليلاً ولتسير معى حتى قصرك .

توقف بنتائور و هو يهمس:

- اسمع يا بنموسي إن الملكة الأم قد أخبرتنى أن هناك اجتماع غداً فى المساء، وستدعو إليه كل الموالين لنا لنعلم ما هى الخطوات الواجب اتباعها، وخاصة أن كبير الكهنة المعظم حتب سيكون على رأس المائدة، لكن عليك بتشديد الحراسة على القصر من جميع الأماكن.
- بالطبع يا سيدى فأنا لا أختار إلا من يدين لى بالولاء الكامل.
- اعلم ذلك يا بنموسي ومنصب قائد حرس الملك لن أجد من هو أكفأ منك لشغله.
- وأنا على استعداد لأفديك بروحى يا مولاى.
- فلنري يا صديقي.. فلنرى، إن الأيام القادمة سوف تثبت لنا من هو في صفنا وصف طيبة، ومن هو فى الجانب الآخر.

****

و فى اليوم التالى كان الوقت يقترب من منتصف الليل عندما كان قائد الجيوش اوناس يدور بصحبة قرابة العشرين ضابطاً حول قصر الملكة تيا وابنها الأمير بنتائور والمطل على النيل فى طيبة، حتى وصل إلى المدخل الجنوبي وترجل عن فرسه متجهاً إلى الباب المعدنى الذى كان يقف بجواره ضابط الحراسة بنموسي الذى فتح الباب سريعاً وهو يتلفت يميناً ويساراً، بينما بادره اوناس قائلاً:

- هل الأمور على ما يرام يا بنموسي..؟
- نعم يا سيدى.. إن رجالى يحيطون بالقصر، ولن يُسمح لأي شخص بالتواجد فى محيط قرابة خمسمائة ذراع .. لا تقلق فالأمور كلها بخير.
- وهل حضر الجميع ..؟
- لم يتبق سوانا يا سيدى، وقد كنت انتظرك بعد إغلاق الباب الخارجى .. إن مولاتى الملكة لن تهبط إلا بعد حضور الجميع.

دخل قائد الجيوش إلى القاعة الذهبية، والتى كان الضوء بها يتلألأ من الكوات الموجودة بداخل الحائط ليجد أن الجميع موجودين، فكان بنتائور فى صدارة القاعة يتحدث بهمس إلى حور الوزير الأول وبجوارهما كبير الكهنة حتب وهما يتشاوران، بينما إقترب منهم ساقي الملك (مسو سو رع) وكذلك مشرف الخزانة الملكية (ايب رع) الذى جلس بجوار نافورة المياه التى تُصدر خريراً خافتاً يبعث على النعاس.. مما جعل أوناس يتثاءب بالفعل، بينما أشار إليه بنموسي بالتقدم .

حيا الرجلان الجميع وتقدما ليجلسا فى المكان المخصص لهما بجوار رئيس حاشية فرعون (بنجو) الذى كان ممسكاً بثلاثة تماثيل واضعاً إياهم على فخذيه.. بينما وقف فى آخر البهو رئيس القصر الملكى (بابيك امون) وهو ينظر من الشرفة متوتراً خشية أن يراه أحدهم.. شعر الجميع بقدوم الملكة عندما فُتح الباب الخارجى، وتقدم الجمع أربعة من وصيفاتها ومنهم تويا أخت بنموسي، والتى أشارت إليه فى سعادة بعد أن نجحت أخيراً فى إقناعه بالوقوف بجوار الملكة تيا.. بينما ابتسمت فى دلال واضح للأمير بنتائور بدون أن يلحظ ذلك أحد فيما عدا الوصيفة (نسجيتا) التى أضمرت غيظها وأجلته حتى حين.

وما هى إلا لحظات حتى كانت الملكة تتصدر القاعة وقد جلست على أريكة وثيرة، ومن جوارها جلس ابنها الأمير بنتائور وهى تحيي الجميع، وبجوارها حراسها الشخصيين وست من الوصيفات، جميعم اقسموا على حماية الملكة وابنها حتى الموت.. وبعد أن اقسم الجميع بذلك بدأت الملكة فى الحديث لتذكيرهم أن ما يقوموا به هو من أجل مجد طيبة وإبعاد المبعوثين الغرباء الذين أصبحوا يتدخلون فى كل أمور البلاد، ولم تُخف السبب الرئيس الذى جعلها تقرر التخلص من حياة ملك مصر وولى عهده.

واستطردت الملكة وهى تتكلم بصوت رزين منخفض:

- أريد أن يجلس ابني بنتائور علي العرش بأى شكل وليس ابن أست الذي جعله الملك ولياً للعهد، لقد منحنا مهلة للملك لكنه لم يكترث أو يهتم حتى بما أقوله، لعنة الله على تلك الأعراف الغبية.. لكنى لم أفكر فى هذا الأمر لولا مباركة كهنه آمون العظام وعلى رأسهم كبير الكهنة المعظم حتب.

قام حتب من كرسيه وهو يشير إلى الملكة ليحيها مستكملاً:

- لقد أخذت رأى مجلس الكهنوت يا مولاتى، وكلنا وآمون نبارك خطواتكما المباركة من أجل استعادة عرش طيبة من الغرباء، لقد أصبح مولاى المعظم مجرد أداة فى أيديهم، وسار على خطي أسلافه الراحلين لولا أنه تعدى الأمر وأصبح الغرباء يدسون أنفهم فى كل شئ، والملك وولى عهده أصبحا لا يكترثان بالدين أو بتعاليمنا المقدسة، وأصبح الرأى الأول والأخير لهم ومن حولهم يسير الجميع، ولذلك كل من بالقاعة الآن هم من يحرصون على مجد طيبة وعلى أتم إستعداد للتضحية بحياتهم من أجل طيبة.

نهض بنجو رئيس حاشية فرعون وهو يسير أمام الملكة والحضور بحركة مسرحية وهو يحرك تماثيله السحرية قائلاً:

- مولاتى المعظمة ملكة مصر سوف أضمن لكِ أن تلك التماثيل السحرية لن تجعل أحد من الحراس يتعرض لمن يقتحم غرفة الملك ، فالجميع سوف ينام بفضل هذه التماثيل السحرية.

قالها وبدأ يلوح بالتماثيل السحرية في الهواء وينصت إليها وكأنها تحدثه ويهمس فى أذنها ثم رفع رأسه ناحية الحضور ضاحكاً :

- أبشري يامولاتي.. ابشروا جميعاً فإبنك الأمير بنتائور المعظم سيجلس علي عرش مصر..

ابتسمت الملكة تيا فى زهو وهى تشير إلى رئيس القصر الملكى الذى بدا عصبياً فى تحركاته والذى لم يجلس بل ظل يتحرك جيئة وذهاباً:

- ما بك يا بابيك ..؟، فلتجلس ولا تقلق إن الأمر بيدنا، وطيبة نفسها بأيدينا.

جلس الرجل وهو ينظر إليها فى فزع :

- لو علم مولاى الملك وولى عهده بما سو......

أخرسه بنتائور صارخاً:

- صه أيها الأحمق ، أنا هنا من يقرر، ولو شعرت ثانية واحدة بخذلانك فلن تنجو من خنجري.. إننا الدولة أيها الغبي ألا ترى..؟!!، أخبره يا اوناس من نحن ومن يقع فى وسط زمرتنا المباركة.

وقف اوناس مزهواً وهو يقول:

- بالطبع يا مولاى.. إنها زمرة مباركة على رأسها الملكة المعظمة تيا ومليكنا المنتظر ثم يأتى بعد ذلك كاهننا الأعظم وكبير كهنة آمون المبجل حتب وثلاثة من مجلس كبار الكهنة المعظمين هم خنت وتتى و هابو، ولدينا أيضا مولاى حور الوزير الأول وأنت يا مولاى رئيس القصر الملكى السيد بابيك آمون وكذلك ساقى الملك المبجل مسو سو رع والسيد رئيس الحاشية بنجو بتماثيله السحرية المقدسة، ومعنا مشرف الخزانة الملكية المبجل ايب رع وعدد من الحراس على رأسهم كبير ضباط حراسة ولى العهد المبجل بنموسي واثنان من كبار القضاة هما السيدان المبجلان نب رع وسيبي وخادمكم المطيع يا مولاتى قائد الجيوش اوناس.

ابتسمت تيا فى زهو:

- فليباركم آمون المعظم، وأُعلمكم أنه قد انضم إلينا عشرة من موظفي الحريم، منهم أربعة سقاة ملكيين وست من زوجات ضباط حرس باب الحريم في القصر، وهذا سهّل لنا كثيراً مبادلة المراسلات بين الحريم وبقية

أعواننا داخل القصر وخارجه، فلا أريد أى قلق أو توتر، إن البلاط الملكى وكبار رجاله وكبار رجال الملك وكبار رجال طيبة فى أيدينا كما ترون، وإن كان لدى أى أحداً منكم إعتراض على أى شئ.. فليتحدث.

صمت الجميع ولم يتكلم أحد إلا الوزير الأول الذى استكمل :

- تفضلى يا مولاتى كلنا معكِ، ولا أرى أى مجال للإعتراض، فكلنا نعمل لصالح طيبة.

استكملت تيا وعلى وجهها الذى بدت على ملامحه لذة الإنتقام وشهوة النصر القريب قائلة بصوت أقرب إلى الفحيح:

- لقد استطلعنا رأي الإله والكهنة وشاورنا فى الأمر كبار القوم، ولابد من قتل الملك.. وأنتم تعرفون كل تفاصيل العملية كلها.. المهم أن يقوم كل واحد بدوره.. وألا يُفشي أحد سر هذا اللقاء لأي مخلوق.. حتي للإله آمون نفسه.. لأنه يبارك ما نفعل.

ردد بنموسي مزهواً وكأنه فى ساحة قتال..

- بالطبع يا مولاتى إننا على إستعداد للفداء فى أى وقت، فنحن ننتظر فقط إشارة جلالتك ومولانا بنتائور.

أشارت الملكة إلى كبير الكهنة متسائلة:

- إن الأمر كله الآن في يد المبجل حتب.

أومأ كبير الكهنة برأسه قائلاً:

- سأخبركم عن ميعاد التنفيذ فى القريب العاجل، ولكني أنتظر فقط إشارة غليان الشعب فى معبد الرامسيوم، وسوف تكون هى تلك الإشارة التى سأعول عليها فى تنفيذ خطة التخلص من الملك والأعوان الخونة وكذلك هؤلاء المبعوثين أثناء توديعهم للملك فى رحلتهم.

أجابه حور الوزير الأول:

- إنهم على استعداد للرحيل خلال أيام يا سيد حتب، وسوف أخبرك بمجرد إعلامى من البلاط الملكى لتوديعهم.

استكمل حتب:

- كل الأمور ستتم فى نفس الوقت، مجموعة من أقوي المخلصين بقيادة اوناس ومعه الحراس للتخلص من ولى العهد والمبعوثين، بينما سيقسم الباقي بين الأمير وساقى الملك وكل ذلك فى نفس الساعة .. هل كل منكم يعلم دوره يا أبنائي..؟

أجابه الجمع في نفس واحد تقريباً:

- نعم .
- حسناً انتظروا منى جميعاً إشارة البدء.

استكملت الملكة فى هدوء مصطنع وعلى وجهها إبتسامة صفراء:

- سوف أُكافئكم جميعكم.. وسوف يُنعم عليكم ابني بالمال والضياع والقصور.. وبالحياه المرفهة لكم ولجميع أفراد عائلاتكم الذين سوف يتقلدون أعلي المناصب فى البلاد وسيعفى جميعكم من أية ضرائب إلى الأبد، وهذا فقط قطرة من يم كرم ابنى الملك بنتائور المعظم، أليس كذلك يابني..؟

تكلم الوريث وهو ينظر إلى ما لا نهاية وعلى وجهه إبتسامة الظفر:

- نعم يا مولاتى الملكة، فقط أجلس علي العرش وسأفعل كل ماتريدين.

تهلل الجميع فرحاً مباركين الوضع وداعيين امون بإستكمال الخطة ونجاحها بينما نهرتهم الملكة قائلة:

- كفي.. كفي، ألا تعرفون أن للجدران آذاناً وعيوناً.. هيا انصرفوا حتي تحين الساعة.

وبدأ الجميع فى الإنصراف إلا حتب وحور والملكة وبنتائور وهم يراجعون الخطوط العريضة لتلك الخطة الشيطانية ..

خطة إغتيال الملك...

****

وبعد يومين كان الأمير يتنزه فى حديقة قصر الملكة تيا ، وهو يُمنى نفسه أن الأمر صار قريباً وما عليه إلا الإنتظار وشجاعة الإقدام فقط، وما هى إلا لحظات حتى سمع صوت ناعم يهمس بإسمه فالتفت ناحيته، فإذا هى الوصيفة تويا.

- أين أنت يا مليكى لقد افتقدتك طوال هذه الايام.

إقترب منها وهو يمسك بيدها ليجذبها ويجلسا على أحد المقاعد الموجودة فى حديقة القصر البعيدة عن الأنظار ليهمس لها:

- تويا حبيبتى أنتِ تعملين أننا بصدد تغيير التاريخ.. لم يبق سوى وقت قليل لأجلس على عرش البلاد وأصبح رمسيس الرابع رسمياً، ووقتها ستكونين أنتِ مليكتى وملكة طيبة بأثرها.. الملكة المعظمة تويا.
- كم أود أن أكون بجوارك إلى الأبد يا مولاى الأمير وليكن ما يكون، إنى أعشقك فى كل حالاتك، لا يهمنى إن كنت أميراً أو ولياً للعهد أو حتى ملك مصر.. أنا أريدك أنت فقط.
- أعلم ذلك يا حبيبتى، ولولاك لما كنت تحملت طوال هذه الفترة الماضية، فلتدعِ آمون أن تمر تلك الفترة القادمة بسلام .. إنى مشتت تماماً ولذلك لم أقابلك منذ فترة.
- كن على ثقة إنى وأخى بنموسي على أتم الإستعداد للتضحية فداك يا مولاى.

وأخذت يده لتحضتنها وهى تبتسم، لكن فجأة إقتحمت خصوصياتهم الوصيفة نسجيتا وهى تقف هازئة :

- ياله من مشهد شاعرى يا مولاى الأمير، وأنتِ أيتها الوصيفة ألا تخجلين من تبادلك الهيام فى حديقة القصر.

فزع الإثنان من قدوم نسجيتا الوصيفة الأولى للملكة تيا ولكن تويا بادرتها:

- نسجيتا أنتِ لا تعلمين، أنا ومولاى الأمير نعشق بعضنا البعض منذ فترة بعيدة.

ذهلت نسجيتا مما قالته تويا وهى تكاد تجن من الغيظ، فبادرتها قائلة:

- ماذا تقولين ..؟!!، وأنت أيها الأمير هل تدور توزع مشاعرك على وصيفات القصر.. ألا تخجل..؟!!، أنسيت ما فعلته بالوصيفة نوت جمت فى الصيف قبل الماضي.. ألن تكبر أبداً..؟!!

نظرت تويا بغيظ إلى نسجيتا وهى تصرخ بها غاضبة:

- كيف لكِ أيتها الحمقاء مخاطبة مولاى الأمير هكذا..؟، أنسيتِ أنكِ مجرد وصيفة وهو مولاى ابن رمسيس وحفيد الآلهة و........

قاطعتها نسجيتا وهى تشير إليه :

- فلتسألى الأمير على غرامياته المستديمة فى حديقة القصر وفى غرفته ليلاً.. اسأليه عن تلك الوصيفة المسكينة التى قتلها بيديه فى الشتاء الماضي بعد أن هددته.. ها هو أمامك فلتحدثيه عن محظياته و.....

إبتسم الأمير بسخرية وهو يتكلم بهدوء وينظر إليها هازئاً:

- لم تشكو أحد من الوصيفات من دخولهن مخدعى ليلاً لأنهن يتفاخرن بذلك، وأعتقد أننى يا نسجيتا قد أعطيتك أموالاً كافية من أجل تلك الأوقات التى قضيناها سوياً فى مخدعى، ولكنها للأسف لم تسعدنى، لمشاركتى الفراش مع إمرأة باردة مثلك.. لذلك إخفضي صوتك وعليك بالتأدب عندما تتحدثين معى ومع مولاتك ملكة البلاد القادمة، وإلا فإنتِ تعلمين مصير من يتجرأ فقط ويقف أمامى هكذا.

فتحت نسجيتا عينيها على إتساعهما من الإهانه التى وجهها إليها الأمير، وقد تحجرت الدموع بداخلها وهى تنظر إليه تارة وإلى تويا التى نظرت إليها فى تشفٍ واضح تارة أخرى، ثم هرعت باكية إلى الداخل.. فأردف بنتائور مضيفاً لتويا:

- حاذرى من تلك المجنونة يا تويا، إنها تغار من نفسها، فإن شعرتى بأى تغير فى حالتها أخبرينى فوراً فتلك المختلة تعرف أكثر مما ينبغى.

ثم سكت هنيهة ليردف..

- لولا فقط أنها المفضلة لدى جلالة الملكة الأم لكان يجب أن نتخلص منها على الفور، فنحن لا نضمن صمتها.
- لا أستطيع التعقيب يا مولاى.. أنت إلهى وعشقي ولو طلبت رأسها لأتيتك به فى الحال.
- لا.. لا.. سأتصرف أنا لا تشغلى بالك أنتِ.. فلدى عيون في كل مكان، لكن عليكِ فقط بمراقبتها جيداً .... يا مولاتى الملكة المستقبلية.

قالها وضحك الاثنين فى جذل وهما ينظران إلى المستقبل الذي إستمرا فى الحديث عنه..

****

- ثلاث سنوات.. ثلاث سنوات كاملة قضيتها مع ذلك الغبي وظننت أنه سيكافئنى فى نهاية الأمر وأجلس بجواره على عرش مصر، مخالفة بذلك تعاليم دينى وقسمي الذى أقسمته فى حريم مولاى الملك ألا أخونه أبداً.. لكن كل ذلك بسبب ذلك الملعون المسمي الحب.. ثلاث سنوات يأمرنى وأنا أطيعه فى كل الأمر.. وبعد أن أخذنى من والده ليضعنى وسط وصيفات الملكة تيا ويجعلنى أتجسس عليها هى الأخرى لأنقل أخبارها يومياً له، ومن قبل ذلك... حيث كنت فى جناح مولاي الملك لأنقل له حرفياً ما يدور بداخل غرفهم المغلقة.. بل أنا من أخبرته بمكان ذلك السرداب السري المؤدى إلى غرفة جلالته، والذى كان من المستحيل على ذلك الغبى أن يعرفه أو يصل إليه ولو ظل ألف عام .. ثلاث سنوات وأنا محظيته وعشيقته مقابل وعده بالزواج منى بمجرد أن تستتب الأمور له، وهذا ما جعلنى أساعده بكل جوارحى، ليلقي بى الآن وكأننى نكرة بمجرد ظهور تلك الملعونة القصيرة تويا.. أيبيعنى أنا من أجل تلك الحمقاء..؟، لماذا..؟

يا إلهى فأنا أكاد أُجن مما فعله بي، والآن ماذا أفعل..؟، هل أشكوه للملكة تيا..؟، بالطبع لن يجدى ذلك نفعاً فالجميع الآن فى إنتظار حلمهم المنشود..

لا أعلم مصيري الآن.. فأنا فى إنتظار القتل فى أية لحظة.. لعنة الرب على غبائي الذى صور لى يوماً ما أنى سأجلس على عرش مصر..كيف لى التصرف الآن..؟، كيف أخرج من تلك الورطة بأقل الخسائر..؟

إلهى كن معى وإن كنت لا أستحق فأعذرنى على خطيئتى وإلهمنى الصواب فيما أفعله..

هذا ما ظلت نسجيتا تحدث به نفسها وهى تبكى فى مخدعها طوال ليلتها التى بدا لها أنها لن تنتهى...

****

فى صباح اليوم التالى كانت الملكة تيا تجلس بجوار بنتائور وهما يتهامسان فى أحدث الأمور والمستجدات، حيث علموا أن كبير الكهنة قد بدأ فى إعداد الإضطرابات فى معبدي الرامسيوم ورمسيس الثانى مرة ثالثة خلال مده قصيرة..

- لقد علمت أن الأمر سيتم فى مساء أحد الأيام القادمة يا مولاتى الملكة.
- وهل حصّن كبير الكهنة الأمور بداخل المعبدين ...؟
- بالتأكيد.. وتم نقل الذهب منذ فترة إلى معبد آمون المقدس وإلا لم يكن ليسمح بإشعال شرارة الثورة فى المنطقتين يا مولاتى.. فقد أخبرنى بنفسه أن الأمر لن يتطلب أكثر من عدة أيام لتنفجر البلاد ضد وزير المعبد، وبالتالى على الملك وولى عهده المزعوم.
- إن هذا الرجل حتب كبير الكهنة داهية، فقد أشعل فى نفوس الكثيرين الأمر ضد رمسيس وضد المبعوثين وسوف يوعز كهنة المعبد للعامة أن ما حدث سيكون مدبراً من المبعوثين لسبب ما لا نعلمه فقاموا بقتل الملك وولى عهده.. لقد سلمنا أمرنا إلى كبير الكهنة وسنري ما ستؤول إليه الأمور.
- وبالطبع سوف يقوم بدفع أجور العمال المتأخرة من المعبد، وسيخبرهم أنه من مالنا الخاص يا مولاتى، وبالتالى سيقف الشعب معنا منذ اليوم الأول.. إن هذا الرجل من أشد المخلصين لنا وسوف أكافئه هو وكل ما شارك معنا يا مولاتى.

فى هذه الأثناء دخلت نسجيتا وهى تحمل إلى الملكة بعض أكواب الشراب، والتى نظرت مندهشة إلى وجه وصيفتها قائلة:

- ما بكِ يا نسجيتا..؟، أرى عينيك حمراواتان، أكنتِ تبكين..؟

هزت نسجيتا رأسها نافية وهى تنظر بحزن إلى بنتائور:

- لا يا مولاتى.. إننى فقط متعبة ولم أنم جيداً بالأمس.

ضحك بنتائور فى سخرية قائلاً:

- ألا زلتِ واقعة فى الحب يا نسجيتا.. ؟، فلا يسهر إلا من يقع فى براثنه يا صغيرتى.

خفضت الوصيفة رأسها أرضاً وهى تتمتم:

- حتى ولو وقعت فى الحب يا مولاى أمير البلاد، أين أنا وأين هو..؟، فأنا مجرد وصيفة فى بلاط الملكة .

قهقه بنتائور وهو يهتف بسخرية:

- إذن لا ترفعى رأسك يا صغيرتى إلى السماء كيلا تقع وأنتِ تسيري.
- حسناً يا مولاى.. فلديك كل الحق وأنا أسفة لما بدر منى.
- هل ستعودين مرة أخرى إلى تلك الخزعبلات..؟
- لا يا سيدى لقد تعلمت الدرس جيداً.

تطلعت الملكة باندهاش إلى الإثنين قائلة:

- ما بكما..؟، أهناك من الأمر ما لا أعلمه..؟، ما الأمر يا نسجيتا..؟

انبري الأمير قائلاً:

- أبداً يا مولاتى الملكة، إن هناك من الضباط مَن وقعت الوصيفة فى حبه، ولكونه غير عابئ بحبها فأخبرتنى وطلبت منى التدخل ومحاولة التأثير عليه، لكنه رفض وأخبرها أنه لا يشعر تجاهها بأى ذرة من الحب، وخاصة وأنه على وشك الزواج من فتاة أخرى أفضل منها.

نظرت الملكة تيا بغضب إليهما ناهرة إياهم:

- والآن هل نترك أمور البلاد لنقع فى الحب، أنتِ تحبين و نحن فى أشد حالات التركيز، وأنت أيها الأمير تترك أمور الحكم من أجل محادثة أحد ضباطك فى أمور الحب.. قليل من العقل يرحمكم الرب.!!!
- عذراً يا مولاتى الملكة.

هذا ما نطقت به نسجيتا وهى تبتعد منسحبة وقد أقسمت على تنفيذ ما خططت له ليلاً... وليكن ما يكون....

****

الفصل الثالث

****

المؤامرة

******

إلهي ..

أنت رب السماء .. كما أنت رب الأرض ..

أنت يا من جعلت مصر عطيتك لأهل الأرض

وحفظت أهلها من كل شر

ها هو الشر قد بات ينتشر في أرضي ويمزق شعبي

إلهي العظيم ..

يامن جعلت مصر شعاع النور للعالم..

ها هو الظلام بات يحجبها عن كل العالم

إلهي .. لا تترك شعبي .. وأرضي ..

وعطيتك تضيع مع خفافيش الظلام ، ووحوش البراري

إنقذها إلهي .. إحميها يا سيد الوجود ..

لتبقي دائماً مصر أرض الحضارة والنور.

من وصايا ملك مصر العظيم رمسيس الثاني في وصيته لابنه مرنبتاح ملك مصر

بعد يومين كان كبير الكهنة جالساً فى خلوته الصباحية عندما دخل عليه الكاهن تتى مكفهر الوجه وهو يصرخ قائلاً:

- مولاى المعظم، لقد حدثت....

جفل حتب وكاد أن يُغشي عليه من هول المفاجأة قائلاً وهو يمسك قلبه :

- تكلم يا تتى.. ما هى تلك التى حدثت ..؟، إن سنى لم يعد يسمح بتلقي المفاجآت، اللعنة.. لقد كدت أن تصرعنى.
- الثورة يا سيدى .. إن صباح اليوم كان مليئاً بالأحداث، وقد استقبلت رسولين من معبد الرامسيوم ومعبد رمسيس الثانى، فقد دخل العامة فى كل مكان ونهبوا وسرقوا كل ما طالته أيديهم فى المعابد، ولولا أنه تم نقل الذهب منذ عدة أيام كما أمرتنا لكان كل المخزون قد تمت سرقته الآن.. وهم الآن فى طريقهم إلى هنا.

ابتسم حتب فى قرارة نفسه لأن المخطط الذى قام بتنفيذه يسير وفقاً لما رسمه تماماً، فلقد عمل جاهداً طيلة الفترة الماضية على إختلاق الأزمات والعبث بمقدرات طبقة العمال حتى يطفح بهم الكيل وتسقط فى أعينهم هيبة ومكانة الملك وولى عهده، كان بحنكته يعلم أن الرعية لا يحركها شئ أكثر ولا أسرع من المساس بأرزاقها وقوتها، كان يخطط لدفع الشعب للفوضى، تلك الفوضى التى كان يعلم جيداً أنها وقود الإنفجار الذى سيطيح حتماً بالملك دون جهد أو عناء منه، وحينما يحدث ذلك سيظهر هو وأعوانه الذين شاركوه فى الإطاحة بالملك على أنهم المخلّصون للرعية من ظلم الملك، والذين سينقذون البلاد من الوضع المتردى الذى وصلت له بسبب إقحامها فى حروب متتالية..

حينها سيتولى الأمير الغبى المغرور بنتائور ومن ورائه أمه، تلك المرأة التى تتحكم فيها غيرتها العمياء لتدفع بها إلى قتل زوجها ووالد إبنها وولى نعمتها من أجل المناصب والألقاب ، ووقتها سيتحكم هو فى أمور البلاد ومقاليد الحكم ، وستكون لكهنة آمون الكلمة العليا فى البلاد، وستبقى العلوم والأسرار حكراً خالصاً عليهم لا يشاركهم فيها أحد، وسيلجأ إليهم الأمير فى كل الأمور، وستمتلئ خزائن المعابد وتتضاعف مخصصاتها، كل ذلك بفضل الرعية الهمج والغوغاء الذين تقودهم مصالحهم الشخصية...

كان يدرك جيداً أن مفتاح السر للسيطرة على أية مملكة هو الدين والمال ، فالدين تخاطب به العامة والبسطاء فتسيطر به على عقولهم لتجعلهم تابعين ينفذون كل ما تطلبه دون تفكير، ويجعل منهم وقود رخيص لأطماع الملوك وأصحاب

السلطة والنفوذ،أما المال فهو الأداة التى تسيطر بها على أصحاب المصالح والنفوذ وتستعبدهم به ليكونوا عبيداً مخلصين لسيد لا يعرف للقيم أو الأخلاق سبيلاً، فيطيعون من يملك المال والنفوذ حتى لو إقتضى الأمر أن يبيعوا أنفسهم للشيطان نفسه.

كان حتب شارداً وهو يرى حلمه يخطو أولى خطواته فى طريقه ليتجسد ويصبح حقيقة أمام عينيه، مما جعل تتى يربت على كتفه فى قلق قائلاً:

- سيدى الكاهن الأعظم ، ما بك..؟، هل هناك خطب ما..؟

إنتفض حتب ليفيق من أفكاره، وقد أدرك أن الساعة الحاسمة قد حانت والأمر يتطلب التحرك بسرعة قبل أن يعطى فرصة للملك أو لولى عهده بإستيعاب الأمر والتحرك لإفساد ما خطط له، مما جعله يهتف فى الكاهن تتى :

- أسرع فوراً إلى هابو وأخبره القيام بما طلبته منه، وأنت إذهب معه إلى معبدى الرامسيوم ورمسيس الثانى وحاولوا تهدئة الأمر، وأخرجوا لهم كل ما يطلبونه من أجور متأخرة ولا تنسوا أن تخبروهم أن ذلك من مخصصات المعابد فقط، وأن مولاهم رمسيس الثالث مشغول فى إنشاءاته ومعابده وتمكين هؤلاء المبعوثين من التوغل فى البلاد..
- حسناً يا سيدى .
- وأرسل لى اوناس على وجه السرعة لمقابلتى ولكن قبل ذلك أخبره أن يُرسل حامية من أخلص رجاله لحماية البر الغربي من بعض العمال إن حاولوا المجئ إلى معبد آمون.
- حسناً يا سيدى، سأفعل ما أمرت به فى الحال.

وخرج تتى مسرعاً لتنفيذ أوامر الكاهن الأكبر الذى بدا متوتراً، فقد كان ذلك يعنى أن تنفيذ الخطة الكبري سيكون خلال يومين على الأكثر، فالأمور تتطور بسرعة.. والكل جاهز وفى انتظار إشارته فقط، حتى الملكة الأم وابنها المنتظر..

كان عليه أن يتوجه إلى صدر المعبد لطلب المشورة من آمون ، فخر ساجداً وهو يتضرع لآمون أن يكون إلى جانبه فيما يفعله ثم رفع رأسه قائلاً:

- أيها الواحد الأحد لئن تساقطت الشهب في ليلة صيف فإن قوانينك الراسخة مازالت تقود الكواكب السيارة..

استعلن فيا ك (نور) وأنا أفكر...

استعلن فيا ك (رحمة) وأنا أعمل..

استعلن فيا ك (حق) وأنا أتكلم...

بل ك(حق) دائماً ...آمين.

أيا آمون العظيم أنت تعلم أننى لم أبتغِ فى ذلك سوى مصلحة طيبة وإعلاءً لعبادتك ولمكانة أبناءك من الكهنة، فالملك قد إعتمد عليهم وعلى علومهم المبتدعة، فأهمل الكهنة وضعفت مكانتهم ولم يعد لهم تلك الكلمة المسموعة فى البلاط، ورويداً رويداً سيضعف إيمان الناس بك وسيؤمنون بهؤلاء الغرباء ومعتقداتهم وقدراتهم، ستنفد معابدك من الذهب والخيرات وسيذهب عنك الناس وستنزوى شمسك ويبهت مجدك ، لذلك كان علىّ أن أتصدى لهم وأذود عن مكانتك ومكانة أبناءك من الكهنة ..

أعلم يا إلهى أننى قد قمت بإستغلال غيرة الملكة تيا وطمع إبنها بنتائور ذلك الأمير التافه للقيام بما خططت له، أعلم أننى قد إستغليت طمع البعض وحقد البعض الآخر وسذاجة الأخرين ، ولكنهم جميعاً لم يكونوا سوى مجرد وسيلة يا إلهى آمون المعظم من أجل تحقيق الغاية الكبرى .

إلهى .. إن إبنك المخلص حتب لن يدع أحداً يتجرأ ليقلل من مكانتك ومكانة أبناءك من الكهنة، سأحارب وجود هؤلاء الأغراب بكل قوتى ما حييت، لن تغرب شمسك ما دام هناك نفس يتردد فى صدرى، لن يتفوق هؤلاء الأغراب علينا فى بلادنا ، لن أسمح لأحد أن يفعل ذلك فى قلب طيبة ، طيبة التى عشت عمرى أرسخ فيها تعاليمك المقدسة، وأضاعف من ثروات معابدها ومخصصاتها من الذهب والأراضى وغيرها .

إلهى المعظم آمون .. لم يتبق سوى القليل حتى نتخلص من هؤلاء المارقين الذين سمحوا بذلك، ليتولى عرش طيبة من يرفع من شأن أبناءك الكهنة ويُعظم عبادتك ويرسخ مكانتك وهيبتك فى قلوب الرعية، لتعود معابد آمون لتمتلئ بالذهب والخيرات، وتكون أسرار العلوم فى أيدى أبناءك وخاصتك من الكهنة المخلصين لك فقط .

ساعدنى يا آمون العظيم .. من أجلك ومن أجل طيبة ومن أجل أبناءك ورعيتك..

بعد برهة من الوقت تناهى إلي سمعه صوت اوناس في الخارج وما هى إلا لحظات حتى كان إلى جواره معتذراً:

- استميحك عذراً يا سيدى، ولكن هناك أمراً آخر غير الثورة قد نما إلى علمى.

إعتدل الكاهن الأكبر وهو يتطلع إلى أوناس بإهتمام قائلاً:

- فلتخبرنى يا أوناس .. هل إستجد فى الأمور شئ لم نخطط له.؟

أومأ أوناس برأسه ، وهو يهتف فى توتر:

- الوزير حور أرسل إلىّ أحد الحراس ليخبرنى أن المبعوثين فى طريقهم للمغادرة فجراً.. فلقد وصلت مركبتهم وهى الآن تطفو على مياه النيل بالقرب من الميناء ولم تدخل إلى الآن، وسيكون على رأس مودعيهم ولى العهد فقط.

قفز حتب بشكل لا يتناسب مع سنه أبداً، وظل يدور حول نفسه فى الغرفة وهو يفكر، ثم نطق أخيراً وقد خطرت له فكرة شيطانية ، فهتف فى اوناس:

- إفهمنى جيداً يا اوناس.. فمصير طيبة سيتحدد غداً، وأنت أكثر من أعول عليه فى نجاح تلك العملية .
- لن أُخيب ظنك أبداً يا سيدى.
- إذن إنصت إلىّ جيداً.. فى الغد ستكون على رأس المودعين أنت وولى العهد الذى سيكون فى المقدمة معهم بالطبع أنت وبنموسي وجميع ضباط الحراسة الذى أخبرنى أنه قد إختارهم بعناية، عليكم إنهاء الأمر خلال ثوانى وإحضار جثة ولى العهد ..

بدت الحيرة على وجه أوناس الذى تطلع إلى حتب فى تساؤل قائلاً:

- لماذا يا سيدى..؟، كنت أظن أننى سأتركه هناك..

أمسك حتب بكتفى أوناس وهو يتطلع إليه مباشرة قائلاً:

- لا يا اوناس.. بالعكس، فأنا أريد إظهار الأمر على أن المبعوثين هم من حاولوا إغتيال الملك وولى العهد، ونجحوا فى ذلك ثم حاولوا الهرب من حيث أتوا، ولكنكم لحقتم بهم ودارت بينكم معركة ثم قمتم بقتلهم.
- وما الفائدة من ذلك...؟

تراجع حتب وهو يتمتم فى دهاء :

- لإظهار الأمر للشعب كله وما تبقي من رجال البلاط أن الموالين لرمسيس وحلفائه أن الأغراب هم من قاموا بقتله بدلاً من شعورهم بالحقد على بنتائور وخوفاً على حياته هو الآخر.
- تفكير سديد يا سيدى.
- فلتحرص على تنفيذ الأمر بنفسك يا اوناس، وكن على علم أن ولى العهد لا يُشق له غبار فى الكر والفر فإحذر منه ألف مرة.
- لا تخش شيئاً يا سيدى، فجميع ضباط الحراسة المرافقين للوفد من المخلصين لى، وأظن أن رجال الحراسة أشداء بقيادة بنموسي أمام أربعة فقط سيجعل الأمر هيناً.. وسأقود الجمع بنفسي.

إستدار أوناس ليغادر ولكن حتب أوقفه بإشارة من يده قائلاً:

- فلتحضر لى كل متاعهم فى الغد، وكذلك الهدايا الملكية، وصناديقهم الغريبة يا اوناس، لا تنس ذلك.
- حسناً حسناً سنتقابل فى مساء الغد، وإذا حدث أى تغيير سوف أوافيك به فوراً.

وغادر أوناس بعد أن تلقى تعليمات كبير الكهنة ، وليستعد لأهم وأخطر مهمة سيقوم بها فى حياته العسكرية بأكملها..

مهمة الخيانة...

****

أسرع كبير الكهنة إلى قصر الملكة تيا ليجتمع بها وبإبنها لإخبارهم بما حدث، والإتفاق على تنفيذ الجزء الخاص بهم من الخطة ، فالأمير بنتائور يقع عليه تنفيذ الجزء الأخطر فى تلك الخطة، ألا وهو إغتيال الملك، وبعد إجتماعهم أكد عليهم بضرورة تنفيذ الأمر فجراً ..

كان الإعياء بادياً على وجه حتب وهو يشرح للمرة الثانية للملكة وابنها تفاصيل الخطة :

- هذا ما أخبرنى به اوناس وبنموسي وتيي وهابو .. الشعب يغلى من تصرفات الملك وخاصة بعد ما تم من منع الأجور ثم صرفها فى الغد، كما أن المبعوثين سيرحلون فجر الغد، وسيكون اوناس وبنموسى فى توديعهم، بينما سيتولى بنجو رئيس الحاشية وساقي الملك مراقبة البلاط الملكي، أما رئيس القصر الملكى والوزير الأول والقضاة فسيعلنوا وفاة الملك وولى العهد فى الغد كنتيجة لمؤامرة من جانب الغرباء و تولية بنتائور المُلك.. تذكر جيداً يا مولاى الأمير.. عليك إنهاء الأمر مع أول خيوط الشمس.. أتمنى أن ينفذ الجميع الأوامر كما تم التخطيط لها بدقة.

أجابه بنتائور فى نشوة غريبة :

- فى الغد ستتحقق الأحلام يا سيد حتب .

و بصوتها الذى يشبه الأفعى همست تيا:

- بساعدك أنت يا بنتائور.. بيدك تلك عليك قتل الملك بضربة يد واحدة لتسقطه صريعاً.. عليك أن تُسكت ذلك العجوز الخَرِف إلى الأبد، بعد أن يتخلص اوناس ومن معه من ابن (أست) تلك الحقيرة المُعتدة بنفسها.. لتكون أنت الملك الأوحد لتلك البلاد دون منازع ، وأصبح أنا الملكة الأم لملك مصر ، وأُذيق تلك المغرورة أست الذل والمهانة بعد أن تفقد ولدها العزيز وزوجها الخَرِف.
- هذا بالفعل ما سأقوم به يا مليكتى، فلن يهدأ لى بال حتى أرى جثتيهما أمام عينى لأشفى غيظ قلبي منهما بعد كل ما فعلاه معنا ، سيدفع الملك ثمن تجاهله وإحتقاره لى دائماً ، سيدفع ثمن تفضيله لذلك المتغطرس علىّ دائماً وإختياره ولياً للعهد ، لم يكفيه ما فعله معى ليأتى الآن ويجعل من ولده ملكاً من بعده وأبقى أنا فى الظل دائماً، لا أحد يشعر بوجودى وليس لى مكانة ولا ذكر بين العامة.

قالها وهو يُخرج من بين طيات ملابسه خنجراً حاداً ويشير به فى ضوء القمر:

- يومياً.. وعلى مدار ستة أشهر أقوم بسن هذا الخنجر تمهيداً لغرزه فى رقبة العجوز الخَرِف وذبحه.. يومياً أدخل فى ذلك السرداب السري الذى لا يعلم طريقه سواي لأقترب من مخدعه وأسمع غطيطه المزعج وأتمنى أن أدخل

لأخمد أنفاسه للأبد.. كل يوم أُمنى نفسي وأقول فى الغد سوف أقوم بالتنفيذ.. وها هى الأيام تمر حتى أصبح الحلم حقيقة أمام عيناى، وفى الغد سينتهى الأمر.

تململ حتب وهو يستمع للملكة وإبنها وحديثهم الذى يفيض كراهية وحقد، ولكن ما سمعه كان يُشعره أكثر بالإرتياح، فقد كان يعنى أنهم مصممين على إنجاح الخطة وربما أكثر منه شخصياً، فأومأ برأسه فى هدوء وهو يقوم من مجلسه:

- سأكون فى المعبد من بعد غروب الشمس، و قبل التنفيذ يا مولاى الأمير عليك بالحضور هناك وطلب المعونة من آمون، وسيكون التنفيذ مع أول خيوط النهار.

أجابته تيا بإبتسامة مصطنعة جعلتها أشبه الأفعى :

- بالطبع يا سيدى الكاهن الأعظم، سوف نحضر فى موكبنا الملكى مساء اليوم لطلب الدعم من آمون المعظم .

أحنى حتب رأسه وهو يقول مودعاً إياهم:

- سأكون فى انتظاركم يا مولاتى الملكة فى البهو الجنائزي للصلاة.

إنصرف حتب والملكة وإبنها يشيعونه بأنظارهم ثم إلتفتت الملكة تيا لولدها محذرة إياه :

- فلتكن على حذر دائم من حتب هذا يا ولدى ، فهو داهية كبير، يستطيع أن يقلب الأمور من حولك فى لحظات، والناس تسمع له وتطيعه طاعة عمياء، لا تأمن له أبداً.
- لا تقلقى يا مليكتى فهو مخلص لنا ، ومصلحته معنا دائماً، لذلك لن يجرؤ يوماً على عصياننا أو الخروج علينا، كما أننا نستطيع دوماً تسخير دهاؤه هذا فى مصلحتنا.
- الذى يخون مرة يستطيع الخيانة مرات يا ولدى، والذى خان مليكه وولى نعمته لن يعظم عليه خيانة ولده أيضاً، إن حتب عبد لمصالحه وطموحاته ، ومن أجلهم هو مستعد للتضحية حتى بأبيه.

- لا تقلقى يا مليكتى، سيكون دائماً تحت ناظرى، ولو فكر لحظة بخيانتى فسأمزقه إرباً لأعلقه على أبواب معبد آمون ليكون عبرة لمن يفكر بالعبث مع الملك بنتائور عظيم مصر..

أومأت الملكة برأسها ثم قامت لتنصرف هى وولدها لتستعد للساعات القادمة التى ستغير حياتهما للأبد، ولكن أياً منهما لم يلحظ تلك الوصيفة نسجيتا التى كانت تنتظر تلك المقابلة على أحر من الجمر وهى تجلس بوضع القرفصاء خلف أحد الحوائط الخشبية التى تطل على البهو الملكى لتسمع كل ما همس به حلفاء الشيطان وهم يضعون اللمسات الأخيرة .

فى تلك الخطة الشيطانية .

****

في مساء ذلك اليوم كان الوفد الملكى لحاشية الملكه تيا والأمير بنتائور في طريقه إلى المعبد الكبير للإله آمون لبدء الصلوات الإلهية.. بينما كانت نسجيتا تنظر شذراً إلي تويا التى توارت خجلاً خلف أحد الحراس في طريقهم للقاعة الكبري، وبمجرد دخول الملكة وابنها ركع الجميع، بينما أخذت هى مكانها للإقتراب من كبير الكهنة الذى كان يتلو صلواته..

إن قلبى يتوق ويصبو إلى النظر إليك وتأملك..

أيا رب شجرة البرسيا...

عندما تنفث من صدرك بنسيم الشمال..

إنك تشبع الجائع بدون أى غذاء...

وأنت تعم بالنشوى دون حاجة إلى شراب ...

إن قلبى يهفو ويرغب فى رؤيتك ...

أيا آمون راعى البؤساء الفقراء ...

أنت أب لليتيم، وزوج للأرملة.........

كانت نسجيتا على علم أن تلك الصلاة ستستمر حتى سطوع الشمس، وسوف يقطعها الكاهن الأكبر لفترة من الوقت للراحة وتناول الطعام والشراب ثم معاودة الصلاة مرة أخري حتى ذلك الموعد، وقتها بالطبع سيهرب الأمير للقضاء على والده، وقائد الجيوش سيتجه لقتل ولي العهد والمبعوثين، كان عليها الهرب فى وقت محدد لتحاول أن تنقذ ما يمكن إنقاذه قبل فوات الآوان، لكن كيف وهى تشعر أن من ورائها تلك الغبية تويا التى تلهب سياط ظهرها بنظراتها النارية.. وكذلك الحراس الذين بالطبع لديهم أوامر صارمة بقتلها إذا غابت عن نظرهم ولو دقيقة، وحتى الأمير الذى كان فقط فى إنتظار ولو نظرة منها لا تروقه ليهدر دمها فى الحال.. لكن كيف ستنسحب إلى خارج المعبد..؟

لكن فجأة حانت لها تلك الفرصة الذهبية وكأنها هبطت عليها من السماء، حين فوجئت بيد تلكزها من خلفها بصوت مألوف:

- نسجيتا شقيقتى.. يالها من مفاجأة سارة لقد كنت أنتظرك.
- نوتجمت.. يا إلهى .. ما هذه المفاجأة..؟!!، أين كنتِ وكيف علمتى بتواجدى هنا..؟

أجابتها شقيقتها مازحة:

- علمت أن موكب الملكة فى الطريق، وكنت أود مقابلتك لإقتراض بعض النقود ..

إسترقت نسجيتا النظر إلى تويا التى لم تغب عنها نظراتها وهى تراقبها من بعيد،فلمعت في ذهنها فكرة ما.. فقفزت من كرسيها فى هلع وهى تمسك بيد أختها نوتجمت هاتفة فى قلق مصطنع:

- ماذا تقولين ..؟، وكيف لم تخبرينى أيتها الحمقاء أن والدى مريض وعلى مشارف الموت منذ يومين.. تباً لكِ من غبية.

ذهلت نوتجمت من رد فعل شقيقتها التى لفتت انتباه كل من كان بجوراها لدرجة توقف كبير الكهنة عن الصلاة مشيراً إلى مساعديه لإسكات تلك المجنونة التى صرخت فى منتصف الصلاة.. فهرع إليها كاهنان، ولكنها قامت مسرعة فى طريقها إلى الملكة تيا وهى تهتف باكية:

- مولاتى الملكة المعظمة، إن والدى على مشارف الموت، بحق آمون المعظم دعينى اذهب مع طبيبك الملكى لزيارته، فشقيقتى عندما علمت بتواجدى هنا جاءت مسرعة لتخبرنى لأراه قبل أن......

لم تكمل نسجيتا التى إنهارت باكية والملكة تنظر إليها بإزدراء ثم تردف قائلة:

- هل من أجل ذلك تقف صلواتنا المقدسة.. عليكِ اللعنة يا نسجيتا..من أخبرك بذلك.؟
- شقيقتى تلك التى ترتدى الخمار المقدس والتى تقف بين الصفوف وتشير إلىّ ..

نظرت الملكة إلى نوتجمت والتى كانت تشير فى بله وأردفت :

- إذهبي إلى (خن دو) فسوف تجديه فى آخر الصفوف بالطبع، وسيكون مرافقاً لكِ وإنهى الأمر سريعاً، أريد أن أراكِ فى الفترة الثانية.
- شكراً لكِ يا سيدتى.. ليحفظكِ آمون.. ليحفظكِ آمون.

أشارت الملكة إلى أحد الحراس وهمست فى أذنه بكلمات أومأ على إثرها وهو يشير إلى نسجيتا بأن تتبعه...

وما هى إلا لحظات حتى كانت نسجيتا وشقيقتها والطبيب خن دو وحارسين فى طريقهما إلى بيت والد الوصيفة القريب من المعبد.. وبينما هم فى طريقهم همست نوتجمت إلى شقيقتها :

- ما الذى تخططين له أيتها الشيطانة..؟، أنا لم أنبث ببنت شفة عندما قمتِ بعمل إستعراضك هذا، بل وبالغت فى الأمر و قمت بالبكاء أنا الأخرى، فأخبرينى ما الأمر.. فأنا شقيقتك التوأم وأشعر أن هناك أمراً لا أعرفه..

كانت عيني نسجيتا فى تلك الأثناء تلمع كعيون النمر المُقبل على فريسة وهى تنظر إلى أختها هامسة:

- أنتِ لا تعلمين ما الخدمة التى أسديتها إلىّ يا شقيقتى..؟، بل لطيبة بأثرها.. لن تصدقي أنكِ أخيراً أصبح لكِ دوراً فى الحياة.. يا آمون المقدس أشكرك كثيراً فقد بعثت لى بالحل عن طريق شقيقتى البلهاء .
- وإن لم تعطينى نقود يا شقيقتى العزيزة ستجدينى وقد تحولت إلى مجنونة أيضاً .

قالتها وهى تضحك، بينما نظر إليها الجميع فى دهشة وهم لا زالوا فى طريقهم، بينما قرصتها فى يدها نسجيتا قائلة :

- أيتها الغبية سوف أعطى لكِ خمس و عشرون قطعة ذهبية إن قمتِ بكل ما أطلبه منكِ الليلة.
- مااااااااااااااذا..؟، خمس وعشرون قطعة ذهبية، لقد كنت أطمح فى خمس قطع ذهبية فقط..؟، فلتأمرينى يا شقيقتى المقدسة، رقبتى فداءً لكِ، حتى لو طلبتى رقبة والدى نفسه.
- كُفي عن المزاح ولو لدقيقة واحدة واسمعينى جيداً، فما سأقصه عليكِ وما سأطلبه منكِ عليكِ أن تفعليه دون حتى أن تحاولى فهمه.. لأنكِ من المستحيل أن تفهمى أبداً ..أطيعى الأوامر فقط إن كنتِ تريدين النقود.. أولاً لا تخلعى هذا الخمار حتى أُخبرك..
- هذا فقط ..!!!!
- اللعنة عليكِ فلتصمتى قليلاً.. سوف أقوم بتعطيل هؤلاء، وعليكِ بالإسراع إلى أبيكِ وأخبريه أن يدعى أنه مريض ويقوم بالتشنج والصرع كما يدّعى دائماً عندما يقترب منه أحد الدائنين، وأخبريه إن أتقن دوره جيداً، فله مبلغ من المال هو أيضاً.. أريد أن يخرج هذا الطبيب من عنده موقناً أنه على وشك الموت .. أفهمتى..؟
- هذا فقط..؟!!، إنه شئ سهل جداً، إن ذلك لا يستحق أكثر من قطعة ذهبية واحدة.
- إصمتى.. فهناك أمراً آخر ستفعلينه وهو ما يقابل الأربع وعشرون قطعة ذهبية الأخرى سأخبركِ به لاحقاً.. أفهمتى..؟، والآن إستعدى.
- نعم.. نعم ..لقد فهمت.

ولم تُكمل نسجيتا حديثها إذ إرتطمت قدمها فجأة بحجر على الأرض مما جعلها تنقلب على وجهها وهى تصرخ من قدمها، بينما هرع إليها الطبيب والحارسان و هى تصرخ من الألم :

- نوتجمت إذهبي أنتِ إلى والدى وأشعلى أضواء المنزل ليتسنى للطبيب الكشف عليه، سوف نلحق بكِ على الفور .

وقفت نوتجمت برهة من الوقت وهى تنظر إلى شقيقتها وهى تتألم، لا تدرى ما تفعل بل اقتربت منها وهبطت إلى جوار الطبيب الذى كان ممسكاً بقدم نسجيتا لتطمئن على أختها محاولة معرفة هل كسرت ساقها أم لا..؟، وبينما كانت شقيقتها تهدئ من روعها نظرت إليها نسجيتا صارخة:

- ألم أقل شيئاً أيتها الغبية..؟، ألم تفهمى..؟، اذهبي.

- حسناً حسناً لقد فهمت أنا آسفة .

قالتها ونهضت لتذهب مسرعة فى طريقها، بينما حاولت نسجيتا القيام والسير ببطء كما خططت فى رأسها منذ دقائق.

وما هى إلا دقائق حتى كان الطبيب يفحص الأب الذى كان يتلوى من الألم كالثعبان، مما جعل الحارسان يقيدانه حتى يقوم الطبيب بالكشف عليه.. كان ممثلاً بارعاً لدرجة أن الطبيب طلب من الجميع الخروج حتى يستطيع تهدئته، وهنا أخذت نسجيتا شقيقتها إلى الغرفة المجاورة وهى تشرح لها ما نوت على فعله..

- انصتى إلىّ جيداً، لم يتبق إلا دقائق ويخرج الطبيب والحارسان، كل ما أريده منكِ هو أن ترتدى عباءتي وتذهبى مع الحارسان إلى المعبد وتستمرى فى الصلاة حتى الصباح فقط، و الإنتظار هناك لصباح الغد.
- فقط..؟!!، ولما ذلك..؟، هل كل ذلك من أجل الصلاة..؟، فلتخبريهم بعدم.......

قاطعتها نسجيتا وهى تهتف فى غضب:

- ألا يمكن أن يصمت لسانك الغبي دقائق..؟ أريد أن أقوم بمهمة ما، ولن أستطيع القيام بها وأنا أُصلي كل ما أريده منكِ التظاهر أنكِ أنا كما كان يحلو لكِ أن تتظاهرى بذلك دوماً.

ضحكت نوتجمت قائلة بفخر:

- هل تتذكرين ذلك الفتى (كانى رع) الذى ظللنا نخدعه ونوهمه أننا شخصية واحدة، لقد كان هذا المغفل.....

قاطعتها نسجيتا بضربة غاضبة من قدمها على ساق أختها مما جعل الأخيرة تصرخ ...

- أخبرتك أن تصمتى، عليكِ اللعنة، ليس هذا وقت مزاح، قدمك هذه التى أتمنى لو كسرتها ستجعلكِ تتباطئين طوال السير فى طريقك حتى المعبد، وستجدينهم قد بدأوا فى الصلاة الثانية، كل ما عليكِ هو الصمت فقط وترديد آمين خلفهم ولا تناقشى أو تحدثى أحداً بالله عليكِ، وإلا إنكشف أمرنا نتيجة غباءك .. أتمنى من الله أن تكونى قد فهمتى.
- حتى الصباح فقط ، فأنا لن أذهب إلى قصر تيا المجنونة.

- حتى الصباح... أقسم لكِ، وسوف أحضر لكِ فى المعبد، هذا إن صارت الأمور على ما يرام.
- وهل هناك شك أنها ستصبح على ما يرام..
- لا.. لا ، أقسم لك، لا تخافي.
- وإن لم تأتى..؟
- عليكِ بالهروب والتأكد أن لا أحد يتبعك، وتختفى لبرهة من الوقت، ثم تعودين إلى هنا.
- لقد فهمت، أين المال إذن..؟
- ها هو ....

قالتها وهى تخرج من طيات ثيابها عشرة قطع ذهبية وخلعت إسورة ذهبية مناولة إياها لشقيقتها التى تمتمت:

- بالطبع لن أخرج بأكثر من عشر قطع ذهبية وتلك الأسورة تساوى أكثر من مائة قطعة.

إلتفتت نسجيتا عندما سمعت الطبيب وهو يخرج من الغرفة منادياً عليها، فأسرعت بخلع عبائتها مناولة إياها لشقيقتها التى لبستها على عجل وإرتدت هى ذلك الخمار الذى كان يخفى وجه شقيقتها، وما هى إلا لحظات حتى خرجوا للطبيب الذى كان مُجهداً وهو يجفف عرقه ويخبرهم:

- إن أباكم لا أدرى ما به حتى الآن، فلديه كتلة من الأمراض التى لا أعلم كيف إلى الآن لم يقضي نحبه بسببها.. يبدو أنه قد تناول شيئاً ساماً، ثم أن لديه حالة صرع وتشنكات شديدة ، إن.....

قاطعته نوتجمت وقد إعتدلت مقلدة شقيقتها تماماً وهى تقول:

- هل معنى هذا أن والدى سيموت يا سيد خن رو ..؟
- لقد أعطيته ترياق سيهدئه قليلاً، وسوف أقوم بزيارته مساء الغد .
- إذن هيا بنا حتى نلحق الصلاة الأخيرة.

والتفتت إلى شقيقتها قائلة فى هدوء غريب:

- إلى الملتقي إذن يا شقيقتى، سأنتظرك فى الصباح لتطئمنينى على والدنا..

وخرج الجميع دون أن يلاحظ أحدهم نسجيتا التى كانت مطأطأة الرأس.. والتى جرت نحو النافذة لتجد شقيقتها وهى تسير ببطء والحارسان من خلفها والطبيب يسبقهم فى طريقهم إلى المعبد.. كانت تدعو الله أن تظل صامتة ولا تتحدث مع أحد وإلا كان مصيرها القتل..

والآن عليها التصرف لتبدأ فى الجزء الثانى من الخطة ..

الجزء الأصعب تنفيذاً...

****

خرجت نسجيتا وهو تعدو فى طرقات طيبة الغارقة فى الظلام، وهى تعلم أن المرحلة الأخيرة من خطة قتل الملك لم يتبق عليها إلا القليل، وأن عليها أن تحارب حتى آخر رمق فى حياتها من أجل ألا يحدث هذا.. نعم لقد ارتكبت أخطاء كثيرة فى حياتها ولكنها الآن تود أن تُكفر عما قامت به من آثام.. لم تكن تعلم إلى من تلجأ فى البلاط الملكى وقد خان الكل رمسيس، حتى وزيره وكبير كهنته وكبار موظفي القصر.

لم يخطر ببالها إلا جارها وحبيبها القديم قبل أن يتم إلحاقها كجارية فى نساء الملك منذ سنوات.. كان (سندى) يعمل ضابطاً فى الحرس الخاص بولى العهد، وقد رأته عدة مرات من خلف النوافذ الخشبية، وقد حاولت أكثر من مرة أن تتكلم معه لتعيد حبه القديم لها لولا حيائها، فقد تخلت عنه فى وقت من الأوقات حين كان هو بحاجة إليها، كل ذلك كان من أجل أحلامها وطموحاتها التى لا تنتهى .. اللعنة .. أى طموحات وأى أحلام تلك التى تبرر التخلى عن من نحب، إنها كالسراب الذى يخدع المسافر فى صحراء العمر لتجعله يتخلى عن الحب.. تلك الواحة التى تحمل سر حياته ونجاته، ليظل يعدو ورائها حتى تحرقه شمس الحقيقة الساطعة، فيتطلع ورائه فإذا هو قد أضاع الطريق ، فلم يعد يدرى إلى تلك الواحة سبيلاً، لتحكم عليه الحياة بأن يقضى نحبه وحيداً وقد جف قلبه وتساقطت أوراق عمره .

كانت مرتعبة من مجرد تخيل ما سيحدث فى الغد.. دعت الله كثير بدعاء تحفظه عن ظهر قلب لعلها تحاول تغيير القدر...

- إلهي .. أنت رب السماء .. كما أنت رب الأرض ..

أنت يا من جعلت مصر عطيتك لأهل الأرض

وحفظت أهلها من كل شر

ها هو الشر قد بات ينتشر في أرضي ويمزق شعبي

إلهي العظيم ..

يامن جعلت مصر شعاع النور للعالم..

ها هو الظلام بات يحجبها عن كل العالم..

إلهي .. لا تترك شعبي .. وأرضي ..

وعطيتك تضيع مع خفافيش الظلام ، ووحوش البراري..

إنقذها إلهي .. إحميها يا سيد الوجود ..

لتبقي دائماً مصر أرض الحضارة والنور.

ظلت نسجيتا تدعو حتى إقتربت من منزل حبيبها السابق سندى، وظلت تقرع الباب وهى لا تدرى كيف سيقابلها..؟، وهل سيصدقها أم لا ..؟، ولكنها لم تفكر فى غيره، حتى فتح لها أخيراً و هو فى دهشة من ضيفته التى فوجئ بها فى منتصف الليل.. فلم يكن يتخيل أبداً أنها ستكون حبيبته نسجيتا .

ساعة كاملة وهو لا يكاد يصدق كل ما تخبره به، لكن الفزع كان بادياً على وجهه وهو يستمع إلى محبوبته القديمة، وهى ترجوه أن يقدم لها آخر خدمة، وسوف تودعه إلى الأبد .. لكنه أمسك بيدها راكعاً أمامها :

- نسجيتا.. بحق الآلهة لا تتحدثي الآن.. إن مجرد قدومك إلىّ وأن تثقى بى لأكون أنا الشخص الوحيد القادر على مساعدتك فى هذا العالم يمحو أى خطأ قد إقترفتيه فى حقي يوماً ما.. أنا لا زلت أحبك نسجيتا، ولا زلت يومياً أتذكر ملامحك الهادئة رغم ما مر بيننا منذ سنوات.. منذ إختفائك الغامض بمجرد إخبارك أنى أحبك.. فعلى الرغم من غضبى منكِ، إلا أن مجرد رؤية عينيك فى ضوء القمر تجعلنى أشعر وكأننا لم نفترق أبداً.. فلتثقي تماماً أنى لن أسمح لكِ أن تتركينى هذه المرة أبداً .. والآن هيا بنا ولندعو الله أن نسبق الزمن..

خفضت نسجيتا وجهها أرضاً من الخجل وغيرت الموضوع وهى تسأله:

- لما أنت لست فى حراسة ولى العهد الآن..؟، ألست ضابطاً مسئولاً عن حراسته..؟
- كنت كذلك فى الماضي، ولكنى تركت العمل بالجيش وإنتظمت فى مهنة الزراعة، فهى أفضل كثيراً يا نسجيتا، والآن هيا بنا سريعاً، أعتقد أنى أعلم من هو الشخص محل الثقة الذى سيقوم بمساعدتنا، هيا بنا الآن..

وإنطلق سندى ونسجيتا فى محاولة منهم لسباق الزمن وإنقاذ ما يمكن إنقاذه...

****

فى هذه الأثناء كان الأمير ينظر كل فترة إلى مكان الوصيفة التى لم تأتِ بعد، وخاصة أن الفترة الثانية قد بدأت بعد الراحة التى أعطاها كبير الكهنة للجمع، وقد إنتظمت الصفوف مرة أخرى للبدء فى الصلاة، ووسط قلقه إقترب منه بنموسي قائد حرس ولى العهد ليهمس فى أذنه:

- مولاى.. إن القائد اوناس فى الخارج يرسل إليك تحياته ويخبرك أنه فى طريقه مع ولى العهد لتوصيل المبعوثين إلى مركبهم القابعة فى الميناء الآن، و سوف ألحق به، ولقد أتيت إليك كما أمرتنى، هل نتحرك الآن..؟
- أخبرنى إن تحركتم الآن كم تستغرق الرحلة من هنا إلى الميناء..؟
- بمجرد سطوع الشمس سنكون هناك يا مولاى هذا إن تحركنا الآن..
- هذا يعنى أنه يلزمنى التحرك أنا أيضاً قبل سطوع النهار بعدة دقائق، حسناً حسناً.. إذهبا ولتأتينى بجثة ذلك الأحمق يا بنموسي.
- سترى يا سيدى.. سترى يا مولاى رمسيس الرابع.. ستري يا ملك طيبة القادم.

إبتسم بنتائور وهو يُحيي بنموسي وهو يخرج مهرولاً من المعبد.. وقبل أن يعاود أحلامه أفاق على صوت كبير الكهنة وهو يواصل دعائه...

إن الآلهة تفعم بالسرور والفرح، فأنت تعمل على إثراء قرابينها وازدهارها ...

والمصريون جميعاً تجتاحهم السعادة والسرور..

فبقدرتك وسطوتك عملت على حماية حقوقهم...

إن الإله الأعظم يشمل مدينته بالخير والنماء...

إنه بمثابة متراس وحصن، إنه المأوى والملجأ الذى لا يلحق أى لاجئ بداخله ضرراً واضطهاد..

إنه يتماثل ليجابه أعداء مصر المهاجمين لحدودها..

بدأ القلق يتسرب إلى نفسه من غياب الوصيفة حتى ظهرت نوتجمت أخيراً وهى تعرج على قدمها وهى تسير بهدوء حتى جلست فى هدوء وسط الوصيفات مُقلدة شقيقتها وهى تركع بجوارهم على الأرض، بينما أشار بنتائور للطبيب من خلف الصفوف فإقترب منه مهرولاً ، فأشار برأسه ناحية ما ظنها نسجيتا قائلاً:

- ما أخبار والدها أيها الطبيب..؟، هل كان مريضاً بالفعل أم......؟
- نعم يا سيدى، إنه مريض بالفعل ويعانى من تسمم تقريباً و قد أعطيته ترياق و.......

قاطعه الأمير بعصبية:

- وتلك الوصيفة لما تعرج وهى تمشى.
- لقد وقعت فى أحد الحفر القريبة من منزلهم يا سيدى..

ظل بنتائور واجماً عدة دقائق وهو ينظر إلى الوصيفه التى أبدعت فى تنفيذ دورها بإتقان..

استمر الكاهن فى تلاوة صلواته وبنتائور يتحسس خنجره وهو يتطلع من نافذة المعبد إلى الخارج فى إنتظار إقتراب سطوع الشمس ليخرج سريعاً لإنهاء مهمته.

تلك المهمة التى ستغير مصيره .. للأبد...

****

فى تلك الأثناء كانت نسجيتا و صديقها القديم سندى فى ضيافة القائد العجوز (جت) رئيس الحرس السابق للأمير ولى العهد .. والذى تقاعد بعد أن أصبح الأمير ولياً للعهد بسبب كبر سنه وتعيين مساعده بنموسي رئيس الحرس الخاص، وبعد أن قصت عليه نسجيتا تفاصيل المؤامرة والعجوز صامت ينصت فى إنتباه شديد وقد إنعقد حاجباه وتبدلت ملامحه.. إستأذنهم عدة دقائق مرت عليهم وكأنها دهراً، ليخرج عليهم وقد إرتدى عدة الحرب والقتال وهو يأمرهم بالذهاب معه، مما جعلها تقترب من أُذن سندى هامسة:

- سندى.. هل هذا الرجل طبيعى..؟، إلى أين يذهب بهذه الحُلة ..؟
- إصمتى وإلا سمعك، أنا أثق به كما أثق فيكِ تماماً.. إن الرجل سيستعين بعدد لا بأس به من الرجال الأشداء المساعدين له والذين يدينون له بالولاء..
- ألا زلت تثق فيّ يا سندى..؟
- ليس الآن يا نسجيتا ، هيا بنا الآن..

توجه الجميع نحو قصر الملك، و بمجرد الإقتراب من بوابات القصر هرع جميع الحراس إلى تحية قائدهم السابق الذى بادلهم التحية وسألهم أين يجد ولى العهد.. فإنبري أحد الضباط قائلاً:

- لقد رحل يا سيدى منذ برهة هو والمبعوثين، إنه فى طريقه لتوديعهم فى الميناء.
- اللعنة.. من كان فى حراستهم يا (نخت)؟
- القائد اوناس وكبير ضباط الحراسة بنموسي وحاشيه حراسة من عشرة أفراد..
- يا آمون المعظم.. اسمعنى جيداً يا نخت، إن الأمر فى غاية الصعوبة.. هل تثق فى قائدك جت
- ماذا تقول يا سيدى..؟!!، أنا أثق بك أكثر من نفسى.
- إذن فلتترك حراستك وإستدع كل من دشري، و رع حتب، و نفر كا رع، و تى رع دو، و ني كا رع ، و حور، ودع هنا من تثق فيهم ولتكن على رأسهم وإمنع أى أحد من الدخول إلى القصر، ولتحرس جميع مداخله وإعتقل كل من بداخل القصر الآن حتى وإن كان كبير البلاط.. وإن وجدت الأمير بنتائور إعتقله فوراً، ولتضع حراسة مشددة

على الجناح الخاص بالملك، وإعتقل كل من يقترب منه يا نخت، حتى لو الملكة الأم أست .. و لتأت لي بفرقة من جنود الحراسة الموثوق بهم فى غضون دقائق للذهاب لنجدة ولى العهد..

وأشار إلى نسجيتا قائلاً:

- أما تلك الفتاة فإحرص على سلامتها، وقم بتوصيلها إلى جناح وصيفات القصر..
- ما الأمر يا سيدى..؟، حديثك هذا يعنى أن هناك ثمة مؤامرة..؟، يا إلهى..
- إنها مؤامرة كبري يا نخت، وأتمنى أن تكون على قدر المسئولية، ولتستمع فقط لما أقوله.
- حسناً يا سيدى.. سأفعل ما أمرت به فى الحال..

ظل جت وسندى يبذلون قصارى جهدهم وهما يسابقان الوقت للحاق بولى العهد، بينما أرسل الضابط نخت جميع الضباط لإعتقال كل من كان موجود بالقصر فى هذه الأثناء.. ومنهم كبير السقاة وبعض الحرس.

وبعد عدة دقائق كان جت وسندى ومعهم عدد من الرجال ينطلقون بأحصنتهم للحاق بموكب ولى العهد، بينما إقترب نخت من نسجيتا طالباً منها السير خلفه لتوصيلها إلى غرفة حريم القصر، ومن ورائه خمسة من الضباط الأشداء يعملون تحت إمرته.. وبينما هم فى طريقهم إلى جناح الحريم وأثناء ذلك إقترب منهم ظل مهرولاً وهو يشير إليهم بتمثال خشبي وهو يطوحه فى الهواء إليهم وهو يهتف صارخاً لإرهابهم:

- هيا هيا.. هيا اقتربوا من أفاى العجوز تلك الدمية، هيا فلتغرقوا فى سبات، لا أحد سيقترب اليوم من جناح الملك إلا بإذن الدمى.

أزاحه نخت بأدب معتذراً:

- سيد بنجو رئيس حاشية مولاى الملك، هل لك أن تأتى معنا لأمر هام...؟

ظل بنجو يدور حول نفسه مطوحاً بتماثيله الخشبية فى وجوههم دون جدوى ودون أن يفسح لهم مجالاً للمرور هامسا:

- أمر هام..؟، ليس هناك أهم مما يقوله افاى العجوز.

وظل يطوح بإحدى العرائس فى وجوههم بينما إقتربت منه نسجيتا وهو ترفع تمثالاً من الرخام كان بجوارها لتهبط به على رأسه ليخر العجوز مضرجاً فى دمائه وهى تهتف:

- عذراً يا سيد بنجو فلدينا أهم من عرضك السحرى التافه ذاك..

اندهش نخت من جرأتها وأشار إلى مساعديه بنقل العجوز إلى الأسفل وتقييده فى سجن القصر لحين العثور على أحد آخر.. هرع إليه عدة حراس آخرين ممن يثق بهم وساروا فى جنبات القصر وإقتربوا من جناح الملك، ليفاجأ نخت بالحراس جميعاً يغطون فى نوم عميق، بينما همست إليه نسجيتا:

- يبدو أن ساقي الملك السيد مسو سو رع قد قام بواجبه نحو الحراسة..

نادى نخت على بعض الحراس ممن معه وهو يزيح النائمون ليدخل بمفرده للإطمئنان على صحة الملك ويخرج هامساً دون أن يشعر به :

- حمداً للرب فالملك يغط فى نوم عميق يبدو أن الخائن قد أفسح المجال ليأتى أحدهم ويقتل الملك فى غفلة من حراسه.

بدل نخت الحراس بسبعة رجال أشداء يحرسون جميع المداخل المؤدية إلى جناح ملك مصر.. وأوصاهم بإعتقال كل من يقترب من جناح الملك أياً كان لقبه أو إسمه أو مكانته .. وسار حتى وصل إلى جناح الحريم ليترك نسجيتا هناك ..

وما هى إلا لحظات حتى كانت مستلقية مطمئنة فى جناحها السابق وهى تدعو الرب أن تنقذ عناية آمون الإلهية الملك وولى عهده، وإلا كان مصيرها كمصيرهما..

الموت المحقق.

****

فى هذه الأثناء كان موكب ولى العهد يتقدم بتؤده، وهو يسير بخيلاء ممتطياً فرسه ويتحدث بهدوء إلى ذلك الغريب المرتدى السواد بجواره، وقد تأخرا قليلاً عن بقية الركب.. ومن خلفهم كان يسير خمسة من ضباط الحراسة، أما فى

المقدمة فقد كان اوناس وبنموسي يتهامسان.. و بعد فترة بسيطة وقف بنموسي بعد أن أشار له اوناس بجوار أحد الأشجار ليمر المبعوثين، وكان من أمامه فى الجهة المقابلة أحد الضباط الأشداء، وبمجرد مرور المبعوثين شهر بنموسي سيفه وطعن أحدهم فى مقتل ليخر صريعاً فى الحال، بينما تفادى الآخر السيف الذى أخطأه ليهوى به على رأس فرسه بعد أن قفز بعيداً فى خفة قبل أن تصيبه الضربة القاتلة.. ليستل سيفه سريعاً ويأخذ وضعية الهجوم.. أما ولى العهد فقد وقف مذهولاً مما يرى ولكنه لم يلبث أن قفز هو والمبعوث الآخر إلى الأرض وهو يصرخ على اوناس.. ويشير إلى الحراس من خلفه:

- اوناس.. خيااااانة.. خيااااانة.. اقتلوا الخائن بنموسي..

لكن الحراس هبطوا سريعاً وهم يلتفون فى دائرة حول ولى العهد والإثنين المبعوثين الذين تبقوا، فأدرك ولى العهد أنه قد وقع في فخ وأنه هالك لا محالة.. وقد أشهر الجميع سيوفهم، بينما نظر أحد الحراس إلى الموقف بتردد وقد بدا عليه شعور متأخر بالندم فصاح لولي العهد:

- كلنا خونة يا مولاى.. سامحنى بحق آمون المعظم.

قالها وإتجه نحو زملائه شاهراً سيفه وبدأ بالهجوم ليصرع زميله فى لمح البصر ، فبدأ القتال..كانت المعركة غير عادلة تماماً، فأربع رجال يحيط بهم ثمانية من ضباط الحراسة، بالإضافة إلى اوناس قائد الجيوش الذى كان ينظر إلى القتال الدائر فى ضراوة، وبنموسي الذي كان يقاتل أحد المبعوثيين الذين كان يبدو أنهم عتاة في فن الحرب ، لا يشق لهم غبار..

بينما ظل الجندى الذي إستيقظ ضميره فجأة يدافع ببسالة عن ولي العهد بعد أن صرعا سوياً ثلاثة رجال.. لكن بنموسي الملعون كان قد قتل المبعوث الثانى على الرغم من إصابته بجراح خطيرة منه.. وطعن الحارس المنشق عنهم فى مقتل، فلم يتبق سوى المبعوث الأخير فقط وولى العهد أمام خمسة رجال أشداء.. وبنموسي الذى رغم جرحه النازف إلا أنه لم يزل يقاتل بعدما تبقي إثنين فقط..

أما ولى العهد فلم يجبن، بل قاتل بضراوه.. بين كر وفر ونجح فى إسقاط إثنين آخرين.. لكن بالطبع كانت الغلبة للخونة، فسقط المبعوث الأخير مضرجاً فى دمائه بعد أن صرع أحد الحراس بينما صرع ولي العهد آخر.. هنا صاح اوناس فى الجميع للكف عن القتال موجهاً حديثه لولى العهد:

- سيدى ولى العهد، يجب أن تعلم شيئاً، لا تأخذ الأمر على محمل شخصي، لكن مصلحة البلاد تقتضي ذلك، ولقد قاتلت بضراوة فائقة النظير، وحان الوقت لكى تستسلم.

صرخ به ولى العهد فى إستنكار وهو يلوح بسيفه :

- أى مصلحة أيها الخائن..؟، هيا تقدم لتُرينى بأسك.. فليعلنك آمون الذى سأرسلك إليه على الفور.

ضحك اوناس بسخرية وهو يتطلع لولى العهد الذى ما زال يتصرف بكبرياء وشجاعة بالرغم من صعوبة الموقف :

- أنت لا تفهم شيئاً، فأنا مجرد أداة وإلهك آمون وكبير كهنته هم من رأوا أنك وأباك قد خنتما المعبد.. خنتما الدين بعدما سمحتم لهؤلاء الغرباء بالدخول إلى طيبة وقربتموهم وتعاونتم معهم، لقد سرت على نهج أسلافك وجعلتهم يتدخلون فى كل شئ .. الدين والعلم والتحنيط والبناء والتشييد، بل وتصغون إليهم أيضاً فى الخطط الحربية.
- أنت لا تعلم أى شئ أيها الملعون الغبي، فأنت كما قلت ، مجرد أداة فى أيدى مجموعة من الخونة، خنت بلادك ومولاك وحلتك العسكرية، وستدفع ثمن ذلك غالياً، والآن كن رجلاً وهيا لتقاتلنى.

لم يترجل اوناس عن فرسه بينما صرخ بنموسي :

- فلتدعه لى يا سيد اوناس، فأنا أحق بقتال سليل الخونة هذا.

هجم عليه ولى العهد بغضب شديد وهو يهتف به:

- سأجعلك تندم أيها الحقير على أنك لفظت بذلك، هيا تقدم.

لم يستغرق القتال بينهم دقيقة حتى كانت رأس بنموسي تحت أقدام ولى العهد.. وحينها صرخ اوناس فى رجاله:

- إلى ماذا تنظرون أيها الأغبياء..؟، هيا إنهوا الأمر سريعاً..

هرع ما تبقي من الحراس إلى ولى العهد الذى جري فى إتجاه الأشجار القريبة منه حتى ينفرد بكل منهم على حدى، ولكن اوناس فطن إلى الخدعة، فصرخ فيه:

- تريد أن تبارزنى، إذن هيا.. هيا ليكون لى شرف قتلك.

توقف ولى العهد وإلتفت ليواجه اوناس ببسالة، وبدأ القتال الذى كان فيه اوناس كالثور الهائج أمام شخص يقاتل منذ نعومة أظافره، إلا أن ولى العهد خارت قواه، بينما ظلت ضربات اوناس على درعه حتى تحطم على يد الأمير وبضربة أخرى كان قد أطاح بسيف الأمير فقد أصابت الأمير ضربة سيف على يده بعد أن تعددت الضربات على جسده حتى هوى على الأرض، بينما وضع اوناس سن سيفه على رقبه ولى العهد قائلاً فى شماتة:

- أكرر لك أنى أقتلك لأطهر أرض طيبة منك.. فأنتم من دنستموها بما فعلتوه.. وأنا أقوم بمهمة مقدسة من أجل آمون المعظم، ومن أجل الكهنة، ومن أجل إعلاء كلمة الدين فى طيبة أيها الأمير المارق.. والآن فلترحل فى هدوء، وتيقن أنى لن أُحاسب على قتلك لرغبة إلهك آمون المعظم فى ذلك .. وداعاً أيها المارق ال........

لم يُكمل اوناس كلامه فقد فوجئ ولى العهد برمح قوي يخترق جسد اوناس الذى نظر إلى الرمح الذى إخترق صدره فى رعب قبل أن يهوى جثة هامدة بجوار الأمير الذى قفز من جواره حتى لا يخترق الرمح عنقه هو الآخر، وهو يسمع صرخات قتال قبل أن يغيب عن الوعي بسبب الدماء التى نزفها، وقد خيل إليه أنه يري جت رئيس حرسه القديم وعدد من الحراسة الخاصة بالقصر، وهم يقتلون ما تبقي من الخونة ويقتربون منه لنجدته..

****

ظلت نسجيتا تتقلب فى فراشها وهى تدعو الله أن تمر تلك الليلة فى سلام .. كانت تشعر أن هناك شيئاً ما ناقصاً فى الموضوع ككل.. هل يمكن أن تكون الخطة هكذا بمنتهى البساطة، هل تم القضاء على الخونة عن طريق الحراسة التى ستلحق بولى العهد..؟، وتشديد الحراسة على جناح الملك..؟، إن الأوامر صارمة، لن يقترب أحد من الجناح الملكى حتى

الملكة الأم، وسوف يتم إعتقال بنتائور فور رؤيته.. ولكن لما لم يظهر حتى الآن..؟، أيكون قد بلغه ما حدث فقرر أن يهرب إلى مكان بعيد لن يعرفه أحد..؟

ياإلهى.. إن هناك شيئاً ما مازال ناقصاً.. تُرى ما هو..؟، هكذا سألت نفسها عشرات المرات قبل أن تغرق فى نوم عميق..

بعد عدة دقائق رأت نفسها تجري داخل ممرات القصر وأحد تماسيح النيل يعدو من ورائها سريعاً، فهربت منه إلى أحد الممرات الجانبية، وظلت تعدو وتعدو وهى تسمع اصطكاك أسنانه من خلفها.. فأغلقت عدة أبواب ونظرت فإذا هي فى غرفة نوم الملك.. فصرخت وعلى صراخها قامت مفزوعة من ذلك الكابوس لترعب الوصيفة سخمت المستلقية على السرير المجاور والتى إنتفضت صارخة:

- ما بكِ يا نسجيتا..؟، لقد أفزعتينى، ما بكِ متجمدة هكذا..؟،أرأيتى كابوساً..؟

قفزت نسجيتا من سريرها صارخة..

- يا إلهى.. كم أنا غبية..كيف لم أتذكر..؟، السرداب يا سخمت، الممر السري..
- أى ممر..؟
- لا تشغلى بالك أنتِ، فلتعودى إلى نومك.

قالتها وخرجت سريعاً إلى أحد الحراس لتصرخ عليه:

- من فضلك أسرع وإستدعى كبير الحراس نخت، فالأمر هام جداً.
- أنا آسف أيتها الوصيفة ، لن أترك مكانى .
- إن الأمر غاية فى الخطورة، فحياة مولانا الملك فى خطر.
- لن أتزحزح من هنا، ولقد سمعتى أوامر سيدى نخت بألا أتحرك أو أدع أحد يقترب من الجناح الملكى، وأنتِ الآن على بُعد أمتار من الجناح الملكى، فإن لم تدخلى إلى غرفة الوصيفات الآن سوف أعتقلك بأمر من.......

قاطعته فى هيستريا :

- اللعنة عليك أيها الغبي، قلت لك إن حياة الملك فى خطر وأنت مصمم على تنفيذ الأوامر دون تفكير.

- إحذري أيتها الوصيفة، وإلا أعتقلتك حالاً.

إقترب أحد الحراس الآخران منهم قائلاً للحارس الذى يتحدث مع نسجيتا:

- ما بها تلك الوصيفة ...؟

لم تنتظر نسجيتا إخباره بل قفزت إلى الداخل على مخدع سخمت لتلكزها فى يدها فقامت الأخيرة صارخة مرة أخرى:

- نسجيتا ماذا دهاكِ الليلة..؟، هل أتيت لزيارتنا أم لإصابتنا بالرعب.

- إنصتى إلىّ فهناك مؤامرة على حياة مولانا الملك، فإنصتى لما سوف أقوله لكِ، وأخبرى نخت بما سأخبرك به وهو سيفهم .

- مؤامرة..؟!!، وأخبر نخت..؟!!، متى..؟

- الآن.....

- ولما لا تخبريه أنتِ...؟

- سوف يكون لدىّ مهمة أخرى، هيا إنهضى بسرعة.

قفزت الوصيفة الأخرى من مخدعها مرتدية عباءتها لتأخذها نسجيتا من يدها وهى تغادر الغرفة لتجد الحارسان مرة أخرى، فهتفت بهم فى حدة:

- إنصتا أنتما إلىّ الآن، إن حياة الملك وطيبة كلها فى خطر، فإن لم نلحق حياة مولانا الملك وحدث له أى مكروه سأخبر الجميع أنى حذرتكما و لم تنتبها لحديثي.

- يبدو أنكِ مجنونة أيتها الوصيفة التى لا أعلم لها إسماً.

- أنصت إلىّ فقط، نعم أنا مجنونة، كل ما أريده منك أن تقوم بتوصيل هذه الوصيفه سخمت لتخبر رئيس الحرس نخت بموضوع هام، أما أنا فسأدخل إلى غرفة الوصيفات الرئيسية أمامكم ولن تلمحانى حتى الصباح.

- نحن فى الصباح الآن .

- إذن أسرعا بالله عليكم، فلتقف أنت مكانك وليذهب صديقك إلى القائد نخت..
- حسناً، فلتأتى معى لأدخلك بنفسي إلى الجناح الرئيسي للوصيفات، أما أنت يا كا رع فلتذهب بالوصيفة سخمت لمقابلة نخت.. أهناك أمراً آخر أيتها الوصيفة..؟
- لا ... شكراً لك سيدى.

وبالفعل هبط الإثنان إلى غرفة الحراسة الرئيسية، بينما حرص الحارس الآخر على توصيل نسجيتا إلى الجناح الرئيسي للوصيفات..

وبمجرد دخولها لاحظت أن ضوء الشمس لا زال فى بدايته، ومعنى ذلك أن هناك فى هذه الأثناء قتال يدور فى مكان ما..فتضرعت:

- فلينصرك آمون يا مولاى ولى العهد..

هذا ما أخبرت به نفسها، والآن عليها أن تتذكر جيداً مكان الباب المخفى وراء الستائر والمؤدى إلى جناح الملك ولا يعلمه أحد إلا كبار الوصيفات.

****

فى هذه الأثناء وبالقرب من الميناء كان ولى العهد ينطلق على فرسه وبجواره جت وسندى الضابط القديم وفرقة كاملة من الحراسة الخاصة بالقصر الملكى يسابقون الزمن للحاق بالقصر ومحاولة إجهاض مؤامرة إغتيال الملك.. لم يكن ولى العهد يصدق كل ما رواه له سندى على لسان نسجيتا بعد أن أخبره بكل أطراف المؤامرة من رأس الحية تيا حتى ساقي الملك والعديد من الحراس الخونة... كان يدرك أن بنتائور وأمه يحقدان عليه ويكرهانه منذ أن كان هو وبنتائور صغاراً، كان يدرك أن أحلامهم وتطلعاتهم تفوق الحدود، كان الطمع والأنانية هم من يسيطران عليهما ، ولطالما حذرته والدته الملكة أست منهما، لكنه أبداً لم يحقد على بنتائور أو يكرهه، لقد حاول كثيراً التقرب منه وإحتوائه، وكان والده يشجعه على ذلك ويرى أن بنتائور ما زال صغيراً يقع تحت تأثير والدته ولكنه لم يفقد الأمل أبداً فى أن ينضج يوماً ويدرك حجم المسئوليات الملقاة على عاتقه، كان دائماً يأمل فى أن يشارك بنتائور أخاه أعباء الحكم بدلاً من عبثه وطيشه وغرقه فى

ملذات الحياة ، ولكن أى منهما لم يتخيل أبداً أن يحاول بنتائور التخلص منه هو وأبيه، لم يخطر بباله أن تأتى الخيانة من أقرب الناس إليه..

من أخيه الصغير.

كانت جراحه قد ضُمدت بشكل مؤقت وقد وقف النزيف، بينما وجد أن الثلاثة مبعوثين قد فارقوا الحياة، لذلك أمر بترك حراسة مشددة على المكان كله وعليهم لحين نقلهم إلى القصر لإجراء مراسم ملكية فى توديعهم لمثواهم الأخير..كان الأمير واجماً مما جعل جت يحاول التخفيف عنه قائلاً:

- لا تقلق يا مولاى، ستفشل المؤامرة وسأقبض بنفسي على ذلك الأمير الخائن.
- أرجو ذلك يا جت.. أرجو ذلك.
- ولكن يا سيدى هل آن الأوان أن تخبرنى من هم هؤلاء المبعوثين..؟
- بالطبع يا جت، لكن ليس الآن.. فقد أنقذت حياتى وربما حياة الملك أيضاً، لذلك ستعلم كل شئ، لكن فى حينه.. والآن دعنا نلحق فقط بهؤلاء الخونة قبل أن ينفذوا ما تآمروا عليه.

****

فى هذه الأثناء كانت نسجيتا قد نجحت فى العثور على الباب المؤدى إلى غرفة الملك، شعرت أنها فعلاً لا زالت فى الكابوس الذى رأته منذ دقائق.. كانت تعلم أن الدهليز طويل لأنها سارت فيه ذات مرة على أطراف أصابعها حتى وصلت إلى جناح الملك الذى لم يكن موجوداً لتنبهر بما وجدت به وقتها.. كان الظلام داخل الدهليز هو المسيطر على كل شئ ولا يصل إليه ضوء النهار إلا في بعض الاماكن.. إلتف الدهليز كما الثعبان ليفضي بها إلى غرفة واسعة بها ثلاثة أبواب، إحداها تفضي إلى شرك قاتل، والآخر إلى غرفة الملك، والباب المتبقى فيفضى إلى سرداب مؤدى إلى مسبح خاص بتماسيح نيلية فى إنتظار الوليمة.. لكنها للأسف لا تتذكر أيهما الباب المؤدى إلى غرفة الملك.. فقررت أنها ستنتظر هنا لحين وصول النجدة.. وفجأة شعرت أن هناك أصوات من خلفها فقامت سريعاً وقد سعدت لوصول نخت والحراس إلى هذا المكان لأنها كانت تعلم أن هذه المنطقة هى نقطة ضعف الحراسة كلها.. فوقفت وهى تبتسم للقادم من الدهليز المظلم لكن ابتسامتها

انقلبت إلى نظرة فزع عندما وجدت نفسها وجهاً لوجه مع الأمير بنتائور الذى ابتسم فى شراهه وعينيه تلمع بالجنون هامساً بصوت كالفحيح:

- ألف لعنة عليكِ أيتها الجارية.. لقد تركتك منذ دقائق فى المعبد الملعون، فكيف سبقتينى إلى هنا..؟

كانت نسجيتا فى ترتعد بشدة وهى تتقهقر وتستند بظهرها على أحد الأبواب، وكأنها تمنعه من الدخول على الرغم من عدم تذكرها أى باب هو الباب المقصود :

- بل أنت كيف دخلت إلى هنا والقصر كله محاصر؟
- من سرداب آخر أيتها الغبية.. هل تظنى أن القصر مدخله الوحيد هو تلك الأبواب..؟
- أنصت إلىّ .. لن أسمح لك بالدخول، ليس بعد كل ذلك تأتى وتمر إلى حجرة الملك لتقتله وتستولى على العرش.

قهقه بنتائور فى سخرية قائلاً:

- وماذا ستفعلين..؟، هل ستقاتلينى إذن..؟
- سأفعل، ولا تنس أنى .....

لم يمهلها بنتائور بل إقترب منها وهو يهوى على وجهها بلطمة هائلة بيده ليطرحها أرضاً وقد فقدت الوعى.. فوقف أمامها برهة من الوقت لا يدرى أيجهز عليها أم يلقي بها إلى الباب التى كانت مستندة إليه لتسقط فى هوة أسفل القصر تنتهى ببركة للتماسيح النيلية المتوحشة..

****

أما بداخل جنبات القصر فقد كانت سخمت تهرول ومعها أحد الحراس للبحث عن نخت حتى وجداه أخيراً، وقبل أن يقتربا منه صرخ فى وجه الحارس:

- أيها الغبي، ألم أخبرك ألا تترك مكانك أبداً.

قاطعته سخمت فى فزع قائلة:

- أين كنت يا سيدى..؟، لقد بحثنا عنك فى أرجاء القصر.

- من أنتِ أيتها الوصيفة..؟، وكيف تجرؤين على......

- فلتنصت إلىّ جيداً يا سيدى، فليس هناك وقت لذلك، إن نسجيتا تخبرك أن الخطر لن يأتى من خارج القصر بل من السرداب السري المؤدى إلى جناح الملك.

رفع نخت حاجبيه بدهشة صارخاً:

- سرداب سري..؟، ماذا تقولين ، وأين نسجيتا الآن؟

- ليس هناك وقت، أسرع معى إلى غرفة جناح الحريم وسوف تعلم كل شئ هناك.

صاح نخت على عدة حراس ليتبعوه وهو يسرع خلف سخمت إلى جناح الحريم.

****

وفى السرداب رفع بنتائور الوصيفة وفتح الباب الثالث والأخير الموجود على يسار الغرفة والمؤدى إلى غرفة الملك وأغلقه وقد وضع جسد الوصيفة من خلفه بحيث يمنع أى شخص من الدخول لمجرد الإحتياط.. وقد بدأت تلك اللمعة الوحشية تزيد فى عينيه وهو يقترب من الباب الأخير ويفتحه ليجد والده.. الملك رمسيس الثالث نائماً فى فراشه مطمئناً..

إقترب منه وهو ينظر إليه فى تشفٍ واضح.. وقد أخرج الخنجر من بين ملابسه ولعقه فى لذة.. وإقترب من رقبة العجوز الذى شعر أن هناك أحداً بجواره على المخدع عندما شعر بثقل علي الفراش.. فإلتفت بهدوء ليجد إبنه وقد إستل خنجراً وهو ينظر إلي والده نظرة الحيوان المفترس الذى سيُجهز على فريسته فى خلال دقائق..

ولفرط دهشة بنتائور لم يجزع الملك، بل إعتدل ليستند على عارضة مخدعه الخشبية فى هدوء، وهو ينظر إلى ولده غير مصدق للأمر، لكنه تمالك نفسه وبدأ فى الحديث:

- أتعلم.. بالرغم من عشرات المعارك التى خضتها كنت أعلم أننى سأنجو منها جميعاً.. فقد أخبرنى عراف ذات مرة بذلك، قال لى أنى سأقضي نحبي على فراشي.. على يد خائن.. وبمرور الأيام والسنين تناسيت ذلك، لكنك ذكرتنى به الآن.. لم أتصور يوماً ما أن يكون ذلك الخائن هو ولدى، أبعد كل ذلك تكون نهايتى على يديك أنت أيها التعس؟، هل تظن أنى سأرتعد خوفاً منك.. أنت واهم أيها الغبي.. أنا رمسيس الثالث سليل الآلهة وابن طيبة.. ها أنا ذا أستقبل الموت بقلب شجاع.. لقد خضت المعارك فى سبيل......

قاطعه بنتائور ساخراً :

- صدق حدسك، ستكون نهايتك على يدى، ولا داعى لكل هذه المقدمات .. فأنت من فعلت ذلك بنفسك، تتشدق دائماً بترسيخك للعدل فى عموم البلاد ولكنك لم تعدل بين أبنائك أيها العجوز الخرف، كنت دائماً تفضل ولدك علىّ وتحتقرنى انا وأمى ، كنت تعده ليكون ولى عهدك ، لم تحاول أبداً الإهتمام بى وكأنى غير موجود ، وكأنك لا ترانى ، والآن تختاره ليصبح ولى عهدك بدلاً منى.
- أي عدل تقصد أيها المأفون..؟، هل كنت تظننى سأوليك ولاية العهد لتكون رمسيس الرابع من بعدى عوضاً عن أخاك..؟، هل خضت معارك مثله أو كنت معاوناً لي فى إدارة أمور البلاد طوال السنوات الماضية...؟، لقد كنت غارقاً فى سفهك وملذاتك ، لم تحاول يوماً أن تَخبُر شيئاً من أمور الحكم، هل أخالف التقاليد التى تقضى بأن ابن الملكة الأولى يكون هو ولى العهد..؟ سأموت على فراشي شريفاً مُستقبلاً العالم الآخر فى فخر، لقد فرجت هم البائس وأرجعت له الأمل والحياة وأنصفته ممن ظلمه، لذلك صار كل إنسان آمناً ببلده، وكل شخص في المحاكم أعطيته حقه كاملاً، وساد العدل المجتمع كله أثناء حكمى، أما أنت فسيلاحقك العار أينما سرت على هذه الأرض.

تطلع إليه بنتائور فى سخرية وشماتة وهو يهتف:

- فات أوان الخزعبلات أيها الخَرِف، سأصبح ملك البلاد بلا منازع ، فقد قتلت إبنك المدلل ولى العهد المزعوم ، وكل رجال البلاد أصبحوا الآن فى قبضتى وتحت إمرتى، فالكل يريد التخلص منك، والآن حان دورك...

فجأة وجد الباب السري قد فُتح وقد هرعت إليه نسجيتا مرة أخرى، فكان لديه خياران، إما أن يقتل الملك فوراً أو يقتلها ويعطى الفرصة للملك لمناداة حراسه على باب الجناح، فقفز هو الآخر ممسكاً بيد العجوز التى حاولت جذب الحبل المنتهى بجرس إلى خارج الغرفة لجذب إنتباه الحراس وبيده الأخرى مرت بالخنجر على رقبة الملك، ولكنها لم تصب الشريان الذى حاول الأمير أن يقطعه، فقد قفزت الوصيفة ناحيته وهى تلف يديها حول عنقه.. بينما جحظت عينا الملك وهو يمسك برقبته وقد شعر أنه بداخل كابوس ما.. فلم يكن يتوقع حتى فى أسوأ كوابيسه أن يكون مقتله علي يد ولده، لكنه أيقن أنه لم يحلم عندما بدأت الدماء فى تغطيته..

تراجع الأمير فجأة إلى الحائط المجاور ليصدم نسجيتا بكل ما أُوتى من قوة، والتى تأوهت بشدة وقد وقعت على الأرض.. نظر بنتائور إلى الملك الذى لم تقضى عليه تلك الضربة القاتلة، فعاد إليه مرة أخرى لُيجهز على رقبته، وفجأة إقتحم عشرات من الحرس الخاص بالملك الغرفة شاهرين أسلحتهم بمجرد رؤية بنتائور ...

- اقبضوا على هذا الخائن ، واستدعوا طبيب القصر فوراً.

هذا ما صرخ به نخت وسمعه الملك الذى إلتفت بصعوبة ناحية العراك على يساره وهو يري ابنه يحاول قتل أحد الحراس الذى إقترب منه، بينما تكاثر عليه الحراس ليسقطوه مقيداً، وهو ينظر فى جنون إلى والده الذى بدأ فى الغياب عن الوعى تماماً..

****

فتح الملك عينيه ليجد أن هناك العديد من أطباء القصر يحيطون به، وبمجرد عودته من الغيبوبة إقترب منه ولى العهد وهو يربت على كتفه، بينما كان جت رئيس الحرس القديم بجوار فراشه والجميع يبدو على وجوههم الهلع.. وولى العهد يهمس لوالده ليطمئنه وهو يحاول أن يبدو هادئاً:

- نحمد الله على سلامتك يا والدى العزيز..

تأوه الملك وهو يحاول أن يرفع يده ليتحسس وجه ولى العهد وهو يهمس فى ضعف:

- اه يا ولدى، لقد أخبرنى ذلك الخائن أنه قد قتلك.. ما الذى حدث يا ولدى وما هذه الدماء التى تلطخ ملابسك..؟، هل أُصبت..؟، وهل المبعوثين بخير...؟، هل وصلوا إلى سفينتهم آمنين..؟
- ليس الآن يا مولاى الملك، بمجرد أن يتم شفائك سوف أخبرك عن كل شئ.
- ما الذى حدث لى ..؟، أشعر بوهن شديد ولا أقوى على القيام.
- لقد طعنك الملعون فى رقبتك ونزفت كثيراً جداً، وحاول الأطباء إيقاف النزيف وإغلاق الجرح، وسوف تشفي فى خلال أيام، ولكن الآن فلتنم فى هدوء يا والدى، ولا تقلق فكلنا إلى جوارك، وسنطهر البلاد من كل الخونة بعد أن علمنا أبعاد المؤامرة جيداً.

ربت رمسيس على يد ولده الذى جلس هادئاً رغم آلامه بجوار والده حتى ذهب فى نوم عميق .. ثم تركه ليغادر الجناح حيث كان هناك أربعة أطباء ملكيين و جت كبير الحرس السابق وعدة حراس وباقي أبناء الملك ، حيث كان الجميع فى انتظار خروجه، فإلتفت إلى كبير أطباء الملك متسائلاً:

- أخبرنى يا كبير الأطباء عن حالة الملك..؟
- لن أُخفي عليك يا مولاى، إن الأمر خطير، لقد طعنه الأمير بنتائور فى مكان بالقرب من الشريان الرئيسي، ونحمد الله على أنه أخطأه، ولكنه قد تأثر بسن الخنجر فهناك قطع فى الرقبة وفتح الشريان، كما أن الطعنة كانت بالقرب من الفقرات العنقية.

إنعقد حاجبا ولى العهد وهو يهتف بعصبية:

- لا أفهم شيئاً.. هل هناك خطر على حياة جلالة الملك..؟

تنحنح كبير الأطباء وإلتقط أنفاسه بصعوبة وهو يحاول مصارحة ولى العهد بحالة الملك:

- نعم يا مولاى فجلالة الملك شيخ عجوز، وتلك الإصابة قاتلة لرجل فى مثل سنه خاصة مع النزيف الذى لا يتوقف، ولقد عملنا كل ما فى وسعنا، وسوف نحاول إيقاف النزيف إذا حدث مرة أخرى .. أملنا الآن أن تمر مرحلة الخطر فقط.

- ومتى ستنتهى مرحلة الخطر تلك..؟

- إذا توقف النزيف فسيكون ذلك خلال ثلاثة أيام.

- فلتفعل كل ما بوسعك أيها الطبيب .

- بالتأكيد يا مولاى.

- ماذا بشأن الوصيفة الأخرى..؟

- لديها إصابات فى وجهها وفى عمودها الفقرى شديدة لكنها ستعيش.. تحتاج فقط إلى الراحة، ولقد قمنا بعمل جبيرة مناسبة لعمودها الفقري بعد أن تحركت إحدى الفقرات.

- يجب المحافظة على حياتها أيها الطبيب، فهى من لها الفضل فى كل ذلك ..

وأشار إلى جت قائلاً:

- أين هى يا جت..؟

- فى أحد غرف حريم القصر يا سيدى.

- هيا بنا إليها إذن.

ونادى على رئيس شرطة القصر ليذهب معهم، بعد أن وصل إثنين من كبار القضاة ليسألا عن تلك الإشاعة التى ملأت جنبات القصر.. فإلتفت ولى العهد لرئيس الشرطة وهو يهتف به:

- أخبرنى يا رئيس الشرطة، أين ذلك الملعون الآن..؟

- إن عليه حراسة مشددة فى سجن القصر يا مولاى.

- هل قبضت على قائمة الأسماء التى أعطاها جت لك ..؟

- نعم حدث ذلك منذ قليل يا مولاى، معظم تلك الأسماء فى السجن الآن.

هتف ولى العهد مستنكراً فى عصبية:

- معظم..؟!!، أنا أريد الكل.. أفهمت..؟، أريد كل من فى القائمة.

- سيحدث يا مولاى فى أسرع وقت ، ولكن أريد أن أعلم هل هناك أشخاص أُخر..؟

- سنعلم الآن.. المهم أريد حامية من الجيش لتتحرك إلى موقع القتال وتُحضر لى جثث المبعوثين لوضعهم فى أحد الأجنحة الملكية للقصر..

ثم إلتفت إلى جت قائلاً:

- وأنت يا جت...

تقدم جت مسرعاً إلي ولى العهد الذى بادره قائلاً بصوت خفيض لا يسمعه سواه :

- ستذهب على رأس تلك الفرقة لإحضار جثث المبعوثين وتكريمهم لحين تحنيطهم وعمل جنازة ملكية لهم.. سوف تُشرف أنت بشكل شخصي على كل ذلك فأنا لدىّ عدة أمور أهم.. فما زال أمامنا القضاء على كل رؤوس تلك المؤامرة .. إجعل مقبرتهم في مكان سري لا يعلمه سواك.. أفهمت يا جت..؟

- بالطبع يا مولاى، لا تشغل بالك بذلك، ستكون الأمور على ما يرام.

إعتدل ولى العهد وهو يشير إليهم قائلاً:

- إذن هيا معنا الآن أنت ورئيس الشرطة والقضاة.. وبعد أن ننتهى من سماع الوصيفة إنصرف لما أمرتك به.

****

كان سندى جالساً بركبتيه على الفراش المجاور لنسجيتا وهى نائمة على ظهرها كنصيحة من الأطباء بعدم الحركة بعد أن إصطدمت صدمة شديدة فى كوة كانت بارزة بالجدار.. كان سندى ممسكاً بيد الوصيفة وهو لا يزال على حبه القديم الذى كان يبدو واضحاً من عينيه فى هذه الساعة.

- نسجيتا حبيبتى ، أنتِ لا تعلمين كم أحبك ، فأنتِ حبى الأول والأخير ورفيقتى فى العالم الآخر، كم أنتِ شجاعة يا حبيبتى ، لقد عدتى إلىّ أخيراً، لقد عادت اليوم فقط حبيبتى القديمة ، حبيبتى التى أخذت من الشمس إشراقها ومن أرض طيبة قوتها ومن نيلنا المقدس عزته وشموخه ومن الآلهة حنانها ورحمتها ، لن أتركك أبداً يا

نسجيتا، ولن أسمح لكِ بالإبتعاد عنى مرة أخرى، فلقد ربطتنا الآلهة ببعضنا برباط أبدى لن يضعف أو ينزوى أبداً يا حبيبتى .

- لقد ظننت أنى قد نسيت حبك يا سندى، ولكنك أول من دلنى عليه قلبى حين كنت بحاجة لمن أثق به كنفسى ، لقد كنت دائماً موجود فى قلبى يا سندى ، ولكننى كنت أهرب بعيداً عن قلبى ، عن أكبر وأصدق حقيقة فى حياتى ، ولكنى لن أهرب مجدداً يا سندى ، فأنت المرفأ الذى سترسو عليه سفينة روحى بعد أن طال بها الضياع والتيه فى بحر الحياة القاسى .

فُتح الباب فجأة ودخل ولى العهد وبصحبته جت وأحد الحراس ومعه رجلان عجوزان عرفهما سندى على الفور، إذ كانا كبيرا القضاة (تى ساخمت) والآخر (ماعت رع)، ودخل من خلفهم رئيس شرطة القصر وحارسين .. فجلس سندى على ركبتيه إحتراماً للأمير ولى العهد الذى ربت على كتفيه مشجعاً وهو ينظر إلى نسجيتا:

- إننا لا ننسي أبداً أن لكما الفضل فى إنقاذ حياتى وإنقاذ حياة الملك، وسوف تُكافآن جيداً على ذلك، أخبرينى كيف حالك يا نسجيتا..؟
- أنا فى أفضل حال يا سيدى، مجرد آلام فى ظهرى وسوف أتحملها.
- والآن هل تستطيعين التحدث..؟
- بالطبع يا مولاى.
- إذن أخبرينا بكل ما عندك، فها هما كبيرى القضاة وهذا السيد رئيس شرطة القصر، فلا تخشي أى شئ وقُصي لنا كل ما لديك من معلومات .

أخذت نسجيتا نفساً طويلاً وبدأت فى الحديث بكل ما تعلمه من معلومات وأسماء كل من شارك فى هذه الخيانة.

****

الفصل الرابع

****

عهد الدم

****

كيف يستطيع أحد أن يخون ما ظل أجداده يحاربون من أجله، كيف تتحول أفكار الأجداد العظام إلى سلعة للبيع وللمساومة فى أيدى الأحفاد، هل يكون ذلك بسبب ضعف الإنتماء، أم تُرى هو جهل الأحفاد، أم أنها دورة التاريخ ووهم التطور التى جعلت الأفكار والقيم أرخص ما قد يملكه الإنسان، ليصبحوا ميراث مادى قابل للبيع والشراء بعد أن كان موروث روحى لا يُقدر بملئ الأرض ذهباً.

****

كانت السيارة تسير ببطء وهى تقطع الطريق الجبلى، فى طريقها إلى قصر رينيه ماسبيرو، بينما كان يوسف مأخوذاً بجمال الطبيعة من حوله، فسأل ألبير الذى كان بجواره وقد حرص على إستقباله بالمطار قائلاً وهو يشير إلى البحيرات من حوله أسفل الجبل..:

- هل قصر مسيو رينيه فى أعلى الجبل يا ألبير..؟، أعتقد أنه يُطلق على القرية كلها إسم هشتات..؟

ابتسم ألبير بود قائلاً وهو يصحح ليوسف :

- هالستات يا سيدى، وهى قرية تُعد من أجمل الأماكن على وجه الأرض، ويُطلق عليها أيضاً قرية "هالشتات" ، وهى قرية صغيرة جداً تقع على طريق برى مع مدينة سالزبورغ وغراتس، وتقع داخل القرية بحيرة هالستات الساحرة..

ثم أشار ألبير بيده إلى الجداول التى تنحدر لتصب فى البحيرة قائلاً:

- أنظر يا سيدى إلى تلك الجداول على يمينك وهى تصب فى تلك البحيرة.. هنا سوف ترى الجمال الخلاب وروعة المنظر، فلن تجد هذه اللوحة الإلهية إلا هنا فى هالستات.
- فعلاً يا ألبير، فالمنظر يفوق الخيال، فلماذا إذن ليست على الخريطة السياحية..؟
- اوووه.. من أخبرك بذلك يا سيدى..؟، لقد دخلت قرية هالستات وبحيرة هالستات موسوعة اليونسكو فى التاريخ والتراث، فهى مدينة قديمة جداً يعود تاريخها لعصور قبل الميلاد، أترى ذلك القصر القابع بعيداً وسط المياه يا سيدى..؟

إلتفت يوسف ليرى القصر الذى أشار إليه رينيه وقد إتسعت عيناه من روعة المنظر:

- ما أروعه، يبدو وكأنه إنبثق من وسط المياه.
- هو قصر مسيو رينيه..
- وهل البحيرة بذلك الإتساع.؟

- تبلغ مساحة بحيرة هالستات ثمانية ونصف كم مربع، ويمكنك التمتع بركوب القوارب والزوارق وكذلك التمتع برحلة صيد جميلة بها، كما يوجد بها أماكن سياحية مميزة تجذب السياح إليها من جميع أنحاء العالم.وبالطبع فى نهايه رحلتك بالنمسا سوف نأخذك فى زيارة لكل تلك المناطق يا سيدى.

أما هذه السلسلة من الجبال فتسمي "داتشستين" يا سيد يوسف تمتدُّ على مساحة ثمانية كيلومترات ونصف الكيلو متر، وعرضها يبلغ من كيلو متر إلى كيلو مترين، وتحيط بها منحدرات حجريَّة شجرية تضفي عليها طابعًا يشبه المضيق البحري، ومن القرى الجميلة التي تنتشر في ساحلها.. أوبرترون الأكثر شعبيَّة، بالإضافة إلى ستيج وهالشتات، مع صرحها الديني القديم. و...

قاطعه يوسف فى ضجر:

- حسناً حسناً يا ألبير، ولكن أخبرنى الآن كيف سنصل إلى القصر .؟

كانت السيارة قد وصلت إلى مرفأ خاص وأُغلقت البوابات الحديدية الإلكترونية بعد دخول السيارة، ليجدا زورق كبير خاص بنقلهم إلى داخل قصر رينيه، وما هى إلا عشرة دقائق حتى كان رينيه يستقبل يوسف داخل مكتبه الخاص.

توقف يوسف مشدوهاً وهو ينظر إلى عشرات الكتب التاريخية الموجودة بمكتب رينيه، وكذلك اللوحات الفنية التى حصل عليها من مكتب جده الراحل، والجوائز التقديرية وعشرات من البرديات المحفوظه داخل ألواح زجاجية، وكذلك آثار من حضارات أخرى، مما جعل مكتب الأخير يبدو وكأنه متحف مصغر... ولكن رينيه قد لمح ذلك البريق الموجود فى عيني يوسف فابتدره قائلاً:

- أتروق لك غرفة المكتب يا يوسف..؟

كان رينيه يداعب ابنته الصغري وتقبع بجواره كلبته الضخمه الذى نهضت فجأة لتهرب فزعاً وهى تعوى وكأنها رأت ما أرعبها بمجرد رؤيتها ليوسف مما آثار دهشة رينيه الذى أشار إلي يوسف قائلاً:

- هذه كلبتى الحمقاء مايتى، أما تلك الأميرة الحسناء فهى طفلتى المدللة مادلين..

إقتربت مادلين من يوسف وهى تُحيي ذلك الغريب القادم إلي أبيها، وهى تُحدثه باللغة الألمانية التى لا يفهمها ، فابتسم لها وحاول أن يداعبها هو الآخر، لكنها إنطلقت تعدو إلى الخارج فى مرح وكأنها تحثه على الهرولة من خلفها واللعب معها.. فتابعها يوسف حتى غابت عن نظره وهو يبتسم فإلتفت إلى رينيه مصافحاً إياه، وهو يبتسم فبادره قائلاً وهو يشير إلى اللوحات والجوائز التى تزين الجدران وكذلك بعض التماثيل النادرة :

- أخبرنى يا يوسف، هل تروق لك غرفة مكتبى المتواضعة..؟

تطلع إليه يوسف بإستنكار وكأنه لا يريد أن يُصدق أن الذى يقف أمامه هو حفيد ماسبيرو العظيم ، كيف يستطيع أحد أن يخون ما ظل أجداده يحاربون من أجله ، كيف تتحول أفكار الأجداد العظام إلى سلعة للبيع وللمساومة فى أيدى الأحفاد، هل يكون ذلك بسبب ضعف الإنتماء، أم تُرى هو جهل الأحفاد، أم أنها دورة التاريخ ووهم التطور التى جعلت الأفكار والقيم أرخص ما قد يملكه الإنسان، ليصبحوا ميراث مادى قابل للبيع والشراء بعد أن كان موروث روحى لا يُقدر بملئ الأرض ذهباً، ولكنه حاول تجاهل كل تلك الأفكار خاصة وأنه لا يختلف كثيراً عن رينيه، وهو يشير بيديه إلى مقتنيات رينيه التى إمتلأ بها المكتب ويهتف:

- أنت تمزح بالتأكيد يا رينيه..؟، فكل ما تعرضه فى مكتبك من لوحات وبعض البرديات النادرة، وكذلك آثار من مختلف الحضارات المندثرة وجوائز ماسبيرو العظيم وتلك الأقلام التاريخية، كل ذلك يجعل من تلك الغرفة أشبه بمتحف مصغر أكثر منها كغرفة مكتب.

لوح رينيه بيده بلا مبالاة :

- صدقنى يا يوسف، أنا لا يهمنى كل ذلك، كل ما يهمنى فقط هو المال، وما يشغل تفكيرى الآن هو البحث عن تلك البردية التى أخفاها جدى، ومحاولة الحصول عن طريقها على ثروة من المال، فمن خلال حاستى أشعر أن هناك لغز كبير وراء تلك البردية.
- معنى هذا أنه فى نيتك بيع تلك البردية إن وجدتها يا رينيه..؟

- ليس فى نيتى بيعها حتى الآن، ولكن إن وجدت المشتري الذى سيُقدر قيمتها فلن أتردد فى بيعها بالتأكيد، وبالمبلغ الذى أحدده أنا .

- حسناً.. حسناً..

ولكن رينيه إستدرك وهو يتساءل فى إهتمام:

- ولكن أخبرنى أولاً، ما سر إعجابك الشديد بالعجوز بهذا الشكل.. فكل ما أعلمه عن جدى الراحل أنه كان من كبار علماء الآثار فقط يا صديقي ..

تطلع إليه يوسف وهو يهتف بإستهجان:

- علماء الآثار..!!!، إن "ماسبيرو" هو اسم أهم عالم مصريات فرنسي أحب مصر وعشق ترابها، وقدم لها خدمات جليلة واكتشافات عظيمة سجلها له التاريخ، ويكفي أن اسمه قد أُطلق على مبنى التليفزيون المصري تكريماً له وتخليداً لذكراه .

رفع رينيه حاجبيه فى دهشة وهو يتمتم:

- لهذه الدرجة قدم لكم الكثير..؟

- الكثير فقط؟!!، بل الكثير والكثير.. أتعلم أنه قد أظهر اهتماماً خاصاً بالتاريخ عندما كان في المدرسة، وقد بدأ تعلم الهيروغليفية في عمر الرابعة عشر ليتقن بعدها العربية بطلاقة، علماً بأن جدك الراحل درس علم المصريات بمفرده، وذلك من خلال إطلاعه على الآثار المصرية المحفوظة في متحف اللوفر ونقوش المسلة المصرية بميدان "كونكورد" ، مما جعل اسمه يتردد في الأوساط العلمية.

- عظيم جداً، وهل سافر إلى بلادكم بعد ذلك..؟

- حظى "ماسبيرو" بإعجاب علماء الكوليدج دى فرانس، وفكروا في شغله لكرسي علم المصريات بها، ولكن لصغر سنه آنذاك قرروا منحه لقب أستاذ مساعد وقد كان ذلك لمدة يومين، شغل بعدها الكرسي عام 1874 ، ولم

يكن ماسبيرو قد زار مصر في ذلك الحين، إلى أن جاءته الفرصة عندما مرض "مارييت" مدير مصلحة الآثار المصرية التي قام بتأسيسها.

تململ رينيه فى ضجر، وهو يومئ برأسه ويشير بيده قائلاً:

- عظيم جداً يا يوسف، يبدو أنك تعرف الكثير عن جدى، والآن هل لنا أن نتناول الطعام..؟

إنعقد حاجبا يوسف فى إستنكار وهو يهتف:

- أى طعام ذلك الذى تتحدث عنه الآن يا رينيه..؟!، يبدو أنك لا تُقدر قيمة جدك الراحل ولا إنجازاته، ففي يناير 1881 كانت أول زيارة يقوم بها ماسبيرو إلى مصر بعد أن تم الإستعانة به لتولي منصب مدير مصلحة الآثار المصرية، وذلك عقب مرض معلمه عالم الآثار" مارييت" الذي كان يتولى إدارة المصلحة ، وقد إختار "ماسبيرو" العيش فوق عوامة علي حافة النيل، وقد أمضى فيها ماسبيرو كل فترة إقامته الأولى بمصر حتى عام 1892، وقد ساعد ماسبيرو إتقانه للغة العربية وقدرته على فك شفرات العديد من النصوص الهيروغليفية، في إكتشاف العديد من المومياوات، ليصبح من بعدها أول مدير للمتحف المصري .

أومأ رينيه برأسه فى لا مبالاة:

- نعم أعلم ذلك، وقد قرأت ذلك فى مذكراته..

إستدرك يوسف وكأنه لم يسمع رينيه:

- وهل تعلم يا رينيه أنه قد إكتشف أكثر من 4000 نص بالهيروغليفية، وقام بإعادة ترتيب المتحف المصري ببولاق في الجيزة، قبل انتقاله إلى موقعه الحالي في القاهرة، كما كان له دور بارز في اكتشاف خبيئة أثرية بمعابد الكرنك في الأقصر، كانت تحتوي على مجموعة هائلة لمومياوات الفراعنة في عام 1881، وقد تم العثور فيها على مومياوات كل من الفراعنة سقنن رع، وأحمس الأول، وتحتمس الثالث، وسيتي الأول، ورمسيس الثاني.

إقترب يوسف من المكتب وهو يجلس على أحد المقاعد المواجهة له ويردف فى سخرية:

- أتعلم أن جدك الراحل قام بنشاط كبير لمواجهة السرقات التي كانت تحدث للآثار المصرية القديمة، بل وقام بمساعدة العالم المصري أحمد كمال بك بنقل المئات من المومياوات والآثار المنهوبة إلى المتحف المصري

بالقاهرة، وإستطاع أن يسن قوانين تنص على أن لا يسمح للأشخاص بالتنقيب، وأن يقتصر التنقيب فقط على البعثات العلمية بعد الموافقة على مشروعها .

تمتم رينيه بسخرية:

- وها نحن نتحول إلى لصوص آثار..

شرد يوسف ليتمتم بصوت هادئ وكأنه يتحدث إلى نفسه:

- إن الأراضي فى مصر لازالت ممتلئة بآلاف وآلاف المقابر التى لم تُكتشف بعد، فلماذا لا نفيد بقية العالم فى مشاهدة آثارنا ودراستها بدلاً من دفنها فى متاحف لا يزورها أحد، أو تركها مدفونة فى الرمال، إن كل مهمتى فى الحياة أن أُنقب عن تلك المقابر وإهدائها إلى من يستحق..

لقد أعطيت بلدى العشرات حرفياً من المقابر الفرعونية، وقد كان نصيبي أن تم رفض قبولى فى منصب أستاذ بالجامعات المصرية دون إبداء الأسباب، على الرغم من تفوقى فى كلية الآثار، فاستمررت فى العمل كمنقب آثار، ونجحت بطريقة لن تتصورها، وبعد ذلك رحلت إلى من يُقدر موهبتى وها أنا ذا ...

إعتدل رينيه وقد إنتابه إهتمام مفاجئ وكأنه تذكر شيئاً هاماً وهو يهتف :

- ولكنك لم تخبرنى بعد ما علاقة جدى بالقضية G T تلك..؟

مال يوسف إلى الأمام ليواجه رينيه تماماً وهو يُخفض صوته قائلاً:

- حسناً يا رينيه، تشير الأرقام المذكورة فى أوراق جدك إلى موضوع "المومياء الصارخة".
- مومياء صارخة...!!!!
- أو بمعنى آخر الملعونة، والتى تم اكتشافها بمنطقة الدير البحرى عام 1886.. ضمن مجموعة كبيرة من المومياوات الملكية عن طريق جدك الراحل.. والمومياء الصارخة هى لشاب لم يتم معرفة هويته على شكل واضح بكامل بنيته الجسدية، ولم يكن مصاباً بأى إصابات على الإطلاق، ولكن تم تحنيطه ودفنه مقيد اليدين، بل

ولم يُتبع فى إجراءات دفنه مثلما كان يُتبع فى التاريخ المصرى القديم، فلم يتم استخراج أحشاءه من البطن ولا حتى محتويات جمجمته..

تمتم رينيه فى دهشة قائلاً:

- على الرغم من قدسية الأجساد عند الفراعنة وبذلهم لقصارى جهدهم حتى تكون سليمة فى رحلتها إلى العالم الآخر..

- تماماً يا رينيه.. فتلك المومياء يظهر على ملامح وجهها آلام وخوف شديدين، ويرجح يا رينيه أن صاحب المومياء مات مختنقًا، كما تلاحظ عند اكتشاف المومياء الصارخة أنها وضعت داخل تابوت خشبى غير مزين بزخارف أو مرصع بالأحجار، مثلما كان متبع فى تلك الفترة، كما لا يحمل التابوت اسم المدفون بداخله، بالإضافة للف المومياء فى جلد ماعز، وهو ما كان يعتبر عند المصريين القدماء نجس، لأن الماعز كان من أعداء "رع " إله الشمس..

أشار رينيه بيده متسائلاً:

- ولماذا كل هذا التحقير من شأنه..؟

- بالفعل وهذا هو ذات التساؤل الذى طرحه العديدين، فإذا كان الغرض من كل هذا هو التحقير من شأن هذه المومياء، فلماذا تم وضعها بجوار الملك رمسيس الثالث أعظم ملوك مصر..؟، كما تم وضع المومياء فى قماش من صوف النعاج، ووفقًا لطقوس الدفن القديمة فهم لم يعتادوا أن يستخدموا تلك النوعية، ولكن كان الغرض فيما يبدو هو الإمعان فى التحقير من شأن الميت.

- تُرى ما السبب الذى يكمن وراء ذلك..؟

تابع يوسف وكأنه لم يسمع رينيه:

- لقد تم الإحتفاظ بتلك المومياء فى المتحف المصري، ولكنى لم أكن سعيد الحظ لأنى كنت فى زيارة للمتحف، ولم أستطع الوصول إلى المخازن وقتها ومشاهدتها، فهى حتى الآن ممنوعة من الظهور للجمهور يا رينيه لهول مشهدها.
- حسناً يا يوسف.. أعتقد أن لدينا الكثير للتحدث سوياً بشأنه، ولكن الآن لابد أنك متعب من السفر، فلتحصل على قسط من الراحة وسنتحدث فى الغد، ألبير سوف يرشدك إلى غرفتك بعد تناولنا العشاء ..
- لكننا لم نتحدث عن العمل بعد يا رينيه..؟
- فى القريب يا صديقي.. فى القريب

نهض يوسف لينصرف بصحبة ألبير، ورينيه يشيعه ببصره، وقد شعر أن المرحلة القادمة ستكون مرحلة فارقة فى حياته..

وأن يوسف هو كلمة السر لتلك المرحلة....

****

بعد تناولهم العشاء قاما بتدخين بعضاً من سيجار رينيه الفاخر، وقضيا بقية الأمسية فى الحديث عن عمل يوسف، وأهم الإكتشافات التى قام بها، حيث ينحدر من عائلة كلها تعمل فى استخراج الآثار..

وحين اقترب موعد نومهم قام ألبير بإرشاده إلى غرفته، ليعود مرة أخرى إلي سيده الذى كان لا يزال فى غرفة مكتب جده، وهو ينفث دخان سيجاره الفاخر ويتطلع إلى السقف هامساً وكأنه يتحدث مع نفسه:

- أين أنتِ أيتها البردية الملعونة..؟، أين أخفيتها يا جدى بحق المسيح..؟

إقترب ألبير منه هامساً إليه وهو يربت على كتفه فى هدوء يطمئنه أن الأمر على ما يرام، وأن ضيفه بعد دقائق سيغط فى سبات عميق، ولكن رينيه ظل واجماً، فأردف ألبير بتوتر:

- ما بك يا مسيو رينيه..؟، أهناك ما يقلقك..؟

- لست أدرى يا ألبير، فهناك شيئاً ما لا أفهمه فى نظرات هذا الرجل، لا أعتقد أنه بالسهولة والسذاجة التى يحاول الظهور بها.

- نحن لسنا فى حاجة إليه يا سيدى.

أجابه رينيه وهو لا زال شارداً يتطلع إلى دخان سيجاره الذى ينفثه ببطء:

- بالعكس يا ألبير، فنحن نحتاج إليه فى أمر هام، فإن قام به على الوجه الأمثل فسوف أجنى من ورائه ثروة..

قالها ثم إعتدل فجأة وهو يلتفت إلى رينيه هاتفاً:

- ألبير.. أوفد أحد رجالك إلى مصر، أريد معرفة كل ما يتعلق بهذا المصري، ولا تدعه يغيب عن ناظريك دقيقة.

أومأ ألبير برأسه قائلاً:

- حسناً يا سيدى.. سأنفذ أوامرك بدقة.

أردف رينيه وهو ينهض من مقعده:

- والآن عليّ البحث عن تلك الكلبة الحمقاء، والتى أصابها الرعب بمجرد رؤيته..

****

كان يوسف فى تلك الأثناء يفتح الكمبيوتر الخاص به ليستعرض ملف البرديات المسمى GT ، وكيف تحكى عن قصة أول مؤامرة تُحاك ضد فرعون عن طريق حريم القصر وبعض خونة البلاط الملكى، كما جاء على لسان قائد الحرس الخاص بالملك رمسيس الرابع، والذى عاصر كل هذه الأحداث..

لكن الغريب أن برديات قائد الحرس يبدو وكأنها بترت فى نهايتها.. فربما اختفت أحد البرديات التى تفسر النهاية، ولم يُعلم لهم طريق أبداً، وها هو ماسبيرو يعترف أنه كان عليه إخفاء تلك البردية، والتى ستُحدث فارقاً فى التاريخ المصري.. فما هو ذلك الفارق الذى يجعل عالم آثار مثل ماسبيرو يقوم بإخفاء تلك البردية..؟

بل وأين أخفاها..؟، وهل ظهور تلك البردية إن حصل عليها سيكون سبباً فى فضح ما حاول العجوز إخفائه على مدار عشرات السنوات..؟

هكذا ظل يوسف يحدث نفسه حتى غلبه الفضول فقرر الإتصال بهم كعادته منذ نشأته.. فمنذ سريان العهد القديم عليه بعد وفاة والده الشيخ فاخر بعد أن قاموا ثلاثتهم بالعهد على السمع والطاعة.. هو يعلم أنهم لم يخذلوه قط، لكن فى كل مرة كان عليه أن يدفع الثمن أضعافاً مضاعفة..

قام يوسف ليُحكم غلق غرفته وقد وضع كرسي من خلف مقبض الباب حتى لا يستطيع أحد فتحه بشكل مفاجئ، ثم حاول إزاحة السجادة المفروشة حتى ظهر الرخام الأبيض من أسفلها، وقام إلى حقيبته ليُخرج منها كأساً ذهبياً منقوش بالهيروغليفية على جانبيه (طريق العهد)، فوضعه أمامه على المنضدة.. وأخرج علبة من خشب الصندل فتحها على خنجر آخر ذو مقبض ذهبي اللون وعليه نفس الكتابة الفرعونية.. ثم أخرج زجاجة تحتوي على سائل شفاف قوي الرائحة ليمسح به على حافة الخنجر، وكذلك مسح به ساعديه..

جلس يوسف على الأرض وخلع قفازيه الجلديين لتظهر من تحته يديه، وقد إمتلأت بعشرات الجراح على كفيه وراحة يديه.. وبالفعل أمسك بالخنجر وسار بحافته على راحة يده فبدأت فى النزيف.. فأمسك الكأس الذهبية واضعاً إياها تحت الجرح ليمتلئ بالدماء الساخنة حتى توقف حين وصل للمنتصف.. وعلى يده الأخري قام بنفس الفعلة حتى إمتلأ الكأس تماماً..

ثم سكب كمية من السائل على يديه وقبضهما حتى يتوقف النزيف، وقام برش رذاذ من دواء للجروح وبعد ذلك قام بلبس قفاز جلدى آخر..

وأمسك بفُرشة قديمة وبدأ فى رسم دائرة صغيرة بدمائه على الأرض يتفرع منها ستة أعمدة مستقيمة، ينتهى كل عمود بثلاثة أصغر منها متخذة شكل الشوكة وعلى رأس كل عمود بدأ يكتب الحروف التالية...

أ د و م ي ت

ومن بين الأعمدة بدأ فى رسم عين حورس ومفتاح الحياه بالتبادل، وعلى رأس كل رمز كلمة ج د ق..

وما إن إنتهى حتى بدأ في الترديد بصوت هامس بعد أن أغلق ضوء الغرفة وأشعل ستة شمعات على رأس الأعمدة :

- ادوميت.. ادوميت.. ياسكان الأرض استجيبوا بحق تلك الأقسام.. تشفيل تشفيل.. اديد.. يجوق.. هلخوا.. استجيبوا واحضروا واركعوا.. اركعوا يا سكان الأرض واستجيبوا بحق الأقسام المقدسة.. تشفيل.. تشفيل.. اديد.. يجوق.. هلخوا.. استجيبوا واحضروا لا ضارين ولا مضريين.

وبعد قول هذا القسم عدة مرات بدأت الأطياف فى الإقتراب منه، والإقتراب من الدائرة المرسومة على الأرض، وهم يلعقون الدماء ويلتفون حول بعضهم البعض..

كانوا أقرب إلى الأطفال الصغيرة، ولكن بوجوه سوداء بشعة.. لم يرتعب منهم يوسف فهو قام بهذا الطقس عشرات المرات كى يُحضر سيدهم ليدله على كل ما هو مطلوب منه، تذكر عشرات المقابر الفرعونية التى قام بفتحها بهذه الطريقة آخذاً العهد عن طريق والده الراحل..

إستمرت الأطياف فى الإلتفاف حوله، ولعق كل ما على الأرض من دماء، وما إن انتهوا حتى بدأوا فى التلاشي، ليظهر ادوميت أخيراً بهيئته النحيفة وطوله الذى يقترب من المتران والنصف طولاً..

وإنخرطا فى حديث مطول لم يقطعه إلا صرخات الكلبة التى كانت تختفي فى مكان ما، وكأنها كانت تشعر أن هذا الطابق من القصر قد إمتلأ بالجن بمجرد رؤية يوسف ..

****

فى صباح اليوم التالى كان يوسف يتناول طعام الإفطار وسط كاتى زوجة رينيه وابنته مادلين.. وهم يتبادلون الحديث بالإنجليزية، وظل يوسف يلهو مع تلك الطفلة الممتلئة الخدين ذواتى تلك الغمازات المحببة ومن فوق ذلك عيناها الزرقاوين الأخاذتين..

أما رينيه فقد كان يختلس النظر إلي يوسف، فقد كان يشعر أن هذا الأخير مُرهقاً وتعلو وجهه الصُفرة بدون سبب.. وبعد أن تناولا الطعام سارا قليلاً فى حديقة القصر وقد جلس يوسف على أقرب مقعد وثير بجوار حمام السباحة، ليقترب منه رينيه وهو يُقدم إليه نوعاً من السيجار الكوبي، فتناولها وأشعلها له رينيه.

نفث يوسف دخان سيجاره فى الهواء وهو يتطلع إلى الدخان المتصاعد منه وهو يدخل فى الموضوع مباشرة:

- البردية تنقسم إلى ثلاثة أجزاء يا رينيه، ولقد بعتها مع مقتنيات جدك الراحل..

فغر رينيه فاه فى ذهول وهو يهتف :

- ماذا تقول...؟، أنا لا أفهم شيئاً..؟

أكمل يوسف فى هدوء وكأنه لم يسمع رينيه:

- وتقع فى الغلاف الخارجى فى كتاب مسمي موسوعة الخطط المقريزية..

هتف رينيه فى غضب وهو يشير بيديه:

- اللعنة أنا لا أفهم شيئاً.. الخطط المقريزية..؟، ماذا تقصد بحق الشيطان..؟

إعتدل يوسف وهو يواجه رينيه محاولاً أن يشرح له قائلاً:

- من ضمن مقتنيات جدك الراحل مكتبته، والتى احتوت على آلاف الكتب، والتى قمت ببيعها بالطبع، ولم يكن هناك لدى الراحل أثمن أو أغلى من مكتبته.. ووسط هذه الكتب تقبع موسوعة تسمي "المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار"، وهى موسوعة تاريخية لتقى الدين المقريزى، وتُعرف اختصاراً بالخطط المقريزية، وهو من أهم الكتب فى تاريخ مصر وجغرافيتها وطبوغرافيتها وعاصمتها فى العصر الإسلامى، وبالطبع من يهتم بتلك الموسوعات أكثر من جدك..؟ فقد قدمت تلك الموسوعة عرضاً شاملاً لتاريخ مصر الإسلامية، ولتأسيس ونمو عواصم مصر منذ الفتح الإسلامى حتى القرن التاسع الهجرى/ الخامس عشر الميلادى، ويوفر الكتاب قائمة تفصيلية وأوصافاً

دقيقة بالقصور والجوامع والمدارس والخوانق والحارات والأخطاط والدور والحمامات والقياسر والخانات والأسواق والوكالات التى وجدت فى عاصمة مصر خلال تسعة قرون.

هز رينيه رأسه وهو لا يكاد يفهم ما يقوله يوسف، مما جعله يهتف فى عصبية:

- اللعنة... وكيف عرفت كل هذه المعلومات وأنت لم تغادر غرفتك.. لقد بحثت عشرات المرات وسط آلاف الكتب، وراجعتها جميعاً ، وقد إستغرقنى ذلك أربعة عشر شهراً، أعتقد أن معلوماتك تلك هى محض تخمين يا يوسف.

تراجع يوسف فى مقعده وهو يهز كتفيه فى هدوء:

- الأمر بغاية البساطة.. تستطيع الإتصال بمن إشترى مكتبة والدك، ولتسأله عن تلك الموسوعة.

زفر رينيه في عصبية متمتماً:

- الأمر ليس بتلك السهولة التى تتصورها.. بغض النظر عن أنك أثرت دهشتى بما أخبرتنى به، بل وأصبحت أيضاً موضع شك بالنسبة لى، ربما لأكثر مما تتصور بسبب حديثك هذا .. ولكن أخبرنى أولاً كيف عرفت كل هذا بالله عليك..؟

- تلك شئونى الخاصة يا رينيه، أنت طلبت منى أن أدلك على مكان البردية، وها أنا ذا قد دللتك عليه، والأمر يعود لك الآن.

- وهل تظن أنى سأتركك بعد ذلك..؟، إن كنت قد فكرت فى ذلك فأنت مخطئ يا يوسف، لو أن البردية كانت فى تلك الموسوعة بالفعل كما قلت فسنسير فى طريق الحصول عليها سوياً..لنرى إلى أين ستقودنا سويا.. فلا أحد يعلم أهميتها أو ما ورائها أكثر منك..

- الأمر غاية فى الخطورة يا ريينيه، ويحب علىّ تحذيريك قبل أن نشرع فى أى شئ.

- لا أهتم بخطورة الموقف، كل ما أريده هو الحصول عليها والنظر فيما تحتويه، وإلى أين ستقودنا..

تطلع يوسف من حوله وهو يدرك تماماً أن الكشف عن تلك البردية سيجر عليه ما لا يُحمد عقباه، ولكنه دافع الفضول لديه والرغبة فى معرفة ما هو سر ماسبيرو المفقود، والذى كان على وشك أن يُغير الكثير من المفاهيم فى الحضارة القديمة.. كل ما أخبره به ادوميت أن البرديات المطلوبة تقبع فى تلك المكتبة القديمة الموجودة فى قصر ماسبيرو.. لكنه بالطبع لا يستطيع إحضارها له بأى شكل، فمهمته تقتصر دوماً على دله على أماكن المقابر الملكية والكنوز المدفونة دوماً

تحت الأرض.. ذلك الجن الذى أصبح معه منذ أن كان طفلاً بعد أن قطع الشيخ فاخر يدي ابنه أمامه ليثبت له أن نسله أيضاً على العهد..

عهد الزهراويين..

أفاق من شروده على صوت رينيه قائلاً:

- أين شردت..؟، فلتفكر معى قليلاً، كيف يمكن الحصول على تلك الموسوعة دون أن يشك مسيو جان مشترى القصر..؟
- لا أدرى، أنت أعلم بشخصيته، فتلك الموسوعة على أربعة أجزاء من الحجم الكبير..

تمتم رينيه وكأنه يُحدث نفسه:

- حتى ولو طلبت منه مجموعة من الكتب، ربما سيرتاب فى الأمر وسيدرك حتماً أننى لن أطلب منه تلك الكتب إلا لأمر هام.

مال يوسف على رينيه وهو ينظر إلى عينيه مباشرة ويتمتم بلهجة ذات مغزى:

- إذن نسرقها..!!!

هتف رينيه وكأن قول يوسف قد صدمه:

- مستحيل بالطبع..، كيف يمكن الدخول والخروج و......

قطع كلامه فجأة ليصمت برهة وهو يتطلع إلى يوسف الذى ظل صامتاً إلى أن بادره قائلاً:

- لا تنس أنك صاحب القصر الفعلى، وصمتك هذا يعنى أنك تعلم أن هناك طريقة ما تُمكّننا من الدخول إلى القصر وإسترجاع تلك الموسوعة والخروج فى أمان.

تنحنح رينيه وهو يقول فى تردد بصوت يكاد لا يُسمع:

- فى القصر المجاور لقصر جدى هناك قصر مغلق دائماً، هجره أصحابه منذ عدة سنوات، إن مكثنا ليلة فى هذا القصر ثم عن طريق السور القصير الفاصل بين القصرين نكون فى الحديقة الخلفية، وعن طريق نافذة المطبخ العتيقة نستطيع الدخول إلى البهو الدخلى فى غضون دقائق.. لكن.....

هتف به يوسف وهو يستحثه على الكلام:

- لكن ماذا....؟
- نحن لسنا لصوص، وقد نُخطئ فى شئ ما، ونتسبب فى فضيحة إن علم جان بالأمر، بالإضافة أنه ربما كانت هناك كاميرات مراقبة أو ما شابه ذلك.
- لديك الحق فى ذلك، فلا نعلم إن كان هناك فعلاً كاميرات أم لا.. ولكن لدىّ حل آخر.. لما لا نذهب إلى داخل القصر سوياً بأى حجة لإستكشاف الأمر.
- حسناً.. تلك مُهمة سهلة، فمن السهل أن أجد المبرر الذى سندخل به قصر جدى ..

قالها واستند برأسه على حافة مقعده الوثير المطل على حمام السباحة، وظل يفكر مبتسماً وهو يتطلع إلى مادلين التى تلهو فى المياه...

ثم أشار إلى ألبير الذى إقترب مسرعاً فبادره قائلاً:

- ألبير، احجز لنا على إير فرانس فى مساء الغد وقم بالإتصال بمسيو جان لتطلب منه أن يحدد لنا موعداً لمقابلته بشأن أمر يتعلق بميراث جدى الراحل..
- حسناً يا سيدى.. لقد حضر فرانسوا من.....

أشار إليه رينيه بيده ليصمت، دون أن يلاحظ يوسف الذى كان مغمضاً لعينيه وقتها، فقام من جواره بهدوء وهو يشير إلى ألبير الذى سار بجواره ، فأشار إليه بيده ليُكمل :

- لا أحد يعلم عن الرجل معلومات كثيرة، مجرد أنه ينحدر من أسرة عريقة من صعيد مصر، ورث مهنة الكشف عن المقابر أباً عن جد، وكثير من المقابر فُتحت على يد والده وجده، وقد سار على نهجهم يوسف، الذى يحكى عنه أهل بلدته الكثير من الأشياء الغريبة.

إنعقد حاجبا رينيه وقد أصابه الفضول، مما جعله يهتف بصوت خفيض حتى لا يسمعه يوسف:

- أشياء غريبة مثل ماذا..؟

تردد ألبير وهو يتمتم:

- عن.. عن.. عن إتصاله بالجان يا سيدى..؟

أشار إليه رينيه بلا مبالاة وهو يبتسم فى سخرية قائلاً:

- لا أؤمن بتلك الخزعبلات الشرق أوسطية.. ولكن أكمل...

- علمنا أنه بمجرد حصوله على دراسته فشل فى التعيين بالجامعة، فبدأ بالعمل الحر فى مصلحة الآثار كباحث فى الآثار، وعلى يديه بالفعل تم اكتشاف العديد والعديد من المقابر والتى حصلت فيها الحكومة المصرية على كافة مقتنياتها وإستفادت من إكتشافاته.. وبعد فترة سافر إلى بريطانيا ليستكمل دراسته الجامعية، هذا ما يعلمه الجميع، أما فى السر فالرجل من أهم مُهربى الآثار إلى الخارج، وقد نقل العديد من التماثيل والتحف النادرة إلى قصور أوروبا دون أن يشك به أحد أو يرتكب أدنى خطأ، وعن طريق ذلك كوّن ثروة طائلة.. فالرجل يملك قصر منيف فى منطقة النوبة بمصر، مُحاط بحراسة مشددة من أهل القرية الذين يعتبرونه القديس الخاص بهم، وداخل تلك القلعة الحصينة تتم أغلب صفقاته بعيداً عن عيون الشرطة..

إبتسم رينيه إبتسامة ظفر وهو يردد:

- ممتاز..ممتاز..

- هل هناك ما يسوء يا سيدى..؟

- ألبير..

- نعم يا سيدى..؟

- إبحث لى عن مايتى تلك الكلبة اللعينة، واحضرها إلى هنا، وإلا أقسم أن أقتلها بيدى..

تطلع إليه ألبير فى دهشة دون أن يفهم شيئاً من أمر سيده، الذى تركه ليعود مرة أخرى ويجلس بجوار يوسف، الذى كان وقتها يشعر بصداع شديد ينتابه بعد كل محاولة للإتصال بالجن، ولكنه حاول التغلب على ذلك الصداع وهو يلتفت إلى رينيه ليسأله:

- ما الذى خططت له يا رينيه..؟

إبتسم رينيه فى وجه يوسف قائلاً :

- وكأنك تقرأ أفكارى يا يوسف.. إسمعنى جيداً، فأنت ستقوم بأداء دور مذيع يود إجراء لقاء معى بداخل غرفة مكتب جدى الراحل جاستين ماسبيرو، وسيكون معك طقم عمل كامل بالفعل.

إنعقد حاجبا يوسف وهو يسأله فى شك:

- وهل سيوافق جان على ذلك..؟

- إترك هذا الأمر لي ..

قالها وهو يتراجع ليستلقى على مقعده الوثير ويُغمض عينيه وعلى وجهه إرتسمت إبتسامة غامضة...

****

بعد يومين كان هناك عربة كبيرة تقل خمسة رجال من حرس رينيه ومنهم يوسف وهم يحملون أجهزة تصوير سينمائي، متوجهين إلى قصر جاستون ماسبيرو القديم، والذى يقع فى أحد ضواحى العاصمة الفرنسية..

بينما كان رينيه ماسبيرو فى هذه الأثناء يجلس مع مسيو جان مالك القصر الجديد، فقد أخبرهم أنه سيكون فى انتظارهم حتى لا يشك جان فى الأمر.

ظل رينيه يتحدث مع جان حول أهم نجاحات رينيه فى تهريب الآثار، وقد وعد جان بإهدائه هدية قيمة بمناسبة حصوله على ذلك القصر العتيق..

كانا يسيران فى طريقهم إلى المكتبة عندما أخبرهم خادم جان بوصول السيارة التى تحمل طاقم التصوير، لم تمر نصف ساعة حتى كان طاقم التصوير قد انتهى من تركيب الإضاءة والكاميرات فى غرفة المكتب.. وبمجرد دخول يوسف إلى الغرفة فغر فاه على اتساعه.. فقد كان يشعر فى هذه اللحظة أنه بالفعل فى حضرة ماسبيرو العظيم، إذ كان هناك مكتبة ماسبيرو الخاصة.. ومكتبه الخشبي وأقلامه ومصباحه الأثري وحتى جرامافونه الذى كان يقبع خلف المكتب..

ظل يوسف يدور وينظر إلى كل تلك الأشياء فى إنبهار، بينما كان جان ورينيه ينظران إليه فى دهشة، مما جعله يردف قائلاً:

- لا تندهشا يا أصدقائي، إن جاستن ماسبيرو واحداً من أهم علماء الآثار..

لم يكتفى يوسف بذلك وإنما بدأ فى ترديد نفس إنجازات ماسبيرو على مسامع جان وهو يقترب من المكتبة، فى الوقت التى بدأت فيه عينيه تبحثان عن الموسوعة المطلوبة، حتى وقعت عيناه أخيراً عليها فمد يده بتلقائية ليلمسها قائلاً :

- وهنا أيها السادة تقع أهم مكتبات القرن العشرين التاريخية، فهنا نجد أمهات الكتب مثل تلك الموسوعة مثلاً..

قاطعه جان قائلاً بفظاظة مصطنعة :

- مسيو يوسف.. إن لدىّ مواعيد هامة، فهل لكم أن تنهوا الأمر سريعاً.. سأنتظر فى الخارج لأفسح لكم المجال..و......

اقترب منه الشخص الذى تظاهر بأنه المخرج قائلاً بأدب على حسب الإتفاق مع يوسف ورينيه:

- مسيو جان.. الأجهزة تجد تشويشا فى إلتقاط الصورة، هل لديك أية كاميرات فى القصر..؟
- نعم.. خارج القصر كما كانت فى السابق، والحكومه الفرنسيه هى من قامت بتركيبها، فأنا لست مهتماً بتلك التكنولوجيا..

قالها جان وهو يهم بالإنصراف قائلاً لرينيه:

- حسناً يا رينيه، سأترككم الآن، ومن فضلك إنهِ الأمر سريعاً....

ووفقاً للإتفاق جلس رينيه أمام يوسف ليمثلا دوريهما وكأنهما فى تصوير أحد اللقاءات التليفزيونية بالفعل، وإن كان يوسف هو من يتحدث أكثر، فقد تحدث كعادته عن أهم الإكتشافات التى قام بها ماسبيرو، ثم تطرق الأمر للحديث عن المومياء الصارخة أو الأمير الملعون، لكن فى هذه الأثناء كان الرجال من خلف الكاميرات يأخذون الموسوعة التى أمسك بها يوسف، فقد قام بلمس الأربع كتب بمادة فوسفورية بعد أن غمس أصابعه بداخل القفاز الجلدى بها، والتى لا تظهر للعين المجردة بل بنظارة خاصة..

فقام الرجال بأخذ الأربع كتب التى قصدها يوسف تماماً ووضعوا مكانهم أربعة كتب أخرى كما هو متفق، والتى قاموا بإخراجها من أحد حقائب المعدات، وبعد دقائق إنتهى الحوار، وقام يوسف محيياً رينيه وقد بدأ فى إزالة الميكروفونات، وحرص على النظر بداخل الحقيبة للتأكد أنها الكتب المطلوبة، بينما اقترب منه رينيه متسائلاً:

- لا أتصور أن الأمر بهذه البساطة، فلتنظر إلى الكتب جيداً ربما ليست هى..؟
- لا تقلق يا رينيه، أنا على تمام الثقة أنها هى .
- فلنلقى عليها نظرة الآن إذن ..
- بالله عليك، كيف سنخرجها من الحقيبة و....

فى هذه اللحظة اقتحم أحد الخدم الغرفة بعد أن قام بفتح الباب قائلاً بأدب :

- هل إنتهيتم يا مسيو رينيه..؟، إن مسيو جان فى انتظاركم..

نظر يوسف إلى رينيه وهو يتناول الحقائب قائلاً:

- حسناً.. أخبر مسيو جان أننا فى الطريق إليه، ولكن على فريق التصوير نقل معدات التصوير الخاصة بهم إلى الخارج..

أشار يوسف إلى الرجال للبدء فى نقل الأمتعة والأجهزة إلى الخارج.. لكن فوجئ بفيردي سكرتير جان وهو يهرع إلى غرفة المكتب وهو يهتف:

- مسيو جان ..مسيو جان.. إن الشرطة الفرنسية فى طريقها إلى هنا..

ذُهل الجميع وتجمدوا فى أماكنهم، ولم يسعف أحد منهم الوقت ليتحرك من مكانه، فقد اقتحم خمسة من رجال الشرطة الفرنسية ومعهم أربعة أشخاص يرتدون بدلات سوداء، بينما تقدم كبيرهم من صاحب القصر قائلاً:

- مسيو جان.. أنا جاك من الشرطة الفرنسية، وهؤلاء الرجال من سكوتلانديارد.. ويؤسفنا أن نُخبرك بأن لدينا مذكرة بتفتيش المكان لوجود شك أن.....

قاطعه جان وهو يهتف فى إستنكار:

- تفتيش المكان..؟!!، وهل تظن أن هناك ما يستدعى ذلك يا مسيو جاك..
- ربما الأمر يتعلق بوجود مسيو رينيه تاجر الآثار المعروف والبروفيسور يوسف عالم الآثار المصري، بالاضافة إلى رجل فى سُمعتك فى تجارة الأسلحة، ألا تظن أن إجتماعاً كهذا قد يكون مثيراً للشك..
- حاذر من ألفاظك يا مسيو جاك.. فأنت تتحدث مع شخصيات مرموقة ورجال شرفاء، كل ما هنالك أنه كان هناك تصوير في مكتب الراحل ماسبيرو، ومسيو رينيه حفيده كما تعلم .
- سنرى يا سيدى ..

وأشار إلى رجاله بالبدء فى تفتيش المكان، وطلب من الرجال الموجودين فتح حقائبهم.. وقتها تطلع يوسف إلى رينيه وكأنه يحذره مما سيحدث لو تم فتح الحقيبة وتفتيشها ، والذى سيكون سبباً فى فشل العملية والصفقة كلها خلال الدقائق

القادمة.. توتر رينيه وهو يشعر أن الصفقة كلها على وشك الفشل لو لم يتصرف سريعاً، فبدأ فى إظهار التململ قائلاً بغضب لمفتش الشرطة الفرنسية:

- أنا مواطن نمساوى ولا يحق لك إحتجازى أو مجرد الإشتباه فىّ.. وقبل الشروع فى أى شئ عليكم الإتصال بالقنصل الخاص بي..
- مهلاً يا سيدى.. إنها مجرد شكوك، لما تشعر أن الأمر سيصل إلى مرحلة الإحتجاز، أما حقوقك كمواطن نمساوى فلها كافة الإحترام بالطبع، وسنراعيها فى كل خطواتنا ..

ثم إقترب من يوسف وهو ينظر إليه بشك قائلاً:

- وأنت يا مسيو يوسف، هل تتكرم وتفتح حقيبتك..؟

تظاهر يوسف فى التظاهر بالغضب هو الآخر قائلاً:

- إحذر يا مسيو جاك فأنا مواطن مصري، ولدىّ حقوق أيضاً، وأى إجراء ضدي يجب إبلاغ القنصلية فوراً قبل إتخاذه.

تراجع جاك للحظة واحدة فشعر يوسف بالإرتياح ظناً منه أنه قد نجح فى إخافته كما فعل رينيه، لكنه وجد الأخير وقد أخرج القيد الحديدى من يده وهو يقترب من يوسف ويصرخ قائلاً:

- هل ستفتح حقيبتك بهدوء أم أقيدك ونفتحها سوياً فى مركز الشرطة..؟

نظر يوسف إلى رينيه نظرة ذات معنى داعياً الله أن يكون قد فهم ما يقصده، وبالفعل شعر أن رسالته قد وصلت، فجثا يوسف على ركبتيه متظاهراً بفتح الحقيبة، بينما وقف رينيه وسط يوسف ومسيو جان متظاهراً بالحديث الغاضب مع جاك، بينما فتح يوسف الحقيبة أمام جاك الذى بدأ يفتش فيها فلم يجد إلا عدة ميكروفونات وأربعة كتب.. فأشار له بإغلاقها وتوجه إلى بقية الحقائب ليفتحها بدوره والتى لم يجد فيها إلا معدات تصوير.. وقتها أتى إليه رجاله ليخبروه أنهم لم يجدوا شيئاً مُريباً بداخل القصر أو حتى ما يثير الشك كما ظنوا.

إعتذر جاك لمسيو جان مالك القصر، وقبل أن يخرج نظر بغضب دون سبب إلى يوسف الذى كان يحمد الله كثيراً فى سره لخروجهم من ذلك المأزق الصعب..

****

بعد ذلك تقابل ويوسف ورينيه فى غرفة الأخير بفندق بلازا اثينى، والموجود فى شارع الشانزليزيه والمُطل على برج إيفل.. وقد أخرج يوسف بعناية الثلاثة برديات التى كانت قابعة فى أغلفة ثلاثة كتب من الموسوعة.. كانوا مطويين بعناية فى غلاف الموسوعة، وللأسف فإن طول الزمن لعشرات وعشرات السنوات أدى إلى التصاق البرديات بسبب طيهم، ولذلك يلزم فك ذلك الإلتصاق بعناية شديدة وإلا تمزقت البرديات وضاعت معالمها ومعها السر المفقود، مما جعل رينيه يتطلع بخيبة إلى يوسف قائلاً:

- أبعد كل ذلك نعود إلى نقطة الصفر مرة أخرى..؟
- لابد أن هناك حلاً يا رينيه، فلتهدأ وتجعلنى أفكر جيداً.
- هل تعلم أياً من أصدقائك يستطيع فك ذلك الالتصاق الغبي..؟
- وهل تظن أنى لو أعرف أحداً سأذهب إليه بتلك البرديات قبل أن أعرف محتواها..؟
- وما الحل إذن..؟

زفر يوسف فى نفاذ صبر قائلاً:

- رينيه، هل لك أن تتركنى أفكر، ولا تقلق فسأصل إلى حل قبل السفر، فلتهدأ الآن ولتذهب إلى غرفتك بالله عليك..

نظر إليه رينيه بشك، وهو متردد فى ترك تلك البرديات مع يوسف، فهو لا يعلم أيتركه مع تلك البرديات التى أصبحت لا قيمة لها مُعرضاً إياها للسرقة، أم يظل معه ليرى ما الذى سيفعله ويثق به لنهاية المطاف.. وبالفعل أخذ قراره، فتركه ليذهب إلى غرفة ألبير المجاورة ويوقظه من النوم غاضباً:

- ألبير، استيقظ واسمعنى جيداً، لا تدع يوسف يغيب عن ناظريك دقيقة واحدة، وأبلغ الرجال بذلك، فهناك أمراً ما يقضيه لى وأخاف من هروبه بما حصلنا عليه من برديات.
- أهناك ما يسوء يا سيدى..؟
- لعنة الله عليك يا ألبير، أبعد كل أمر أخبرك به تسألنى ذلك السؤال الغبي..؟، تباً لك أنت الآخر.. أنصت إلى حديثى ولا تجعلنى أسمع تلك الترهات مرة أخرى.. إذهب وأخبر الجميع..

خرج ألبير ليفعل ما أمره به رينيه وهو مندهش من حالته العدوانية تلك، وليخبر رجاله بمراقبة يوسف طيلة الوقت وألا يجعلوه يغيب عن ناظرهم.. بينما كان يوسف فى الأعلى جالسًا على مقعده وأمامه ثلاثة برديات مطويات بعناية فائقة..

ففتح حقيبته وتناول شفرة حادة وبدأ فى إدخالها بين كل طويتين، كان عليه أن يتحرك بحذر بأقل من المليمتر كل مرة، وهذا يعنى أنه سيظل طوال الليل يفعل ذلك لينجح فى فتح البردية أو يفقدها بقطعها إلى الأبد...

وبعد سبع ساعات كاملة وبمزيد من الجهد المُضني وقطع البرديات ولصقها وقطعها ولصقها كانت الثلاث برديات بجوار بعضهم على المنضدة الزجاجية وقد بدأ يوسف فى قرائتها..

لكنه بعد أن انتهى من ترجمتها وقرائتها فغر فاه، فلم يستطع تصديق ما هو مكتوب بها.. وقتها فقط علم لماذا أصر ماسبيرو على إخفاء تلك البردية للأبد..

كانت البردية مقسمة إلى ثلاثة أجزاء، وكلما قرأ جزء كانت دهشته تزداد..

أسقط الأمر فى يديه.. ماذا يفعل..؟، فقرأ البردية مرة أخرى وهو غير مصدق لما كتبه جت منذ آلاف السنوات..

وقد ذيلها بعدة أسطر قلبت عقله رأساً على عقب.

****

الفصل الخامس

****

المحاكمة

****

" لا ينبغي محاباة الأمراء والموظفين ولا ينبغي إستبعاد كائن من كان..

عندما يأتي شاكي من مصر العليا أو السفلى من واجبك العمل على أن يتم كل شيء طبقاً للقانون..

وأن يحصل كل على حقه..

إن ما يحبه الإله هو أن يتحقق العدل..

وإن ما يمقته الإله هو أن يحابى طرف على الطرف الآخر..

أنظر إلى من لاتعرفه كما تنظر إلى من تعرفه..

ولا ترد شاكياً قبل أن تستمع إلى قوله..

ولا تستشط غضباً ضد إنسان بلا مبرر "

(من وصايا تحتمس الثالث إلى رخ ما رع بمناسبة تعيينه كبير القضاة)

بعد ثلاثة أيام من أحداث تلك المؤامرة، إنتهى جت من الإشراف على تحنيط المبعوثين وتجهيزهم للدفن فى مقبرة تليق بهم وبالخدمات التى قدموها للبلاد.. حاول جت معاملة جثامينهم بإضفاء جميع مظاهر التكريم، بعد أن أخبره ولى العهد بكل ما يتعلق بهم وبطبيعة مهمتهم ومن هم.. وبعد أن إنتهى من المراسم كان عليه أن يخبر ولى العهد بإتمامها والشروع فوراً فى دفنهم، وما إن وصل الى قصر الملك ودخل على ولى العهد الذى كان يباشر أمور البلاد فى ظل غيبة والده، حتى وجده مهموماً على غير عادته التى إعتاد عليها، فبادره قائلاً:

- ما بك يا مولاى الأمير، أهناك ما يسوء...؟

تنهد ولى العهد وكأنما يحمل فوق صدره جبال من الهموم التى لا طاقة لبشر بها وهو يقول:

- وهل هناك أسوأ مما نحن فيه يا جت..؟ إن الأطباء يعجزون عن إيقاف النزيف المستمر فى جرح الملك، فما إن ينجحوا لفترة وجيزة فى غلق الجرح ويتوقف النزيف لنتنفس الصعداء، حتى يعاوده مرة أخرى بمجرد خروجهم من الغرفة الملكية.. فهم عاجزون تماماً عن فعل أى شئ.. هذا بالإضافة إلى حالة الملك النفسية السيئة بعد محاولة قتله من ولده وأقرب الناس إليه، أتراه كان سيحتمل ذلك حتى ولو كان سليماً معافى..؟!!، أتراه سيحتمل وهو فى مثل هذه السن خيانة كبار رجال بلاطه الملكي وخلصائه على مدار سنوات وسنوات.. إن الخيانة سهم قاتل لا يُخطئ أبداً ، حتى ولو لم تقتل الجسد فإنها تقتل الروح وتمزق القلب بلا رحمة، ليبقى أسير لذكريات مؤلمة لن تُطلق سراحه حتى يوارى الجسد، فإن جاءت من الأقربين كان الموت أكثر رحمة منها يا جت، الخيانة لا تؤلم الخائن يا جت بقدر ما تقتل الضحية ، هى كالعاصفة التى قد تهدم الجبل العالى فى بنيانه، فما بالك بشيخ عجوز..؟

فى هذه الأثناء إقترب أحد الحراس من ولى العهد هامساً فى أذنه بهمسات وقف من بعدها ولى العهد وأشار إلى أحد الحراس قائلاً:

- أسرع الى بيت القضاة، وأحضر لى كبير القضاة (تى ساخمت) فوراً، وأرسل من يحضر لى كبير الكهنة (خايتى) أيضاً فى الحال.

خرج الحارس مسرعاً فى طريقه لتنفيذ أوامر الأمير ، بينما توتر جت مما حدث فجأة، مما جعله يهتف متوتراً :

- هل وقع شئ جديد يا مولاى...؟
- لا أعلم يا جت، فجلالة الملك يريد أن يرانى أنا وكبير القضاة وكبير الكهنة الجديد والوزير الأول.

تطلع إليه جت فى دهشة قائلاً:

- وهل تم تعيين وزير أول يا سيدى..؟
- لا، ولكن مولانا الملك لم يعلم حتى الآن أن وزيره الأول وصديق عمره حور من المشاركين فى المؤامرة التى دُبرت ضده، ولا أريد إن أُثقل قلبه بكل هذا الحمل يا جت، يكفيه ما علمه حتى الآن، فالملك حالته الصحية تتدهور بسرعة وكلنا عاجزون، لقد أخبرته فقط أنه مصاب وسوف يتعافى.
- لا تقلق يا مولاى، فقبل انتهائنا من تحنيط المبعوثين فى المعبد كنت فى زيارة لكبير الكهنة الجديد خايتى وقد أخبرنى أنه هو والكهنة جميعاً يتضرعون يومياً لآمون من أجل إنقاذ الملك.
- بمناسبة المبعوثين، هل أنهيت ما أمرتك به..؟
- بالطبع يا مولاي، لقد قمت بذلك على أفضل ما يكون، فقد تم تحنيطهم بطريقة ملكية تماماً، وتم التأكيد على عمال المقابر بإنهاء المقبرة الملكية قبل مغيب شمس اليوم فى مكان لا يعلمه سواى وهم، وأنا أضمن صمتهم وولائهم تماماً يا مولاى.. لكن لدى سؤال إن كنت تأذن لى به..

أشار إليه الأمير قائلاً:

- فلتسأل عن ما شئت يا جت، فلن أُخفى عنك شيئاً.
- لماذا لم نرسلهم إلى موطنهم يا مولاى للدفن هناك..؟
- لا يا جت فالسفر إلى موطنهم سيتطلب وقت طويل، وأنا أريد تكريمهم هنا، فأنت تعلم أنهم قد قدموا خدمات جليلة للبلاد، وأقل ما يستحقوه نظير ما قدموه لنا من خدمات هو دفنهم فى الأرض التى طالما أحبوها وخدموها بإخلاص.

- وهل سنخبر قومهم..؟

- لن نرسل رسول لهم الآن.. ليس هذا وقته أبداً..؟، ولا أريد من قومهم أن يفهموا الأمر بشكل خاطئ، فما حدث كان بشعاً يا جت.

أومأ جت برأسه موافقاً وهو يتمتم :

- معك حق يا مولاى الأمير.

إستدرك الأمير قائلاً بإهتمام:

- هناك أمراً آخر عليك إتمامه.. فلتقم بدفن جميع ما كان معهم من متعلقاتهم وأدواتهم وكذلك الجلود التى كانت معهم والمدونة بلغتهم، ولتعلم أن ما أخبرتك به يجب أن يظل سراً يا جت، لا أحد الآن يعلم أى شئ عنهم وعن حقيقتهم، ولن يعلم أحد بشئ أبداً حتى الكهنة، سيظلون بالنسبة للجميع الأغراب الذين لا يعلم أحد من أين أتوا..؟، ولماذا..؟، وماذا فعلوا..؟، وما هو مصيرهم..؟

تمتم جت فى تساؤل :

- ولما يا مولاى..؟

- مما أدركته بعد تلك المؤامرة أن كهنة آمون يحملون فى قلوبهم العداوة والبغضاء لهؤلاء المبعوثين بصفة عامة، فهم يتوهمون أنهم لم يأتوا إلى طيبة من أجل التعمير ونقل علومهم وخبراتهم، وإنما من أجل هدم عبادة آمون وزحزحة ثقة الناس بالإله آمون وبكهنة المعبد الذين ستهتز مكانتهم بعد أن تصبح تلك العلوم والخبرات فى أيدى الغرباء وليست حكراً على فئة الكهنة، فتضعف بالتالى مكانة الدين وهيبته فى قلوب العامة والملوك..

- ولكننا قبضنا على رؤوس تلك المؤامرة يا مولاى، والذين إستخدموا كل ذلك كمبرر لخيانتهم.

- حتى وإن كنا قد قبضنا على رؤوس الأفعى يا جت، فربما كانت هناك عشرات من الذيول، والتى لم نعلم عنها شيئاً بداخل معابد آمون المقدسة.. والذين لن يهدأوا أبداً حين يشعرون أن مكانة الإله آمون ومكانتهم قد تتأثر، نحن قد وعينا الدرس جيداً ولن نسمح بتكرار ما حدث وخصوصاً أن مكانة كهنة آمون ما زالت كبيرة فى قلوب

المصريين وتأثيرهم عليهم عظيم، لذا فإحرص على أن يكون مكان المقبرة مجهول تماماً خوفاً من تدميرها بواسطة الكهنة لتستيقظ الفتنة مرة أخرى، خصوصاً ونحن لم نتعافى بعد من آثار تلك المؤامرة ، فما زالت الأمور فى القصر وبين العامة لم تستقر بعد.

تطلع إليه جت وقد إشتد إعجابه بوعى وفطنة ولى العهد بالرغم من صغر سنه، وكأنه يدير شئون البلاد منذ سنوات، ثم تمتم قائلاً:

- حسناً، لقد فهمت كل شئ يا مولاى، لا تقلق فلن يعلم مكانها سواك أنت وأنا يا سيدى.

بعد عدة دقائق وصل كبير الكهنة خايتى ومن خلفه أتى كبير القضاة تى ساخمت وهما يتسائلان عن سبب إستدعاء الملك لهم...وما هى إلا لحظات حتى كان الأربعة يقفون فى حضرة الملك فى الجناح الملكى ..كان الملك يفيق قليلاً ثم يغفو مرة أخرى، ومن جواره كان الطبيب الذى ظل مقيم دائماً فى غرفة الملك منذ إصابته، ولكنه كان قلقاً بسبب النزيف الذى لم تفلح المحاولات فى إيقافه إلا نصف نهار فقط ليعود مرة أخرى..

جلس بجوار جت بجانب الباب فى إنتظار إستدعائه وهو ينظر بقلق إلى الملك المستلقى بوهن، والذى كان يتحدث قليلاً ويصمت، والكل محترم لصمته، وقد سمعه يتحدث بوهن:

- إعلموا أنكم فى بداية الأمر ونهايته يجب أن تتمسكوا بالعدالة وحكم القانون مهما كانت الظروف.. فأنت يا تى ساخمت بصفتك كبير القضاة سوف تعين معاونين لك فى التحقيق فى هذه الحادثة المفجعة، والتى لم تحدث أو نسمع بها من قبل فى البلاد، ولأنى لا أستطيع مباشرة تلك التحقيقات بنفسى..

توقف الملك العجوز ليلتقط أنفاسه بصعوبة ويُكمل قائلاً:

- وأخبر معاونيك أن يتمسكوا بحكم القانون، والقانون فقط.. عليهم بالتحقيق في هذه المؤامرة، والكشف عن المتآمرين جميعهم، مهما علت أسمائهم ومكانتهم، والحكم عليهم بما تُمليه ضمائرهم.. وأنا آمركم جميعاً بذلك، لا تبطشوا بأحد، بل سيروا بالعدل الذى حاربت من أجل إرسائه فى ربوع البلاد طيلة عمرى ..

أما بخصوص الحديث المتداول والذي يدور علي ألسنة الناس خارج هذا الجناح الملكى فلا علم لي به.. فاذهبوا وافحصوا الأمر.. فإذا حققتم وتبينتم المتهمين فأمروهم أن ينتحروا بأيديهم بدون إخطاري.. ووقعوا العقاب عليهم بأيديهم.. أفهمتم.. ؟؟

فها أنا أمامكم أصدر أمراً ملكياً بتشكيل محكمة خاصة لمحاكمتهم على جريمة عقوبتها الإعدام، ألا وهى الخيانة، ومنح قضاة هذه المحكمة الخاصة سلطات واسعة في المحاكمة وتوقيع العقاب وتنفيذه، ولتعلموا أن على كل من يعترف بخيانته ويحكم عليه بالإعدام أن يُترك لنفسه فيوقع بها العقاب بالانتحار، ولكن عليكم التنبيه على مساعديكم من القضاة بتحري الحق والحرص على العدل، حتى لا يُؤخذ بريء ظلماً بعقوبة لا إستدراك فيها، هذه وصيتى لكم، فأنا أشعر أن أيامى لن تطول فى هذه الدنيا الفانية، وأريد أن ألقى الموت وأنتقل للعالم الآخر وأنا مرتاح الضمير.

قالها وإلتفت لينظر بحنان إلى الأمير الذى وقف صامتاً جامداً وكأنما قُد من صخر، ليحاول كتمان مشاعر الحزن والألم الذين يعتملان فى نفسه قائلاً:

- يا ولى عهدى.. حتى هؤلاء لا أريد أن أحمل أوزارهم معى فى رحلتى إلى العالم الآخر.. وقعوا العقاب علي كل من يستحق بدون إستشارتي أيضا.. فليس لى أى دخل أو شأن بالتحقيقات، ولكن إحترسوا من عقاب أو ظلم البريء.. إحترسوا من عقاب البرئ.. أسمعتم..؟، ها أنا ذا أكرر لكم أن كل شخص إرتكب أو إشترك في هذه الجناية يجب أن ينال نصيبه من العقاب.. بالعدل وليس بالبطش.

أما أنا فسأظل أمين ومحروس إلي الأبد.. فأنا ضمن الملوك العادلين أمام آمون رع ملك المعبودات، وأمام أوزوريس حاكم الأزلية، حافظت على أرض الإله وحكمتها بالعدل والرحمة، رحمت الضعيف، وضربت على يدى الظالم، خضت الحروب والمعارك من أجل أن ترفرف راياتها خفاقة، ولتظل أرض طيبة محفوظة بمكانتها بين شعوب الأرض، والآلهة تعلم ذلك ولن ترحم الخونة الذين حاولوا تدنيس أرضنا الطاهرة بخطيئة الخيانة.

ثم رفع يده ليشير إليهم متسائلاً:

- هل تقسمون على تنفيذ ما طلبته منكم بأمانة..؟

وبالفعل أقسم كل من حضر على ذلك .. ثم إستطرد الملك وكأنه يري مصيره فى العالم الآخر:

- لم ولن أشعر بلحظة ألم وأنا فى رحلتى إلى العالم الآخر، فأنت تعلم يا كبير الكهنة أنى أعطيت الكثير لمعبدكم لكى يرفع أنقاض المعابد المدمرة، وقمت بإعادة تكريم مقابر الأجداد..

ثم سرح الملك بناظره وكأنه يتطلع إلى عالم آخر لا يراه أحد ممن حوله:

- والآن أنا على يقين أنى لم أعد أنتمى إلى هذا العالم الفانى، فروحى أشعر بها تهيم بإتجاه وادى الملوك حيث الأجداد وحيث مقبرتي التى أعددتها فى السنين الأخيرة، لقد أخبرنى زعيم العمال أنه سيكون هناك شقاً عميقاً فى الشاطئ الصخرى والذى يؤدى إلى النفق المؤدى إلى صالة الميت الكبيرة.. وبعد دفنى إحرصوا على أن يُخفى باب المدخل بعناية، لتنعم روحى بالأمان فى سرداب المدفن والموجود فوقه الصخور العالية، وهناك سوف يستعدون فى إنتظار رحيلي فى الساعة التى سوف يختارها لى أنوبيس.. كل شئ جاهز لقد أعددت كل شئ، ذلك التابوت الخشبي الذى سيحتضن جثتى وحجر الجرانيت المحيط بالتابوت وجموع الخدم الذين تمثلهم أشكال خشبية صغيرة فى إنتظارى، وكذلك الكنوز المخصصة لى للبقاء على قيد الحياة فى العالم الآخر..

نظر ولى العهد فى حزن عميق لوالده وهو ينحنى بشفقة ليربت بحنان على صدره قائلاً:

- مولاى الملك هل لك أن تستريح قليلاً، فكثرة الكلام تُجهدك، ولا تقلق فسوف نقوم بفعل ما يتوجب علينا فعله.....

ولكن قبل أن ينتهى ولى العهد من جملته الأخيرة كان الملك قد ذهب فى غيبوبة جديدة..

مرت أربعة أيام كاملة منذ ذلك الوقت ورجال الحرس يحاولون القبض على كافة الخونة.. حتى إكتملت قائمة أسماء الضالعين فى المؤامرة، والتى أمر ولى العهد بالقبض عليهم والبدء فى محاكمتهم...

إلا أنه وفى اليوم العاشر من أحداث الخيانة إرتدت طيبة كلها ثوب الحداد، فقد تحرك الموكب الملكى لملك مصر رمسيس الثالث فى طريقه لتلك الرحلة التى كان ينتظرها .. إلى العالم الآخر حيث ينتظره أجداده العظام ... لتودع طيبة عهد من أزهى عهودها .. وقد غابت شمسها فى دورتها الأبدية ..

فقد مات ملكها رمسيس الثالث...

****

فى خلال الشهر التالى من وفاة ملك البلاد.. كان الفرعون الجديد فى كل يوم يُنيب عنه الكهنة لتقديم القرابين للآلهة ، بإستثناء آلهة واحدة كان مسئولاً بنفسه عن تقديم القربان لها كل صباح بنفسه وهى " ماعت " آلهة العدالة ، وعلى غير عادة الملوك من قبله كان رمسيس الرابع يطلب من الكهنة الإنفراد بنفسه فى مناجاته ل " ماعت " ، فقد كان أخشى ما يخشاه أن يغلبه غضبه فيخالف ما أوصاه به والده ويُغضب الآلهة التى أرست دعائم العدالة فى البلاد فكان يظل يتضرع:

يا رع يا من ترضي عن ماعت، لجبهتك انضمت ماعت..

يا رع يا من تطلع فى ماعت، إن ماعت تعانق كمالك..

يا رع يا من اكتملت في ماعت، لقد ثبتت ماعت في قاربه الإلهي..

يا رع الغنى في ماعت، انك تعيش عليها كل يوم ..

يا رع يا من تنجب ماعت، إليك تقدم ماعت..

لا تكف عن وضع ماعت في إتجاه قلبي حتى أرفعها صوب (كا)..

لأني أعرف أنك تعيش بها، أنك أنت الذي خلقت جسمها..

إني عادل وبرئ من الجور، وما إرتكبت جريرة..

أيها الآلهة أسياد (الماعتين) لا تكفوا عن مساعدتى حتى لا يخوننى قلبى فيضيع منى الطريق.

وفى خلال تلك الفترة وفى قاعة المحكمة الكبرى بمدينة طيبة إنعقدت المحاكمة للمرة الأولى والتى كان من المفترض أن يكون رئيس المحكمة هو الوزير الأكبر، لكن بعدما زج به فى السجن بعد ضلوعه فى المؤامرة، فقد تألفت المحكمة من ثلاثين قاضياً تم إختيارهم من كبار الكهنة المضطلعين في المسائل القانونية، فقد إختير كل عشرة من مدينة من أكبر وأهم ثلاثة مدن فى البلاد، وأعطيت الرئاسة لأكبرهم سناً القاضي تى سخمت، حتى إكتمل العدد واحد وثلاثون قاضياً للنظر فى القضية الأهم فى تاريخ البلاد والتى لم يسبق لأحدهم نظرها من قبل.. وقد أقسموا عند تعيينهم للمحاكمة يميناً في حضرة الملك بألا يطيعوه إلا فيما يطابق العدل وأنه من حقهم مخالفته فيما ينافى الحق والعدل.

وبعد أن إكتملت المحكمة، قبلت المحكمة جميع الدفوع عن المتهمين مكتوبة، خلال العشرة أيام الأولى، وفى اليوم الحادى عشر وقف المدعى وهو يقرأ عريضة الإتهام وسط المحكمة فى القاعة الكبري، ومن خلفه كان هناك المئات من الحضور الذين حضروا لمشاهدة إجراءات المحاكمة فى واحدة من أكبر وأعظم الجرائم،حيث كانوا يستمعون إلى قائمة المتهمين والتى بدأت بالملكة، رأس الأفعى التى خططت لتلك الجريمة البشعة.

وبعد أن إنتهى المدعى من تلاوة عريضة الإتهام، بدأ كبير القضاة فى الحديث قائلاً بصوت بعث الرهبة فى قلوب الحضور الذين خيم عليهم الصمت التام وكأن على رؤوسهم الطير:

- اليوم نجتمع هنا فى حضرة الآلهة ماعت، آلهة الحق والعدل والنظام فى هذا الكون، واليوم لن يُطبق سوى العدالة، والعدالة فقط، دون محاباة أو جور على أحد ، واليوم وفى تلك اللحظات الفارقة فى تاريخ مصر لا يجب أن نتناسي تلك التعاليم قامت عليها مملكتنا التى بُنيت على الحق والعدل والمساواة.. ونقول كما علمنا اجدادنا العظام.

  فلا ينبغي محاباة الأمراء والموظفين ولا ينبغي إستبعاد كائن من كان.. عندما يأتي شاكياً من مصر العليا أو السفلى، فمن الواجب العمل على أن يتم كل شيء طبقاً للقانون، وأن يحصل كلٌ على حقه... إن ما يحبه الإله هو أن يتحقق العدل، وأن ما يمقته الإله هو أن يحابى طرف على الطرف الآخر... أنظر إلى من لا تعرفه كما تنظر إلى من تعرفه، ولا ترد شاكياً قبل أن تستمع إلى قوله، ولا تستشط غضباً ضد إنسان بلا مبرر ...

ظل كبير القضاة يتحدث عن العدل وإرسائه وطريق المذنبين العصاة فى رحلة الخلود قائلاً:

- إن المتهمين بإرتكاب ذلك الجرم المشهود الذى سيحاكمون عليه حينما تثبت إدانتهم، لن تنتهى رحلتهم هنا بالحكم عليهم، وإنما ستبدأ رحلتهم الحقيقية حينما يمثلون أمام محكمة الآخرة التى يرأسها أوزوريس إله الموتى، ويقوم الإله "أنوبيس" بوزن قلوبهم بميزان العدالة، فتثقل موازينه أمام ريشة الآلهة ماعت ويساق إلى عذاب الجحيم.

إن مرتكبي تلك الجريمة الشنعاء سيُحكموا بالخزى والعار فى الحياة الدنيا وبالجحيم فى العالم الآخر جزاء لهم على ما إقترفت أيديهم، حين تثبت إدانتهم فى الجرم المشهود.

إستمر كبير القضاة فى الحديث حتى أتى على قائمة المتهمين فأسردها وهو يواجه كل منهم بالإتهام الموجه إليه:

- الملكة تيا.. ألا تعلمين أنه لا يوجد أفظع من خيانة الزوجة.. إذ يأمن الرجل فى داره عن خارجه، وعندما تأتيك الخيانة من زوجتك التى تأمن لها دون أن تظن بها شراً فلتنالها اللعنة إلى أبد الآبدين..

ولقد وجدت الملكة ضالتها لتنفيذ المؤامرة في أقرب المقربين إلى فرعون وهم... المجرم الوزير الأول حور.. والمجرم كبير الكهنة حتب .. ورئيس القصر الملكى المجرم بايبك آمون... كبير الأمناء ورئيس الحاشية المجرم بنجو.. حامل كأس الملك المجرم مسو سو رع ساقي الملك، وأسّرَت هي إلى ولدها الأمير بنتائور بما عزمت عليه، بينما راحت تُغري عدداً من رجال الحاشية للإنضمام إلى المتآمرين الرئيسيين، والذين تجاوز عددهم عشرة من موظفي الحريم يشغلون وظائف متنوعة، منهم أربعة مجرمين سقاة ملكيين، والمشرف على الخزانة المجرم ايب رع..

وكذلك قائد الحراسة السابق لمولاى رمسيس الرابع المجرم بنموسي، الذي إنضم إلى المؤامرة بتأثير أخت له في الحريم الملكي وهى المجرمة تويا، والذى لقي مصرعه فى المحاولة الآثمة لقتل مولاى الملك رمسيس الرابع...

وقد إستطاعت الملكة تيا أن تستقطب إلى المتآمرين قائد الجيوش المجرم اوناس، وثلاثة مجرمين كتبة ملكيين يشغلون وظائف منوعة، وبعض موظفي القصر، ولأن معظم هؤلاء المشاركين في المؤامرة هم في خدمة الفرعون الشخصية، فإن المؤامرة كانت غاية في الخطورة، وإستطاع المتآمرون أن يضموا إليهم ستةً من نساء ضباط بوابة قصر الحريم لضمان توصيل المراسلات داخل القصر، أما خارج القصر فكان للمتآمرين أقرباء مشتركون في المؤامرة.

وقد أرسلت المجرمة تويا أخت المتآمر بنموسي إليه خطاباً ليحض الأهالي على عصيان فرعون بالإضافة إلى أن كل الرسائل التي خرجت من الحريم كانت ترمي إلى هذا الغرض، والعمل على إثارة الفتنة والقيام بثورة لقلب النظام وتولية الأمير بنتائور ملكاً على عرش أبيه.

أما كبير الكهنة المجرم حتب، فقد إستقطب لمساعدته بعضاً من كبار كهنة معبد آمون، والذين لم يحافظوا على قدسيته وطهارته، بل إمتزجت دماء الخيانة بدم الكهنة والذين من المفترض أنهم يقدمون للشعب النصائح الغالية، وهؤلاء الكهنة هم مساعديه المجرم تتى.. والمجرم خنت.. والمجرم هابو.. حيث كانت حجة كبيرهم أن الملك السابق رمسيس الثالث قد أعطى للدخلاء والغرباء اليد الطولى فى البلاد ودحر الدين الذى قامت عليه طيبة الفرعونية، على الرغم من أنه قد ثبت بالتحقيقات التى تم إجرائها من المعاونين أنه كان السبب الرئيسي فى إثارة الفتنة بين عمال المعابد فى معبد الرامسيوم ورمسيس الثانى، وذلك لزيادة الفتنة ضد مولاى الملك السابق، كما ألقى بشباكه الخبيثة على القاضيان المجرمان تب رع.. والمجرم سيبي، والمفترض أنهما ينطقان بالحق والعدل.. فالويل كل الويل لكم فى لقاءكم فى العالم الآخر مع الآلهة.

أما الأمير السابق بنتائور والذى لا أستطيع ان أصفه الا بالأمير السابق لسريان الدماء الملكيه بداخله للأسف و هو اليد القذرة المنفذة لأحط جريمة على مدار تاريخ البلاد.. ألا تعلم أنه لا يوجد أفظع من الخيانة.. وأحقرها خيانة الفرع للأصل.. فقد يشعر الإنسان أن هناك مؤامرة تحُاك ضده فيحاول أن يستند بظهره إلى من يدافع عنه من صلبه، لكن أن يتحول هذا الصُلب إلى سكين يطعنك فى ظهرك وأنت بمأمن، فهذا أشد درجات الخيانة.. والآن ماذا جنيت سوى الخزي والعار اللذان سيلحقان بك حتى آخر العمر.؟

أما المجرم الوزير الأول حور.. ألا تعلم أنه لا يوجد أفظع من الخيانة عندما تتجسد لك فى صورة وزيرك الأول وصديق عمرك، الذى تحول عنك مقابل وعود زائفة من شخص زائف، ومقابل قطع ذهبية لا تسمن ولا تغنى من جوع فى محكمة الآخرة.

أما باقى المتهمين فلم يكونوا سوى أدوات فى أيدى هؤلاء الخونة من أصحاب المطامع والمصالح ، وسيُحاكم الجميع على قِدم المساواة دون تفرقة، فالجميع متهم بالخيانة العظمى للبلاد ولملكها وإثارة الفوضى فى ربوع

طيبة وإشعال نار الفتنة ليحترق بها شعب طيبة العظيم، والآن أُعلن الإنصراف حتى تبدأ المحاكمة الأولى فى غضون أيام...

****

مرت عدة أيام لتبدأ إجراءات المحاكمة الأولى، التى كانت لأبرز المذنبين المتآمرين، من الوزير الأول حور وكبير الكهنة حتب ومساعديه من الكهنة، كما كان من بينهم كبير الأمناء وناظر القصر السابق وساقي الملك النديم السابق وناظر جناح الحريم، وكذلك كاتب المحفوظات ، وخمسة من مفتشي الجناح السابقين، وكان من بينهم أيضاً مَن سمع الأحاديث التي كانت تدور وأخفاها، وستة من السقاة والندماء في بيت الحريم، وكذلك ستة نساء من زوجات رجال حرس الحريم إشتركن مع الرجال في التدبير للمؤامرة وإثارة القلاقل، وبعد أن تم الإستماع للشهود الذين شهدوا على أحداث المؤامرة بعد أن أقسموا قبل أن يدلوا بشهادتهم :

- " أقسم بآمون وبالملك أن أقرر الحق ولا شيء غير الحق، وإن كذبت فالتُجدعَنَ أنفى ، وتصلمن أذنى ، وأنفى إلى خارج الحدود "

وقد إعترف المتهمون بأنهم مذنبون وحُكم عليهم بالإعدام ، ليتُرك لكل منهم القرار فى إختيار الطريقة التى سينهى بها حياته في قاعة المحاكمة كأوامر الملك الراحل رمسيس الثالث.

وفي المحاكمة الثانية كان على رأس المذنبين بنتائور ابن تيا الذي حاكت له أمه تفاصيل المؤامرة لتنصيبه على عرش الفرعون، بالإضافة إلى أحد قادة الجيش وتسعة من كُتاب القصر في دار الكتب المقدسة، ومع إعترافهم بأنهم مذنبون تُركوا بمفردهم في قاعة المحكمة، فإنتحر بعضهم بنفسه قبل أن توقع عليه العقوبة .

أما المحاكمة الثالثة فشملت أشخاصاً نُفذت فيهم العقوبات بجدع أنوفهم وقطع آذانهم، وذلك بسبب إمتهانهم منصب العدالة الذي أُسند إليهم بالسماح للنساء بالدخول إلى مساكنهم والسُكر معهم لإجتذابهم إلى المؤامرة مقابل رشاوى من كل نوع.

وهكذا جرت المحاكمات وتنفيذ العقوبات، وكان اللافت للنظر أن (تيا مرن إست) زوجة الملك وأم بنتائور بالرغم من أنها هي رأس الأفعى في مؤامرة إغتيال رمسيس الثالث إلا أنها لم تحاكم بالإعدام، فقد تم إيداعها في جناح الحريم وحكم عليها ألا تغادره حتي تلقي الآلهة بجرمها المشهود .

****

بعد إنتهاء المحاكمة كان رمسيس الرابع يقف بداخل محبس بنتائور الذى كان مقيداً وهو ينظر إلي ملك البلاد الجديد وهو يكاد ينفجر من الغيظ.. لم يدرى الملك ماهية تلك المشاعر المتضاربة التى تضرب قلبه، فها هو يقف أمام قاتل أبيه الذى لم يكن أباه فحسب، وإنما كان بالنسبة له الأب والأخ والصديق والمثل الأعلى، وفوق كل ذلك الملك الذى طالما دان له بالطاعة والوفاء، سليل الآلهة الذى يحكم بمقتضى تعاليمها بالعدل والرحمة والمساواة، كان بالنسبة له القائد الذى تعلم على يديه كل شئ، تعلم منه أمور الدنيا وأمور الحكم وأمور الحرب، وإن كان يجلس الآن على عرش مصر ليحكم تلك البلاد العظيمة فبفضل هذا الرجل، أما قاتله فقد كان أخيه الصغير، إنه ذلك الصغير الذى كان يعتبر نفسه مسئولاً عنه وعن إعداده وتعليمه كل شئ، ذلك الصغير الذى لطالما أحبه بالرغم من كراهيته له والتى زرعتها بداخله أمه الملكة تيا، كان من يجلس أمامه الآن مجرد شخص تجرد من إنسانيته، إنسان تسيطر عليه أطماعه لتدفعه ليقتل أبيه وأخيه دون أن يتردد لحظة..

نظر إليه الملك عله يرى بعينيه ولو ذرة ندم على ما فعله بأبيه وأخيه وبلاده، ولكنه لم يجد بعينيه سوى الحقد والكراهية العمياء، لم يكن يحتمل أن يستمع لصوته وهو يهذى بكلمات تقطر حقداً عليه وشماتة فى موت أبيه، لذلك لم يفكر سوى أن ينفذ وصية أبيه، فقد كان عليه أن يُخير الأمير السابق ما بين الإنتحار أو بالقتل على يديه بعد أن صدر الحكم بإعدامه، فبادره قائلاً:

- مهما قلت من مبررات وكذب سيكون مصيرك الموت، ويعلم الرب آمون المعظم أنى لا أستطيع كبح جماح نفسي حتى لا أدق عنقك بيدىّ هاتين الآن، لولا وصية الملك الراحل بتخييرك ما بين الإنتحار أو القتل بيد غيرك وهو فى رحلته إلى العالم الآخر، فهو لم يكن يريد منا حتى القصاص من قاتله، ولكن أقسم لك إن لم تقتل تلك النفس الخبيثة التى بداخلك بيديك فسأجعلك تتمنى الموت ألف مرة لتكون لمن خلفك عظة.

قهقه بنتائور بجنون وهو يحاول أن يفك القيد من يديه وقدميه ويتحدث هازئاً:

- هيا فلترينى قوتك.. إنزع عنى تلك الأغلال وسوف ترى من سيلحق بالخَرِف العجوز الآن.

إقترب رمسيس منه بالفعل محاولاً فك قيده إلا أن رئيس الشرطة منعه بأدب من ذلك قائلاً:

- مولاى المعظم.. إسمح لى، فليس هناك أى مجال لمناقشة المذنب أو حتى الإقتراب منه حرصاً على حياتك يا مولاى، وتنفيذاً لوصية مولاي الملك الراحل، فلا يوجد فائدة من المجادلة معه ..أنت الآن أمام أمير ميت..

حاول الملك تمالك نفسه والسيطرة على غضبه وهو يتراجع ليجلس على مقعد خشبي وينظر إلى أخيه الرابض فوق مصطبة رخامية وهو مقيد من يديه وقدميه إلى الحائط، فبادره قائلاً:

- شئ واحد أريد أن أعرفه.. لما فعلت ذلك..؟، هل كان كل ذلك لأنك لم تتولى حكم البلاد..؟، ماذا تعلم أنت عن قيادتها أو الدفاع عنها أو حدودها التى يغير عليها الأعداء كل يوم..؟، إن والدنا قد ألقي بي إلى المعارك منذ نشأتى، أما أنت فكل ما قمت به فى حياتك هو الغرق فى ملذاتك، حتى المهمة التى أوكلها إليك وهى إصلاح المعابد القديمة وإنشاء العديد من المعابد الجديدة لم تقم بها كما يجب.

صرخ بنتائور مقاطعها وهولا يزال يحاول التخلص من قيوده قائلاً:

- وبإسم من أفعل ذلك..؟، بإسم ذلك الملك الخَرِف..؟، لقد فعلت ما فعلته لآخذ حقى فى تولى حكم هذه البلاد فأنا أحق منك به .. فلا.......

قاطعه رمسيس قائلا بغضبً:

- مهما كانت مبرراتك التافهة، والتى لم تقنع أى قاضي فى المحكمة، إلا أن الجميع قد إتفق على إصدار أمر بالعفو عنك أيها الغبي.. ولم يكونوا ليصدروا مثل هذا الحكم إلا بالعفو الملكى الذى أصدرته عليك وعلى أمك الملعونة، فقط إرضاء لوالدى.. حتى أشد الخونة خيرناهم ما بين إزهاق أرواحهم بأيديهم أو بالإعدام على أيدينا، فانتحروا بأنفسهم..

تراجع رمسيس وهو يتنهد تنهيدة طويلة وكأنما يحاول بها أن يُخرج ولو جزء صغير من ذلك البركان القابع فى أعماقه وهو يُكمل:

- أتعرف يا من كنت أخى، لو كان لديك ذرة من الكرامة والكبرياء الذين يسرون فى الدم الملكى فسوف تفعلها بنفسك فأنت ملعون.. لقد لُعنت فى الدنيا وفى العالم الآخر فى الدار الآخرة، سوق تجد شياطين الجحيم فى إنتظارك كأحقر إبن يقتل أباه.. لا أستطيع أبداً أن أتخيل نظرة والدى وهو ينظر إلى عينى ولده الذى يهم بقتله.. كلما تذكرت ذلك الموقف أود أن أُذيقك من عذاب الموت ألواناً ولكنها وصية الملك..

قالها ونظر إلى رئيس الشرطة قائلاً:

- هل أحضرت السم معك..؟
- نعم يا سيدى.. من النوع المطلوب تماماً.
- فلتضعه على هذه المنضدة، ولتحل قيد هذا الملعون ليتجرع السم بنفسه إن كان لا يزال يحمل ذرة كرامة.

ثم عاد مرة أخرى بنظره إلى بنتائور قائلاً بغضب:

- إن ظل لديك ولو جزء صغير من النخوة والشجاعة فستتجرع هذا السم.. إن كان لديك ذرة دماء ملكية فعليك بتجرعه فى الحال ليقضي عليك، قبل أن تسمع جماهير والعامة فى البلاد وهى تلعنك وتلعن روحك ألف مرة بسبب جرمك وعارك الذى لن يمحوه حتى موتك..

قالها وخرج مع رئيس الشرطة الذى وضع السم فى زجاجة بالقرب من الأمير الملعون، وهو يُصدر أوامره إلى أحد الحراس بفك قيود الأمير وإغلاق الباب ونبه على الحراس ألا يلتفتوا إليه مهما صرخ أو توسل.. وما إن غادر الملك بعيداً عن ساحة السجن، وقبل أن يمتطى الملك فرسه نادى لرئيس الشرطة الذى أتى مسرعاً:

- هل كان السم الذى أحضرته هو الذى أوصيتك به. ؟
- نعم يا سيدى، فهو من أفتك أنواع السموم.
- حسناً.. هو يستحق ذلك، ولكن ما هى المدة التى يستغرقها جسد الرجل الناضج لسريان هذا السم فى جسده..؟

- بمجرد أن يتناوله يا مولاى يبدأ تأثير السم فى الإنتشار فى الجسد رويداً رويداً، فهو يقتله ولكن ببطء.. فهو يشعر بكل ذرة فى جسده تحترق ولا يستطيع إطفائها.. لقد أخبرنى الطبيب أنه فى خلال ثلاثة أيام من العذاب المتواصل يموت الخائن بعد أن يتمنى الموت مئات المرات بسبب ما يعانيه ..

أومأ الملك برأسه وهو يحاول أن يتمالك نفسه لتظهر ملامحه بتلك الصرامة على الرغم من ذلك الصراع الذى يعتمل بداخله:

- حسناً .. ذلك هو ما يستحقه.. بمجرد موت ذلك الخائن عليك بإخبارى فوراً.
- سيكون ذلك فى القريب يا مولاى وسأخبرك حالما يحدث.

أطرق الملك ثم إلتفت ليمتطى فرسه ويغادر، وصورة والده لا تفارقه، فحتى أقوى وأعتى الملوك يحمل بداخل صدره قلب يحزن ويتألم ..

****

وبعد ثلاث ليالٍ تماماً أيقظ رئيس الحرس الملك وهو يزف إليه خبر موت الخائن أخيراً بعد تناوله جرعة السم.. أخبره أنه ظل كل هذه المدة يصرخ متألماً وهو يتوسل لنجدته.. ظل يطلب الموت سريعاً، ولكن أحداً لم ينجده وفقاً لأوامر الملك..

وما هى إلا دقائق حتى كان الملك ورئيس شرطته ورئيس حرسه فى محبس الأمير الملعون، وقد ذهلوا عندما شاهدوا هيئته المفزعة، فقد كان فمه وعيناه مفتوحتين على إتساعهما وكأن شياطين الجحيم جميعاً كانوا يطاردونه، كان ممسكاً بمعدته بشدة وكأن يداه قد تيبستا على هذا الوضع ، فقد بدا جلياً أنه قد قاسي أشد أنواع الموت إيلاماً حتى زهقت روحه.

إقترب الملك منه وهو ينظر إليه فى ألم حاول أن يخفيه بقناع من الملامح الجامدة الخالية من أية مشاعر، وهو يُملى أوامره لرئيس الحرس جت ورئيس الشرطة.

- لا تتبعوا مراسم التحنيط المعتادة، فلا تستخرجوا المخ من رأس هذا الخائن، ولا تستخرجوا الأحشاء من معدته، بل إتركوه حتى يتعفن أولاً، ولكن قبل ذلك صبوا فى هذا الفم الكريه الذى نطق بالباطل مادة التيبس لتبقيه ملعوناً على هذه الحالة إلى أبد الآبدين، وليكون عظة وعبرة فى العالم الآخر، وليرحل مع فعلته الشنعاء.. وقيدوا قدميه ويديه بإحكام حتى يكون مقيداً فى رحلته الأخيرة.. ولا تحنطوه بلفائف الكتان المقدسة بل فى لفائف جلد الماعز النجسة .

أجابه رئيس الشرطة:

- حسناً يا سيدى.. لك ذلك.. ولكن أين سيتم دفنه...؟

سرح الملك لبرهة من الوقت وكأنه عز عليه أن يرى جسد يحمل الدماء الملكية مُلقي فى أحد المقابر العادية ، فإستدرك قائلاً:

- إلق به فى وادى الملوك بجوار الأجداد.. لكن إحرص على أن يكون التابوت المسجي به هذا الخائن مجرد تابوتاً خشبياً لا يحتوى على أية رموز أو نقوش، أريد أن أجعله تائهاً ومجهول الهوية فى رحلته إلى العالم الآخر.. أفهمت أنت و جت.

أجابه جت الذى بدا مُتعباً من كثرة مهامه مع الملك الشاب :

- سيكون لك ذلك يا سيدى، كل ما أمرتنا به سنقوم به على أكمل وجه.

إستدار الأمير وهو يُغمض عينيه فى ألم ليسيطر على ذلك البركان الذى يثور بداخله ليهتف بصوت حاول أن يجعله أكثر صرامة وقسوة:

- كل ما أريده هو تحقير ذلك الملعون فى الحياة الأخرى.. إن المرء ليُبعث بعد الموت وتوضع أعماله بجانبه أكواماً، وما يبتغيه المرء منا هو الخلود هناك، ولكن هذا الغبي لم يكترث بالحساب أمام محكمة الآخرة فى العالم الآخر..

لذلك ستظل روحه ملعونة أبد الدهر، إنها عدالة السماء التى إقتضت العار والذلة للخائن فى الحياة الدنيا والخذى والخسران فى الآخرة..

قالها الأمير وإستدار ليغادر ويطوى تلك الصفحة السوداء من تاريخ تلك الأرض الطيبة، تلك الأرض التى تلفظ الشر والخيانة مهما طال بهم المقام فى جوفها ، ليشرق عهد جديد بنور الحق والعدل .

****

هل مر كثير على غياب الأمن فى البلاد..؟، لا لم يحدث..

فبعد إنتهاء المحاكمات السابقة، وإستتباب الأمر فى يد الملك رمسيس الرابع ظهرت بعض القلاقل وبعض أذناب المؤامرة السابقة، لكن الملك قضي عليها بالكامل، وبدأ فى السير على خُطا والده الراحل..

أما أنا....

فلقد حاولت جاهداً فى الأربعة أسابيع الماضية كتابة تلك البرديات والتى تؤرخ أحداث حقبة سوداء فى تاريخ طيبة، كم أتمنى ألا تتكرر فى بلادنا الطيبة مرة أخرى.. حقبة ربما لن يعطى لها التاريخ حقها، ومن يدرى ..؟، ربما يطويها التاريخ، وربما سيذكرها على إستحياء، فلن يستطيع أحد أن يرويها إلا من عاشها وعايش أحداثها، ليروى للأجيال القادمة قصة من أفظع قصص الخيانة ، حتى لا تقع تلك الأجيال فى براثن تلك الأخطاء التى أودت بطيبة لتلك الأحداث ولتعى الدرس جيداً..

فالناس أعداء لما جهلوا، والجهل ألد أعداء الشعوب، فالشعوب الجاهلة تُساق لتتحكم بها أمم الأرض ممن لا يملكون ما تملكه هى من عقيدة وتراث وحضارة، فيخسرون بلادهم التى تُستعبد من بعد حرية، وتفتقر من بعد غنى، وتُذل من بعد عزة، ويعيشون عبيد فى بلادهم، مهددين فى حياتهم وأقواتهم، فلا هم أحياء يتنفسون الحرية، ولا هم موتى أراحوا وأستراحوا، يبحثون عن نسمة هواء فى بلاد غريبة وقد ظنوا أن الحياة قد تكون بعيداً عن أرضهم الطيبة، ليكتشفوا بعد فوات الأوان أن من تخلى عن أرضه وحلمه لن تحتضنه بقاع الأرض، وستلفظه الشعوب وكأنه داء عضال، ليظل تائهاً إلى أبد الآبدين..

هل هناك أمراً آخر..؟، نعم...

أنا خادم الإله جت.. قائد الحرس المعزول مرة ثم العائد مرة أخرى إلى خدمة مولاى الملك رمسيس الرابع، ثم القعيد فى آخر أيامى التى وهبتها لكتابة تلك البرديات الهامة، والتى سأوصى أن توضع معى فى مقبرتى، مؤرخة للعالم الآخر لأفظع جريمة كنت شاهداً عليها، ويشهد آمون أن كل حرف قمت بتدوينه كان من مصادره الأصلية، سواء من إعترافات الكهنة أو إعترافات كل من شارك فى تلك المؤامرة، وكذلك شهادة نسجيتا وبنتائور والملكة تيا وكبير الكهنة، وكل أطراف المؤامرة الملعونة ..

لم يتبق سوى شئ واحد، وهو ما إئتمننى عليه مولاي الملك رمسيس الرابع، ألا وهو الغرباء أو ما نطلق عليهم فى البلاط الملكى (المبعوثين).. وقد ترددت كثيراً قبل ذكرهم، ولذلك وكما كان وجودهم سراً بين جنبات القصر الملكى فى طيبة، لم أذكر من هم صراحة فى قصتى وكذلك ستكون هناك مواقف لم تذكر وأحاديث لم ولن تُذكر وان كنت تذكرتها وانا أدون تلك المذكرات لكنى لم أذكر الكثير والكثير ، وكثير من العامة والكهنة لا يعلمون أكثر من أنهم مجرد زائرون من بلاد ما وراء البحر حيث بلاد كريت ولكن ربما كان من حق الأجيال القادمة التأكد من وجودهم، ومعرفة من هم على وجه الحقيقة.

فهناك وعلى بعد آلاف الأميال فى بلاد ما وراء البحار السبعة والممالك السبعة وخلف أعمدة هرقل، يوجد أهل أرض لديهم من الحضارة والعلم والتقدم ما يفوقنا بآلاف المرات، وفى ترحالهم بعيداً عن حضارتهم وصلوا فى زمن ما إلينا، وقد ذُكر تواجدهم فى بعض البرديات الدينية فى عصر مولاى الأمير (خا ام واس) ولى عهد رمسيس الثانى، أما من قبل ذلك فلا أحد يعلم على وجه التحديد، لولا أنى متيقن من ذلك لوجود عشرات الرسومات التى تخلد دورهم فى صنع حضارتنا العريقة.. وقد أرسوا دعائم الصداقة منذ عشرات وعشرات السنوات، وحُفظت كل تلك البرديات التى توضح مساهمتهم فى كثير من الأمور الحياتية فى البلاد..

نعم كان بعض الكهنة يضمرون لهم الكراهية لكونهم يبعدونهم تماماً عن الهالة الدينية المقدسة للكهنة ولآمون المعظم ولخوفهم على مكانتهم، كما وضح من مؤامرة الملعون وقتلهم المبعوثين دون وجه حق لمجرد الحقد..

لا أستطيع أن أخبركم أن هناك العشرات من الإبتكارات التى ظهرت بفضلهم فى حياتنا.. فى الإنشاءات والمعابد والطب والعلوم والفلك.. إن ما أطلعنى عليه مولاى رمسيس الرابع لا يُعد كونه مجرد قشور من حضارة عظيمة كان لها عظيم الأثر فى الحضارة المصرية..

فقد أنبأنا العراف كاجمنى يوماً أنه سيأتى يوم تزول فيه تلك الحضارة من على وجه الأرض بسبب أطماعهم.. لكن نحمد الله أنهم مسالمين معنا حتى الآن.. وقد أخبرنى سيدى رمسيس أن أسلافه الراحلين منهم من زار فعلاً تلك الأراضي، والتى كانت عن طريق بعثات مرسلة من طيبة.. وعلى الرغم من طول المسافة، إلا أن مجرد التفكير فى تلك الأراضي كان مغامرة ربما تحدث وتتحقق ذات يوم..

ومن يدرى ..؟، ربما تُتاح لى فرصة فى نهاية أيامى للذهاب إلى تلك الجنة الموعودة، وإن كنت أشك فى إمكانية حدوث ذلك بسبب كبر وسنى وطول السفر ..

كم أتمنى أن تزدهر طيبة لتفوقهم يوماً..

طيبة أرض الإله ومحبوبته..

وضع جت أخيراً سن ريشته التى كان يدون بها على عشرات وعشرات البرديات، حتى إنتهى من تدوين كل شئ عن تلك المؤامرة التى لم تحدث فى التاريخ الفرعوني من قبل.. ثم إستند برأسه على حافة المقعد الخشبي وقد تذكر أمراً آخر تعمد ألا يذكره فى آخر بردياته.. لكن لسبب ما شعر أنه لابد من ذكره.. فعاد يمسك بالريشة مرة أخرى وبعد تفكير عميق كتب البردية الأخيرة :

وعندما تشرق الشمس بين قرنى الأفعى

فى تلك العاصمة القديمة..

لتحيط بأشعاتها جنبات الوادى فتثير السعادة حول نخيلها المقدس..

و تخبوا ليتحول ضوئها إلى تلك الأفاعى التى تتجول راقصة ليلاً على موسيقاها الأبديه

داخل محراب معبدها القديم ..

ثم إلى ضوء ساطع وموسيقي ساحرة ومن خلفه يمر البابون

ليحرسه للأبد..

مُحذراً كل غريب يخترقه بصاعقة قاتلة من السماء..

وهناك تتوالى البركات، حيث بيت الولادة .. لتسطع النجوم من مغرب شمسه إلى الأبد،

والتى لن تُطفأ أبداً

ولو كانت على بُعد خمسة آلاف ذراع قيصري))

وما إن إنتهى منها حتى نظر إليها مرة أخرى، وقد إرتسمت ابتسامة ساخرة على جانبي فمه، داعياً الله أن يأتى من يفهمها ..

يوماً ما....

****

الفصل السادس

****

الحضارة المفقودة

****

عجباً لذلك الإنتقام .. فعندما تصل رغبة الإنتقام فى الإنسان إلى حد الهوس والجنون فإنه يُخلد المنتقَم منه وقد يُدخله التاريخ من حيث لا يدرى.

****

جلس يوسف وهو يدفن رأسه بين راحتيه، بعد أن قرأ البرديه وعجز عقله عن التفكير، فقد ظل يتساءل عشرات التساؤلات التى تصارعت فى وقت واحد داخل عقله:

- إذن هذه البردية تشير صراحة إلى وجود حضارة أطلانتس بالفعل من قبل .. فلِما لم يظهر ما يشير من قبل إلى تدخلهم فى مساعدة قدماء المصريين، ومحاولة نقل علومهم إليهم والتعاون سوياً..؟

كانت هناك عشرات النظريات والتكهنات على وجود تلك الحضارة المندثرة من قبل، وكل ما كان يشير إليها وإلى وجودها مجرد بعض المخطوطات القديمة وعلى إستحياء، بالإضافة إلى وصف أفلاطون لهذه المدينة، وإن كان به جزء من الخيال عند حديثه عن بعض آلهة الإغريق، كذلك مخطوطة مصرية قديمة تشير إلى أن أحد الفراعنة طلب من أحد وزرائه تسيير رحلة بحرية إلى الغرب للبحث في مصير المدينة المفقودة، فيما احتوت بعض الخرائط القديمة التي وجدت ضمن مقتنيات بعض سلاطين الدولة العثمانية لجزيرة في البحر الأحمر ليس لها وجود في الخرائط الحديثة، ويُعتقد أنها نفس الخرائط التي إعتمد عليها الرحالة الشهير كولومبوس في استكشاف العالم..

أما وصف أفلاطون الفيلسوف نفسه فقد جاء على أنها جزيرة تقع فيما وراء أعمدة هرقل تماماً كما ذكرها هنا جت، وأنها كانت كقوة بحرية قد حققت انتصارات على أجزاء كثيرة من أوروبا الغربية وكذلك في أفريقيا، وتعود لتسعة آلاف عام قبل الميلاد، وأنها تعتبر قارة مفقودة وأنها قد ولدت بعد الحضارة الفرعونية، ويعتقد أنها غرقت قبل حوالي 1800 عام قبل الميلاد وتحدث عنها وحولها أفلاطون.

ويقال أيضا أنها كانت على اتصال مع الحضارة الفرعونية، لذلك يوجد على بعض المعابد المصرية القديمة كلمات لها طريقة غريبة في الكتابة، وأيضا يوجد رسم عليه لطائرة نفاثة ويركبها رجلين اثنين، الأول رجل فرعوني ويقال أنه رمسيس الثاني والرجل الثاني رجل يلبس لبس غريب ويقال ويشاع أنه من الأطلسيين.

فكيف ظهرت بعد الحضارة الفرعونية..؟، تذكر ذلك الكاهن الذى أصابته لوثه وقام بحرق كل البرديات التى تشير إلى وجود أى تعاون من قبل بين الحضارتين ..

ألف لعنة......

لم يدرى كيف سيكون الوضع الآن.. ما الذى سوف يُخبر ذلك الجشع الرابض خلف الأبواب وقد إستبد به الفضول لمعرفة ما تشير إليه هذه البردية..؟، ذلك الغبى على استعداد أن يبيع ابنته مقابل الحصول على المجد والمال..

ظل يوسف يُحدث نفسه وهو يذرع غرفته جيئةً وذهاباً عشرات المرات، دون أن يهديه تفكيره لشئ ..فجلس للمرة الخمسين ممسكاً ببقية البردية وهو يقرأها جيداً:

((وعندما تشرق الشمس بين قرنى الأفعى فى تلك العاصمة القديمة..

لتحيط بأشعاتها جنبات الوادى فتثير السعادة حول نخيلها المقدس..

و تخبوا ليتحول ضوئها إلى تلك الأفاعى التى تتجول راقصة ليلاً على موسيقاها الأبديه داخل محراب معبدها القديم ..

ثم إلى ضوء ساطع وموسيقي ساحرة ومن خلفه يمر البابون ليحرسه للأبد..

مُحذراً كل غريب يخترقه بصاعقة قاتلة من السماء..

وهناك تتوالى البركات، حيث بيت الولادة .. لتسطع النجوم من مغرب شمسه إلى الأبد، والتى لن تُطفأ أبداً

ولو كانت على بُعد خمسة آلاف ذراع قيصري))

تُرى ما هو المقصود..؟، ليس من الطبيعى أبداً أن يختم جت كل تلك المؤامرة بتلك الدعوة والتى لا تنتمى إلى الطقوس المعلومة عند الفراعنة، ولا حتى النصوص الفرعونية فى الدعاء.. بل هى أقرب إلى شفرة ما.. شفرة لم يستطع ماسبيرو فك رموزها، ولذلك عمد إلى إخفائها مع البردية الأصلية G T 177 ..

وضع يده على رأسه محاولاً التفكير بهدوء وترتيب أفكاره .. فما المقصود بالأفعى..؟، وما هى العاصمة القديمة التى يقصدها.. ففى مصر عشرات العواصم الفرعونية القديمة..؟، وأين هو النخيل المقدس..؟، وإلى ماذا ترمز الأفاعى المذكورة أكثر من مرة...؟، وكيف تتجول راقصة داخل المعبد القديم..؟، وما علاقة كل ذلك بقرد بابون المقدس..؟، وما هى تلك الصاعقة التى يقصدها..؟

ظل يفكر إلى أن شعر أن عقله يكاد يتوقف عن التفكير فهتف فى حنق وهو يضرب بيده على المائدة أمامه:

- اللعنة عليك يا جت ، ويا رمسيس، ويا كل من أدخلنى إلى تلك المغامرة الغبية..

أخرج الحاسب الآلى الخاص به مرة أخرى مُراجعاً قضية جت والمؤامرة الملعونة، وعاود قراءتها منذ البداية.. كان الكثير من الأحداث غير واضحة ومطموسة على حسب ما جاء فى بردية هاريس، لكن كان هناك جزءاً مفقوداً..؟، تُرى ما هو ..؟

بدأ فى البحث عن تلك الكلمات الغامضة الموجودة فى البردية الأخيرة.. فبدأ بالبحث عن المكان أولاً، فقد ذُكرت العاصمة القديمة، هو يتذكر تماماً عواصم مصر الفرعونية منذ مدينة "أون" في عهد مينا حيث كانت مقراً دينياً لأسرة الحكم، ولكنها لم تكن عاصمة بالمعنى المتعارف عليه. وبالتالى عليه أن يستبعدها من تفكيره..

قام يوسف ليدور فى أرجاء الغرفة وهو يُحدث نفسه فى صوت مسموع مرة أخرى، وكأنه يُلقي محاضرة من تلك المحاضرات التى كان يلقيها فى معهده ببريطانيا:

- إن أول عاصمة لمصر كانت في عهد الفراعنة، وتنقلت خلال تلك العهود إلى أربعة عشر موقعاً، حيث كانت منذ عصر الأسرة الأولى وحتى الثامنة مدينة "منف " المعروفة في العصور القديمة باسم "ممفيس"، وهي حالياً منطقة "ميت رهينة " بالبدرشين وموجود بها جميع آثار تلك العهود، وقد قمت بزيارتها عدة مرات، وبعد ذلك فى عهد الأسرتين التاسعة والعاشرة تم نقل العاصمة إلى منطقة "إهناسيا" بمحافظة بني سويف، وكانت تسمى "هيركليوبوليس." بالقرب من هرم ميدوم الشهير هناك .. أما الأسرة الحادية عشر فقد قررت نقل العاصمة إلى مدينة طيبة في الأقصر، ثم قررت الأسرتان الثانية والثالثة عشر نقل العاصمة إلى منطقة "اللشت"، وهي منطقة ما بين الفيوم وبني سويف، بينما قررت الأسرتان الرابعة والخامسة عشر نقل العاصمة إلى منطقة "أورايس"، وهي الآن مدينة زوران بمحافظة الشرقية، أما الأسر السابعة والثامنة والتاسعة عشر فقد قرروا مرة أخرى نقل العاصمة إلى طيبة في الأقصر حتى عهد رمسيس الثاني، فقد قرر فرعون مصر نقل العاصمة لمنطقة في شرق الدلتا اسمها "برمعسيس" وهو مُسمى فرعوني يعني "بيت رمسيس محبوب آمون المعظم بانتصاراته"، وهي حالياً قرب محافظة الشرقية في منطقة تسمي قنطير، وبعد ذلك الأسرة العشرين عصر رمسيس الثالث فلا داعى للبحث بعدها..

إذن فلديّ هنا ميت رهينة بالبدرشين وإهناسيا ببنى سويف والأقصر واللشت ما بين بنى سويف والفيوم وزوران بالشرقيه و قنطير..

عظيم جداً.. معنى ذلك أن نبحث تقريباً فى ثلث مساحة مصر، أما بالنسبة لبقية الرموز فى الرسالة، مثل الأفعى مثلاً ، فمن المعلوم أن رمزية الأفعى في الدولة المصرية القديمة لها قدسية كبيرة، على عكس التعامل معها الآن باعتبارها كائنات ترمز للشر. لكن من الملفت للنظر في رمزية الثعابين هو "أبو فيس" أو "أبيب" "عدو رع" وكان يظهر في دور الشر من خلال ذبحه يومياً حيث كان "رع" يحول نفسه لقطة ويذبح الذي يحاول توقيف شروق الشمس، وفي لوحة أخرى صُورت الأفعى على مركب يدافع عن الخير، وهو ما يشير إلى وجود أساطير مصرية قديمة ملغزة حتى الآن.. فإلى ماذا تشير الأفعى هنا..؟، فقد ذُكر هنا أنها تتجول راقصة على أنغام موسيقي فرعونية بداخل المعبد، فلم يتضح ما دورها أو ما تفعله حتى برقصها..

كل ما أعلمه عن تلك الملاعيين الأفاعى أنها ثلاثة أنواع عند الفراعنة، نوع يسمى "وادجت"، والتي تعيش في مستنقعات البردى والبوص بالدلتا، ولونها يميل إلى اللون الأخضر، وكانت في الديانة المصرية هي ابنة "رع" وعينه، وكانت توضع على تيجان ملوك مصر، وفوق جبينهم لتقوم بدورها في حمايتهم، كما قامت "وادجت" بحماية "رع" من قوى الفوضى والظلام في الزمن الأول..

والنوع الثانى هو "ميريت سجر"، واسمها يعنى "المحبة للصمت" فهي ذلك النوع من الحيات الذى يعيش على حافة الصحراء، وتعيش في المناطق المقفرة المهجورة وخصوصاً المقابر، وقد كانت مقدسة بشكل خاص في دير المدينة، ولها مكانة خاصة لدى عمال دير المدينة لما تقوم به من دور في حماية أرواح البشر في العالم الآخر...

أما النوع الأخير هو "رينينوتت"، وهى ذلك النوع من الحيات الذى يعيش في الحقول ويلتهم الفئران، وكانت مقدسة أيضاً عند قدماء المصريين لكونها إحدى الكائنات الإلهية التي تُشرف على ميلاد الإنسان في هذه الحياة الدنيا، وتعطيه الاسم وتساعده على المجيء إلى العالم الظاهر، كما ارتبطت "رينينوتت" بموسم الحصاد، كونها تحمى المحاصيل حيث تلتهم القوارض التي تشكل خطراً عليها مثل الفئران، وكانت تحمل لقب "ربة صوامع الغلال"..

إرتمى يوسف على أقرب مقعد له وهو يُمسك برأسه ويُطلق زفرة طويلة متأففاً وهو يُردف:

- حسناً لم أصل إلى شئ آخر بخصوص المكان ولا حتى الأفعى.. حسناً ..

عاد مرة أخرى إلى الحاسب الآلى ليبحث فى الإنترنت عن الكلمات السابقة، إلا أنه لم يخرج بأية نتيجة بعد بحثه فى عشرات المواقع، وكل ما رآه لم يزد معلوماته المعروفة لديه، لكنه آثر أن يبحث مرة أخرى عن رمزية البابون فى الحضارة الفرعونية، فوجد بحث قرأ منه بصوت مسموع :

- فلو انتقلت إلى قرد البابون المقدس، فعلى غرار الكلاب حظت القردة بحب واهتمام أهل وادى النيل، فكان من المعتاد رؤيتها فوق المقعد الخاص برب البيت، أو أسفل كرسى سيدة المنزل، وعلى أغصان أشجار الحدائق، حيث تلتهم التمر والتين فى نهم شديد، وأحياناً قد تصاحب سيدها عند توجهه للإشراف على أملاكه وتفقدها، وعند وفاة القرد المفضل لدى أسرة ما، كان يتم تحنيطه ووضعه بداخل مقبرة صاحبه حتى يستمر دائماً وأبداً فى إدخال السرور والمرح على قلبه فى العالم الآخر.

أما الإله الفرعونى "جحوتي حتب" فكان يتمثل علي هيئتين مختلفتين، إما بشكل الطائر "أبو منجل" (أيبس)، أو بهيئة قرد (البابون)، وكلاهما ارتبط بالقمر، وعادة ما كان يُصور فى الهيئة الآدمية برأس أبى منجل، وهى الهيئة الأكثر تصويراً له، أو يصور فى هيئة قرد (البابون) جالساً.

وقد كان قرد البابون أو المعبود على درجة من الأهمية خلال عصر الدولة القديمة، وقد نسب المصريون إليه ابتكار الكتابة، ولذلك فقد أصبح (كاتب التاسوع الذى يقوم بتسجيل "الكلمات المقدسة").

وكان القرد رب كل أماكن المعرفة، وكانت كتابة كل الرسائل تقع تحت إشرافه باعتباره (سيد بيت الحياة)، وليس من المدهش أن يكون القرد "جحوتى" مُلماً بالأسرار وأعمال السحر الغير معروفة حتى لغيره من الأرباب.

وقد لعب القرد "جحوتى" دوراً هاماً فى العالم الآخر، فقد ذُكر في كتاب الموتى واقفاً أمام الميزان (الذى يُوزن فيه قلب المتوفى) ليسجل النتيجة لتحديد مصير المتوفى، وقد أضفى هذا الدور على "جحوتى" سمعة العدالة والاستقامة.

إنتهى يوسف من قراءة ذلك الجزء من البحث ليتراجع فى مقعده قائلاً:

- حسناً أنا أبحث عن شئ ما فى الدولة القديمة، كما يشير هو الآخر، وكأننى ابحث عن إبرة فى كومٍ من القش.

قالها وعاد مرة أخرى لبحثه ليبحث مرة أخرى عن المقصود ببيت الولادة فى الحضارة المصرية، ولكن لم يظهر له سوى ما كان متأكداً منه قبل بحثه، حيث قرأ:

- بيت **الولادة عند الفراعنة ..** قبل حوالي 3500 عام كانت المرأة الفرعونية يتم ولادتها وإخراج الجنين من رحمها، ليس عن طريق الولادة القيصرية، وليس من خلال اعطائها مخدر كلي أو نصفي أو شئ لمنع الألم.. ولكن فقط من خلال كرسي فرعوني بسيط للولادة، وهو يوجد الآن بداخل المتحف المصري، حيث كانت المرأة تجلس على هذا الكرسي وتقوم بوضع يداها على رجلها، وكان يوجد هذا الكرسي بداخل بيت الولادة ولقد استخدمته حتشبسوت، حيث هناك صورة على الجدران تظهر حتشبسوت جالسة على كرسي الولادة ويوجد بجانبها الآلهة ، المثير حقاً في الأمر أن كرسي الولادة يُعتبر الآن من أحدث أساليب الولادة المستخدمة في أوربا.

كانت الساعة تشير إلى الثامنة صباحاً عندما سمع دقات خفيفة من خلف الباب وصوت ألبير يوقظه لتناول الإفطار مع رينيه في بهو الفندق، ويذكره أنه لم يتبق سوي أربع ساعات على طائرتهم المتجهة إلى النمسا مرة أخرى..

عقد يوسف حاجبيه وهو ينظر إلى ساعته ، فهذا يعنى أنه لم يذق طعم النوم فى ليلته الطويلة تلك.. ولم يخرج منها بأية فائدة مرجوة.. ولكنه قبل أن يغادر غرفته خطرت فى باله فكرة ما ..

وهو ينظر إلى آخر سطور البردية..

****

- كيف لم تتوصل إلى شئ ما يا يوسف..؟

هتف رينيه امام يوسف الذى كان يجلس وقد بدت عليه آثار الإرهاق من السهر وكثرة التفكير، وهو يحاول أن يُهدئ رينيه قائلاً:

- أخبرتك بكل ما وصلت إليه يا رينيه، فما تحويه البردية هو مجرد رسالة تشير إلى تعاون الفراعنة مع آخرين من بلاد أخرى، والأخرى رسالة عادية لا تمت لقصة بنتائور بأية صلة.

تطلع رينيه إليه بنظرة متفحصة تحمل الكثير من الشك قائلاً:

- لا أظن أن الأمر قد توقف هنا يا صديقي ، إن فى عقلك شئ آخر.. فخبيراً بعلم المصريات مثلك لا أعتقد أنه يعجز أن يفسر بضع سطور من بردية غبية كتلك.

نهض يوسف غاضباً من مقعده وهو يشير بإصبعه إلى رينيه بصوتٍ عالٍ:

- لقد بذلت ما أستطيع ولم أدخر جهداً يا رينيه، وإن كنت تشك فى ذلك فتفضل هذه البرديات إعطها إلى أى شخص وإجعله يخبرك عما تحتويه وإستدع ....

قاطعه رينيه جاذباً إياه من يده قائلاً بغضب مكتوم:

- فلتجلس وتهدأ، ولا ترفع صوتك، ولا تنس فنحن لا زلنا فى باريس وغالباً لا زلنا مُراقبين.

جلس يوسف وهو يتنهد محاولاً السيطرة على غضبه وخصوصاً مع شعوره بالإرهاق، ورينيه يتطلع إليه مباشرة وهو يتمتم بصوت خفيض:

- والآن لدىّ سؤال لك ، ولكن عليك أن تخبرني به بصراحة، فنحن فى قارب واحد.
- وما هو..؟

تردد رينيه لحظة قبل أن يستجمع شجاعته ويواجه يوسف قائلاً:

- أعلم أن هناك صلة ما بينك ولنَقُل العالم الآخر بشكل ما، فأنت لديك القدرة على السحر ومعرفة الغيبيات، ولعلك تذكر موضوع بحثنا عن تلك البرديات، وعلمك بأمرها ومكانها بهذه السرعة بمجرد أن حل صباح اليوم التالى، وهذا لا يحدث إلا إذا كنت تستخدم سحراً ما كما يشتهر عنك بقريتك.

نظر إليه يوسف بتوتر وهو يمسح قطرات عرق تكاثرت على جبينه على الرغم من برودة الجو ويجيبه:

- فلنفترض أنه كذلك مثلاً، ألا تعلم أن علمك بالأمر قد يصيبك بشئ أسوأ مما قد تتخيل، فلا داعى لنتحدث فى هذا الأمر يا رينيه، ولسوء الحظ أنى لا أستطيع معرفة أو ترجمة تلك الألغاز بالفعل، فالأمر ليس بالشكل ولا بالبساطة التى تتصورها .
- وكالعادة لن أفهمك.. حسناً، فلتخبرنى بكل ما توصلت إليه مرة أخرى ونحن فى طريقنا للمطار..

وبالفعل قص عليه يوسف كل ما يعلمه عن قصة بنتائور و المومياء الملعونه، ودور الأغراب فيها والذين قضوا نحبهم فى نهايتها على يد الخونة، وقتها توقف يوسف عن الحديث وقد أنار فجأة فى عقله ضوء هائل، كيف فاتته هذه النقطه.. لكزه رينيه وهما فى طريقهما إلى الطائرة عندما وجده قد توقف فجأة :

- يوسف.. هيا أكمل، ماذا حدث..؟، ولماذا توقفت فجأة..؟، هل تذكرت شيئاً..؟

هز يوسف رأسه نافياً وقد لمعت فى عقله فكرة مجنونة :

- لا أبداً يا رينيه، ولكنى تذكرت بعض الشخصيات التى من الممكن أن تساعدنى فقد برز اسمين فى عقلى فجأة.

هتف رينيه وقد لمعت عينيه فى لهفة :

- إذن ماذا تنتظر..؟، هيا لنتواصل معهم بمجرد وصولنا لهالستات..

إبتسم يوسف فى قرارة نفسه عندما أتت على باله أيضاً زميلته الحسناء فى الجامعة، والتى هجرت سلك التدريس لتعمل فى شركة سياحية يملكها والدها.. فقد كان شعر بالفعل أنها الوحيدة القادرة على فك هذه الطلاسم لبراعتها السابقة فى فك الألغاز الفرعونية.. كما اعتادوا دائماً على اللجوء إليها عند وجود أى مشكلة تقابلهم..

أما الآخر فقد كان ذلك البروفيسور الألمانى كارل ريتشه الذى زامله لمدة سنة كاملة فى بريطانيا أثناء تحضير دبلومة فى مقارنة الحضارات المندثرة ومنها البابلية والآشورية وغيرها، وبالطبع يعلم الكثير والكثير عن أطلانتس ونظرية وجودها من عدمه.. وخاصة أنه يقيم فى فيينا..

شعر فى قرارة نفسه بالغباء الشديد، كيف فاتته تلك النقطة.. ألا وهى مكان دفن الغرباء.. كان من الطبيعى ألا يذكر "جت" المكان صراحة كما أوصاه رمسيس الرابع أثناء دفنهم، وبالطبع كان يعز عليه دفنهم دون المظاهر اللائقة أو حتى معرفة مكان مقبرتهم بما تحويه من أسرار، فترك تلك البردية التى توضح ذلك وتدل عليه، لكن كان من المستحيل أن يفهمها إلا المختصين فقط، وبالطبع لأنه يعلم مكان الدفن فوضع الألغاز كما ظهرت فى نهاية قصته، و بالتأكيد كان ماسبيرو على علم بكل ذلك فآثر ألا يسلم البردية الأخيرة، وكان من المستحيل أيضاً أن يتخلص منها، فكان بين نارين ففضّل فى النهاية أن يتركها لوقت آخر أو لشخص آخر يستطيع فك رموز السر المفقود لدى الفراعنة..

وتذكر سؤال رينيه، لماذا لا يستعين بالسحر لمعرفة ما الذى يعنيه ذلك اللغز الموجود بداخل البردية المجهولة، لكنه يعلم بالطبع أن ذلك لن يجدى نفعاً لعدة أسباب لا يعلمها رينيه، فقد كان العهد على إكتشاف المقابر ومحتوياتها فقط، وليس لمعرفة محتويات البرديات.. وعندما سأل ادوميت عن مكان البرديات كان يعلم ماهيتها ويعلم أنها مخفية فى مكان ما يخص ماسبيرو.

بالإضافة إلى ذلك فقد كانت فى كل مرة يطلب فيها المساعدة كانت تزيد كمية الدماء المطلوبة منه، لدرجة أنه شعر أنه لابد من الإقلاع عن الإستعانة بالجن أبداً فى تلك الحالات، وأن عليه أن يدخره للمرة الأخيرة، إذا تم إكتشاف المكان .. وبالفعل هو يشعر أنه بمقابلته لزميلته سيستطيع معرفة ما يبحث عنه وسيتوصل إلى حل ذلك اللغز ويتم الكشف عن كل ذلك فى القريب العاجل.

ابتسم عندما وصل الى هذه النقطة، فربط حزامه جيداً قبل أن تقلع الطائرة التى كانت فى طريقها إلى مطار فيينا بالنمسا..

****

كان الإتفاق مع رينيه أن يدعه ينزل فى أحد فنادق العاصمة النمساوية حتى يكون على راحته أكثر، ويستطيع التحرك بحرية لمقابلة البروفيسور كارل ريتشه، فقام بالإتصال به بمجرد نزوله فيينا، واتفقا على المقابلة فى اليوم التالى، حيث مقر عمله كمشرف عام على قصر (الشونبرون)، أندهش يوسف من طبيعة عمله فبعد حصوله على الدكتوراة فى مقارنة الحضارات أن يتم تعيينه مشرفاً عاماً على ذلك القصر عندما أخبره كارل بذلك..

كانت الساعة تشير إلى الخامسة مساءاً عند وصوله إلى بهو فندق غراند فيينا الفاخر، بعد أن ودعه ألبير و رينيه بعد أن أخذا بالطبع البرديات منه وتركاه.. فأودع حقيبته فى صالة انتظار الفندق لوضعها فى غرفه 812 حيث كان قد تم الحجز له صباحاً .. وخرج سيراً على الأقدام للتنزه بالقرب من الفندق الذى كان يقع على بعد ثلاث دقائق فقط سيرًا على الأقدام من دار الأوبرا العتيقة.. والتى سار بجوارها حتى اقترب من مبناها الهائل..فى المره السابقه لم تتح له أية فرصة لزيارة معالم المدينة العريقة وها هى الفرصه تتاح له أخيراً..

وقف مشدوهاً أمام المبنى العتيق للأوبرا، وكان يقاوم رغبة قاتلة تدفعه إلى الدخول.. فوقتها كانت تدور موسيقي موزارت وبيتهوفن وشوبرت وشتراوس فى رأسه.. كلّ هؤلاء الموسيقيون العباقرة مرّوا من فيينا وتركوا فيها بصمة أبديّة من حبّ الموسيقى والغناء والرقص.. وكلهم كانت حفلاتهم بداخل ذلك المبنى العتيق..

كان يعلم أن فيينا عاصمة الموسيقى في العالم، وتتمركز فيها أرقى وأفضل مدارس تعليم الموسيقى والرقص الكلاسيكي والحديث، وكذلك الغناء الأوبرالى ، والتي يقصدها المَوْهُوبُون والطموحون من كلّ مكان.

شعر أن عليه شكر رينيه لأنه أتاح له الفرصة أخيراً بالمرور هو أيضاً من هنا..

قاوم رغبته بالدخول، فقد كان عليه أن ينجز عمل آخر، ولكنه وعد نفسه بزيارة فى القريب العاجل، بعد أن ينتهى من هذا العمل، فقادته قدماه إلى الجوار حيث شارع التسوق الشهير كارتينر شتراسي، والذى كان يضم عشرات من المحلات التجارية كما كان يضم خمس مطاعم اختار يوسف احداها ودخل ليتناول عشاءاً خفيفاً على ضوء خافت ينبعث من كل منضدة..

أخرج هاتفه المحمول وفتح صفحة التواصل الإجتماعى للبحث عن زميلته وسام كمال حتى عثر أخيراً على صفحتها.. كانت كما هى بل بالعكس تصغر عاماً بعد عام، بينما هو تناثرت الشعيرات البيضاء على شعره وملأت ذقنه فى تناغم غريب..

ظل يتصفح صورها جميعاً وخاصة مع قطها الشيرازى الذى كان لا ينقصه سوى الإبتسام فى الصور..

أرسل لها رسالة على الفور:

((صديقتى الغالية.. أرجو أن تكونِ لا زلتِ تتذكرينى، كيف حالك أنتِ وقطك ذو الألوان الغريبة، أدعو الله أن تكونِ فى أحسن صحة أنتِ وأسرتك.. وسام.. أنا فى أشد الحاجة إليكِ يا صديقتى، فلدى لغزاً فرعونياً طلسم لن يقوم بحله إلا أنتِ ..فإن استطعتِ سأكون شاكراً لكِ كثيراً.. ولكنى أشك أنكِ ستستطيعين..))

كان يعلم أنه بالإضافة إلى إثارة فضولها للطلسم واللغز، فإنها ستثبت له أنها قادرة على حل ما هو أصعب منه عشرات المرات، قرأ الرسالة مرة أخرى قبل أن يضغط على زر الإرسال ليرسلها.

أغلق هاتفه عندما وصل إليه الطعام، وبدأ فى تذوق الطعام وهو يستعيد ذكرياتهم فى الجامعة منذ سنوات وسنوات..

****

فى صباح اليوم التالى، وعلى حسب الميعاد المتفق، كان يوسف يسير بجوار زميله السابق كارل الذى استقبله بترحاب، بينما ظل يوسف يسير مشدوهاً وهو يتطلع إلى جنبات القصر الفاخر الذى لم يتوقعه أبداً بهذا القِدم أو بهذا الحجم، بينما استمع إلى كارل وهو يتأبط ذراعه ليخبره عن القصر وكأنه يتحدث عن أحد أبنائه قائلاً :

- أتعلم يا صديقي أن كلمة "الشونبرون" بالألمانية المسمى بها هذا القصر تعني "النافورة الجميلة"، وقد تمّ بناء هذا القصر سنة 1683 ليكون شبيهًا بقصر فرساي، أترى القِدَم التاريخي يا يوسف..؟، وعلى الرغم أنه لم يفلح في تقليد القصر الفرنسي لكنّه فرض نفسه كواحدٍ من أجمل قصور الباروك في أوروبا، ولتعلم أنه لا يقتصر

جمال القصر على تصميمه المعماري فقط، وإنّما يمتدّ سحره إلى الدّاخل حيث يوجد فيض من التحف الفنية ذات طراز الروكوكو...

هز يوسف رأسه هاتفاً وهو ما زال مأخوذاً من تلك التحفة المعمارية :

- لم أكن أتوقع أنه بهذا الجمال يا كارل، كنت مندهشاً عندما أخبرتنى أنك مشرفاً عاماً عليه، فتساءلت.. أبعد كل دراساتك تستقر فى وظيفة روتينية فى أحد القصور الأثرية..؟

قهقه كارل وهو يهتف فى مرح:

- أنت لا تعلم كيف جاهدت للوصول إلى منصبي هذا يا يوسف، فالقصر أكبر مما تتخيل، فأنت لم ترى الحدائق التى تحيط بالقصر بعد، فهى حدائق شاسعة مصمّمة وفق الطراز الفرنسي، تمتدّ على طول 200 هكتار، تزيّنها التماثيل ونافورات مياه جذّابة.. ليس هذا فحسب، فبعد الإنتهاء من جلستنا تلك سآخذك فى جولة إلى داخل القصر.

كانا قد وصلا إلى غرفة كارل الفاخرة وجلسا سوياً، وهما لا زالا يتبادلان الحديث:

- أتعلم يا يوسف أنه توجد في القصر أقدم حديقة حيوانات في العالم..؟ إنها حديقة حيوانات الشونبرون التي مازالت تعجّ بالحياة إلى اليوم.
- حديقة حيوانات..؟!!
- نعم يا صديقي، أخبرنى ألا زلت تحب القطط..؟، فلدينا هنا فصائل نادرة سوف تراها بنفسك، إن قصر الشونبرون يا يوسف هو من أكبر القصور وأهمها في النمسا، وقد تمّ ضمّه إلى لائحة اليونسكو للتراث العالمي سنة 1996، والآن لا أريد أن أظل أتحدث عن معشوقي الأكبر، فلو بقيت أتحدث عنه لن ننتهى اليوم، أخبرنى عما تريد أن تعلمه عن أطلانتس كما أخبرتنى..

- الحقيقة يا كارل.. أريد أن أعلم من هم..؟، وكيف كانوا..؟، و أين ذهبوا..؟، وأين حضارتهم..؟، وهل كان لهم علاقة بالحضارة المصرية القديمة أو أية حضارات أخرى..؟

أشار إليه كارل وهو يهتف ضاحكاً:

- اووووووه يا يوسف، على رِسلك يا رجل، إن الأمر يطول شرحه لساعات، فأنت تريد أن أختصر لك حضارة كاملة فى بضع كلمات..

هز يوسف رأسه قائلاً فى محاولة للشرح لكارل:

- يا صديقي.. لا أريد كل ما تعلمه وإنما أريد فقط النظريات التى آمنت أنت بها وتيقنت من صحتها.
- ممم حسناً.. حسناً.

ومد يده إلى فنجان القهوة الموجود أمامه ليرتشف منه بضع رشفات قبل أن يبدأ فى شرح ما يعلمه عن القارة المفقودة أطلانتس :

- بدأ الأمر كله بمحاورة سجلها لنا التاريخ قبل أربعة وعشرين قرناً من الزمان، ففى القرن الرابع قبل الميلاد ذكر الفيلسوف الإغريقى الأشهر قصة أطلانتس فى إثنين من محاوراته الشهيرة وهما محاورة " تيماوس " ومحاورة " كريتياس " وفى محاوراته جمع "أفلاطون " بين أربعة وهم : الفلكى الإيطالى " تيماوس " ، والشاعر والمؤرخ "كريتياس"، والقائد العسكرى " هرموقراطيس "، أما الصديق الرابع فكان "أفلاطون " نفسه، ولقد جمع أفلاطون محاورته الأربعة فى منزل كريتياس، حيث دارت المحاورات بينهم حول أطلانتس التى أشار إليها " هرموقراطيس " باعتبارها جزء من التراث القديم المندثر، وهنا راح كريتياس يروى القصة التى سمعها من أجداده على لسان جده الأكبر " صولون" .
- أليس صولون هذا من يقال أنه قد قام بزيارة مصر قديماً..؟

- نعم، وصولون هذا رجل حقيقى ومشرع أثينى كبير ، على الرغم من أن الكثير قد نفوا وجود هذا الشخص إلا أنه قد زار مصر بالفعل عام 950 ق.م ، وقد روى أنه سمع من كهنة " سايس" وهى مدينه فى شمال دلتا مصر قصة عن إمبراطوريه أثينية عظيمة سادت حوالى عام 9600 ق.م ، وعاصرتها فى الزمن نفسه إمبراطورية عظيمة أخرى تسمى أطلانتس تقع خلف أعمدة هرقل أو مضيق جبل طارق فى زمننا هذا.. وقبل أن يتبادر إلى الذهن أن كهنة قدماء المصريين كانوا يقصدون قارة أمريكا بروايتهم هذه .. ففى قصتهم قال كهنة المصريين القدماء أن سكان أطلانتس كانوا يعيشون فى سلام وكانت قارتهم أشبه بجنة الله فى الأرض حتى سرت روح العدوان ورغبة الإستعمار فإنطلقوا يستولون على شمال أفريقيا حتى حدود مصر وجنوب أوروبا حتى اليونان، وكادوا يسيطرون على العالم أجمع لولا أن تصدت لهم أثينا، وانقضت عليهم بأسلحة رهيبة.. وفى القصة حدث دمار وخراب هائل خلال ليلة واحدة وتفجرت الزلازل والفيضانات التى دفنت مقاتلى أثينا تحت الأرض.. وأغرقت أطلانتس كلها فى قلب المحيط ، ليظل يحمل إلى يومنا هذا إسم المحيط الأطلسى.
- هكذا فقط يا كارل..؟، على الرغم من قرائتي لآلاف البرديات وعشقي للتاريخ الفرعونى بكافة أسره، إلا أن هذه القصة لم تسجلها أوراق البردى فى مصر القديمة، ولم تحكها جدران المعابد الفرعونية، ولكن سجلتها فقط محاورة كريتياس كما قلت يا كارل، والتى كتبها أفلاطون ليضعنا أمام أكبر لغز حضارى فى التاريخ.. ويمر أربعة وعشرون قرناً من الزمان مرت دون أن يجيب مخلوق واحد هذا السؤال بشكل قاطع .
- أتعلم يا يوسف، كان يمكن أن يظل الأمر مجرد أسطورة وقصة أنيقة جميلة تتوارثها الأجيال لولا أن حدث فى العالم فجأة تطور جديد..
- تطور جديد..؟!!
- نعم.. طروادة.. كلنا نعلم عن المدينة الخيالية طروادة وذلك النسيج المبدع من الأفكار الذى أحاط به هوميروس قصة حربها بخيال جامح، ومع مرور السنين والقرون وقر فى العقول والأذهان أن طروادة هذه مكان خيالى، وأن حربها ليست سوى محض إبداع شاعر عظيم، ولكن فجأة وفى عام 1871م جاء أثرى ألمانى يُدعى " هينديش شلسمان " ليهدم كل هذا رأساً على عقب ويباغت العالم كله بحقيقة جديدة..

ثم مال على يوسف وهو يحاول أن يستشف الفضول فى عينيه وهو يُكمل قائلاً:

- حقيقة طروادة.. ففى ذلك العام، وفى منطقه هيسارليك فى شمال غرب تركيا، وفى نفس الموقع الذى حدده هوميروس فى ملحمتيه الشهيرتين، كشف " شليمان " بقايا طروادة.. كان الكل يسخر منه عندما راح يبحث عن مدينة خيالية حاملاً معوله فى يد وملحمة هوميروس فى اليد ألأخرى.. واتهموه وقتها بالحماقة والخبل لأنه يبذل كل هذا الجهد إستناداً إلى ملحمتين أدبيتين، وليس إلى مراجع علمية وتاريخية مؤكدة، ولكن شليمان فعلها وعثر على طروادة، وانتشلها من بين الأنقاض ومن تحت الرمال والركام.. وهنا يا عزيزى يوسف إنخرست كل الألسنة المعارضة والساخرة.. وتحدثت ألسنة أخرى تماماً ..

ابتسم يوسف مُعقباً على حديث كارل وعينيه تلمع بذلك البريق الذي يحتويك عندما تمسك بين يديك بكتاب معلومات شيق ولا تستطيع أن تتركه دون أن تُنهيه:

- لو طروادة التى تعامل معها الكل باعتبارها خيال محض قد برزت من تحت الرمال كحقيقة واقعية تتحدى كل معارض، فماذا عن " أطلانتس" ..؟، هل يمكن أن تكون بدورها حقيقة هى الأخرى..؟

- ممتاز يا يوسف، هذا السؤال تحديداً طرحه جمع هائل من العلماء ومن الباحثين والدارسين والمهتمين بتاريخ وأسطورة أطلانطس وعلى رأسهم "إيجنواينوس دونيللى" .

- من..؟!!

- دونيللى.. لقد كان شاب نابه ولد فى فلادلفيا ألأمريكيه عام 1831 م ، وأظهر نشاطاً وذكاءً غير عاديين طوال فترات شبابه، وفى الثامنة والعشرين من عمره وإثر اهتمامه بالسياسة وشئونها تم إنتخاب دونيللى كحاكم لولاية مينوسيتا، وبعدها بأربعة سنوات أصبح عضواً فى الكونجرس الذى قضى فيه دورتين كاملتين مدتهما ثمانى سنوات، وعلى الرغم من كل هذا كان دونيللى يعانى من وحدة شديدة بعد وفاة زوجته وانتقاله إلى واشنطن، فراح يقضى كل وقته فى القراءة ويلتهم كتب مكتبة الكونجرس إلتهاماً.. ومن بين عشرات الموضوعات التى رأها ودرسها دونيللى موضوع واحد جذب إنتباهه وخلب لبه وأشعل عقله.

- أطلانتس..

- هى بالفعل يا يوسف، وبنهم لا مثيل له راح دونيللى يقرأ كل ما كُتب عن أطلانطس فى عشرات بل مئات الكتب، ثم راح يجرى دراساته الخاصة حولها، واهتم بشدة بكشف شليمان لبقايا طروادة، ثم جمع كل هذا بعد

سنوات من العزلة والدراسة ليُصدر كتابه " أطلانطس وعالم ماقبل الطوفان " فى صيف عام 1882م ، وفور صدوره ولأنه يحوى خلاصة عمر بأكمله، حقق هذا الكتاب شهرة واسعة ونجاحاً منقطع النظير ، مما شجعه على أن يُصدر فى العام التالى مباشرة كتابه الثاني " راجناروك... عصر النار والدمار" الذى ناقش وفند الكوارث الطبيعية التى يمكن أن تكون السبب فى دمار وغرق " أطلانتس" ، وفى نظريته افترض دونيللى أن أطلانطس كانت لها مستعمرات عديدة خارج حدودها وأن أقدمها هى مصر، التى أكد أن حضارتها هى صورة طبق الأصل من حضارة أطلانطس القديمة.

نظر إليه يوسف بتعجب وهو يهتف ببطء:

- مصر مستعمرة من أطلاننتس..؟!!!، هذا ما لم يخطر ببال أحداً أبداً.
- لسبب بسيط يا يوسف، إنه يتصور أن الحضارة المصرية القديمة قد ظهرت فجأة، وأنها لم تمر بمراحل التطور المعتادة.
- حسناً.. ولأن لهذه الحضارة علومها التى قد نبتت من منبع مجهول، مما جعله يفترض أن ذلك المنبع هو أطلانطس نفسها.. إذن ففى رأيه ووفقاً لنظريته كانت أطلانطس هى أم الحضارات وزعيمة العالم القديم إن صح القول والأصل الذى انتقلت أفرعه فيما بعد ذلك إلى كل مكان فى العالم.
- ولذلك فقد قوبلت نظرية دونيللى بتأييد شديد من عدة جهات، وبهجوم عنيف للغاية من جهات أخرى، وكما يحدث لكل مفكر يتجاوز الحدود المعتادة فى عصره، تحول دونيللى إلى قديس فى نظر البعض، وشيطان فى نظر البعض الآخر، إلا أن هذا لم يمنع الجانبين من الإعتراف من أنه أول من وضع قواعد البحث عن قارة أطلانطس وأسطورتها المفقودة، وقبل أن يلتقط الناس أنفاسهم ويستوعبون ذلك كانت فى إنتظارهم مفاجأة جديدة..

إبتسم يوسف وهو يتطلع لكارل بإعجاب شديد قائلاً:

- من أين تأتى بكل هذه المعلومات يا كارل، أشعر وكأنى أشاهد فيلماً سينمائياً عن تلك الحضارة.

ضحك كارل بود وهو يهتف :

- لأنى أحب التاريخ القديم يا صديقي، وأنت أيضاً ، لا تنس أنك مثلى وأكثر إذا تحدثنا عن التاريخ الفرعوني ..

قالها وتراجع فى مقعده ليستعيد جديته وهو يُكمل:

- دعنى استكمل حديثي قبل أن أنسي.. فى عام 1861 م كشف علماء الآثار أطلال قصر الملك " أشور نيبال " حاكم مملكة آشور فى القرن السابع قبل الميلاد، وبين تلك الأطلال عثروا على أعظم كشف أثرى وثقافى فى المنطقة، فقد عثروا على مكتبة كاملة سليمة تحوى آلاف الألواح الطينية المكتوبة بأسلوب الكتابة المسمارية القديمة، والتى تضم ثروة هائلة من المعلومات عن مختلف الأمور، وعلى رأسها قوائم وسجلات كاملة لأسماء المدن والأقاليم والآلهة التى كانت تُعبد أيامها، هذا الى جانب مئات القصائد وعشرات الأساطير والقواميس أيضاً، قواميس باللغة الأشورية، وبلغات أقدم منها كالبابلية والسومرية، وقواميس تضم كلمات آشورية ومعانيها بلغات مختلفة، بل وطرق نطقها أيضا ..

خمسة وعشرون ألفاً من الألواح المعرفية يا يوسف تم نقلها جميعاً إلى المتحف البريطانى فى لندن لوضعها تحت بصر ويد الباحثين وعلماء اللغات القديمة.. هل تتخيل ذلك الكنز المعلوماتى..؟

ومن بين عشرات العلماء الذين إنبهروا بهذه الذخيرة الأثرية المدهشة والذين قضوا عمرهم كله فى دراسة الألواح والوثائق وترجمتها، كان العالم البريطانى " راولونسون " الذى عثر على اسم تردد أكثر من مرة فيها، وهو اسم "ديلمون" .. لم يكن الاسم جديداً أو غريباً، فقد تم العثور عليه قديماً فى نقش على جدار قصر الملك سرجون الآشورى يسجل فتوحات الملك وانتصاراته الحربية.

وعلى الرغم من أن أحداً سواه لم يتوقف كثيراً عند اسم ديلمون فقد إنشغل راولونسون به كثيراً، وراح يجمع المعلومات عن حضارة ديلمون القديمة التى وردت فى النقوش القديمة باعتبارها جنة الله فى الأرض، ففى أراضي ديلمون القديمة كما تقول النقوش والأساطير، كانت الأرض دوماً نظيفة ومشرقة وكل شئ جميل وهادئ، حتى الأسد لا يفترس، والذئب يصادق الحمل، ولا أحد يمرض أو يتألم أو يبلغ من العمر عتياً .. كان الأمر يا يوسف أشبه كالعادة بدعابة، حيث لم يصدق أحد هذه الترهات..

ولكن راولونسون نشر أبحاثاً تشير إلى العكس تماماً، ووحده من دون كافة علماء الآثار ظل يؤكد أن ديلمون حقيقة.. بل ورصد طبيعتها وآلهتها وعلى رأسهم الإله أنزاك..

وكالمعتاد سخر الكل من أبحاث راولونسون ودراساته، بل اتهمه البعض بالإغراق فى الخيال والغوص فى عالم

الأحلام.. ولكن لم ينتهى الأمر عند هذا الحد يا يوسف، فقد جاء عام 1880م ليكتشف الرحالة البريطانى كابتن ديوراند حجراً فى (جد حفص) وهي إحدى البلدات البحرانية العريقة، والتى احتفظت بمفتاح سر ديلمون الغامض تحت أنقاضها.. ذلك المفتاح الذي كشف عن أعظم سر تاريخي لحقبة ما قبل التاريخ، حيث عُثر عليه في مدرسة العلامة آية الله الشيخ داوود بن شافيز ، نعم هذا الإكتشاف العظيم يثبت بكل وضوح مرة بعد مرة أن البحارنة هم الإمتداد الطبيعي لحضارة ديلمون، وحتى يومنا هذا وعلى حسب وجهة نظر العرب هناك، المهم أنه كان على الحجر عبارة واضحة بمنتهى الدقة تقول:

((هذا قصر "ريمانوس" خادم الإله " أنزاك " من قبيلة عقير))

وهنا تبدلت كل الآراء، وبدأ السؤال يطرح نفسه بشدة ما حقيقة " ديلمون " ، أهى حقيقة أم مجرد أسطورة وردت فى نقوش قديمة .. وكإجراء طبيعى كلفت الجمعية الملكية الأسيوية راولونسون بمهمة تحليل تقرير ديوراند والتعليق عليه، وفى التقرير ربط راولونسون مابين ديلمون والبحرين وأكد أن الأخيرة تنهض على أطلال الأولى.

وفى عام 1900م ومن خلال بعثة أمريكية من جامعة بنسلفانيا عثر "هيلير بخت" رئيس البعثة على خمسة وثلاثين ألف لوح سومرى، تحوى طناً آخر من المعلومات فى " نيبور" وهى منطقه ما بين النهرين، من بينها نص سومرى يشير أيضاً إلى ديلمون باعتبارها أرض العبور، المكان الذى تشرق منه الشمس ..

ولقد عاصر " أيجانايتوس دونيللى " هذا الكشف العظيم وربط آخر مقالاته بين أطلانطس وديلمون قبل أن يتوفاه الله فى عام 1901م ، تاركاً الأمر كله لمن بعده.

أما حضاره ديلمون نفسها فقد إنتظرت حتى الحرب العالمية الثانية، عندما أتى "د.بيتركورنال " لينقب فى تلال المدافن فى البحرين، ويخرج بالأدلة والبراهين القاطعة على أن حضارة ديلمون لم تكن مجرد أسطورة، بل هى حقيقة أعلنت عن نفسها وأبرزت وجودها وآثارها للعالم كله.. فالأساطير إذن تتحول واحدة بعد الأخرى من عالم الخيال إلى عالم الواقع والوضوح، كطروادة، وديلمون... ومن يدرى.

أخذ يوسف نفساً عميقاً وكأنه كان يبذل مجهوداً خرافياً لإستيعاب كل ذلك الكم من المعلومات التى تتدفق من كارل ليقول:

- حسناً يا كارل، فماذا عن أطلانطس إذاً..؟

- جميل جداً، تُرى ما الذى يمنع كونها أيضاً حقيقة واقعة لقارة حكمت الدنيا قبل أن تودى بها كارثة رهيبة طبيعية أو صناعية فتغرق بكل مافيها ومن فيها فى أعماق أعماق المحيط الأطلنطى..؟

هذا بالضبط ما طرحه الميثولوجى الإسكتلاندى " لويس سبنس " فى مجلته ذات العمر القصير والتى حملت اسم الأسطورة نفسها، إسم أطلانطس، وعلى الرغم من أن سبنس هذا لم يحظ بالشهرة الشعبية التى حظى بها نظيره دونيللى، إلا أنه كرس جهوده للبحث عن القارة المفقودة، ووضع خمسة كتب حولها كان أشهرها (مشكلة أطلانطس)، والذى نشر عام 1924م ،بحث فيها عن القارة المفقودة والمعروفة مثل حضارة مصر وكريت والحضارة الأزيلية فى أوروبا والتى ظهرت قبل عشرة آلاف عام قبل الميلاد، وهو نفس التاريخ تقريباً الذى حدده أفلاطون لغرق أطلانطس، ثم عاد سبنس ليؤكد أن حضارات مصر ويوكاتان وبيرو قد ظهرت فجأة ودون مقدمات، لتنتقل من العصر الحجرى إلى عصر التقدم دون المرور بمراحل وسطية، مما يوحى بأنها قد إكتسبت حضارتها من جهات أخرى..

وهنا نعود إلى فكرة أن تكون الحضارة المصرية عبارة عن مستعمرة أطلسية خارج حدود أطلانتس، ولكنه على الرغم من صعوبة تقبل الفكرة، إلا أنه يحظى حتى هذه اللحظة باحترام وتقدير العديدين، وإن لم يقدم دليلاً مادياً واحداً على كل ما قاله.. وبدأت الأقاويل والنظريات الحديثة فى الظهور بكثرة، ولكن هناك نظرية أخرى أكثر غرابة، وأنا شخصياً أميل كل الميل إلى تصديقها بسبب أنى كنت من المؤيدين لها فى السنوات الأخيرة وسأخبرك عن السبب ولكن عليك بزيارته فى أقرب فرصة يا يوسف

- حسناً أرنى ما لديك.. وماذا تقول تلك النظرية..؟

- إستعد للمفاجأة إذاً يا صديقي .. فالنظرية تقول أن أطلانطس لم تغرق فى أعماق المحيط الأطلنطى قط.. بل لم تغرق فى أى محيط آخر أو أى بحر آخر.. لقد غرقت فى قلب الرمال.

قهقه يوسف وهو يميل ناحية كارل قائلاً:

- نعم أعلم تلك النظرية فهى تقول أن أطلانطس قد غرقت وسط رمال الصحراء الكبرى التى تمتد غرب ليبيا وشرق الجزائر، وأن مصطلح الغرق هذا يعنى أنها قد دفنت تحت أطنان وأطنان من الرمال على مدى الزمن..أعلم تلك النظرية، فقد قرأت عنها يا صديقي ولم أفكر فى تكذيبها أو تصديقها ..

أشار إليه كارل قائلاً:

- ولكن الغرق فى الرمال يختلف تمام الإختلاف عن الغرق فى قلب المحيط يا يوسف، وعبقرى مثل أفلاطون لم يكن ليضعنا أمام خطأ لغوى رهيب كهذا، وحتى كهنة المصريين أنفسهم ما كانوا ليقعوا فى هذا الخطأ قط.. ولكن العجيب أن أصحاب نظرية الغرق فى الرمال كانت لديهم نقطة قوية يمكن أن تؤيد نظريتهم.. نقطة تكمن فى نهاية الصحراء المشار إليها، وبالتحديد فى كهف من الكهوف، وهو كهف عجيب جداً..

- كهوف تاسيلى ...أليس كذلك..؟

- رائع يا يوسف.. من الواضح أنك على علم بكل ذلك، فلماذا تسألنى إذن..؟

- العفو منك يا صديقي، فأنت كمن أمسكت حبات من الأحجار الكريمة لتصنع مسبحة فى منتهى الروعة، أكمل بالله عليك..

إعتدل كارل وأخذ نفساً عميقاً ليُكمل ما بدأه:

- فى جنوب شرق الجزائر تنتشر مجموعة من الكهوف فى مرتفعات " تاسيلى "، وتستقر هناك منذ آلاف السنين، وفى عام 1938م وفى أثناء رحلة إستكشافية يقودها الرحالة الشهير "برنبان " تم إقتحام تلك الكهوف ربما للمرة الأولى.. ليجد أمامه هو وفريقه مفاجأة مذهلة...

إعتدل يوسف بدوره وهو يُصغى بإهتمام إلى كارل الذى أعجبه أنه إستطاع أن يثير الفضول لدى يوسف، وهو يستدرك:

- فعلى جدران أول كهف اقتحموه كانت هناك نقوشاً ورسوماً عجيبة لمخلوقات بشرية أو شبه بشرية تطير فى السماء، وترتدى أجهزة طيران مثيرة للغاية، ونقوش أخرى لسفن فضاء أو ما بدا وكأنها سفن فضاء، وهناك رسوم لرجال ونساء يرتدون الثياب الحديثة ويحملون المظلات، ورسوم أخرى لضفادع بشرية تحت سطح الماء فى أزياء فضائية.. وهنا إتسعت عيون الكل فى ذهول ليقوموا بعدها برصد الأمر ونقل النقوش والرسوم إلى أوراقهم دون أن يدلوا بدلوهم فى شأنها بإعتبارهم مجرد رحالة وليسوا من علماء الآثار أو الجيولوجيا.. وعلى

الرغم من أن" برنبان " قد نشر مقالاً عن كشفه هذا فى واحدة من المجلات العلمية والكشفية الشهيرة، إلا أن أحداً لم يول الإهتمام الكافى أو إعتبر الأمر خارقاً للمعتاد، بل لقد بلغ الأمر بالبعض أن تصوروا أن ماعثر عليه برنبان مجرد نقوش ورسوم حديثة لأصابع صبيانية عابثة فى أثناء رحلة كشفية أو حتى رحلة لهو معتادة..

ثم جاء الرحالة هنرى لوت عام 1956م وجذبته كهوف تاسيلى إليها فزارها حاملاً معدات التصوير التى التقط بها مئات ومئات الصور لكل النقوش والرسوم، وعندما طالع الخبراء تلك الصور فاجأوا العالم عندما قالوا أن التقدير الأولى لعمر تلك الرسوم بناء على الصور كان مايقرب من عشرة آلاف عام..

- لقد سمعت عن ذلك بالفعل، ووقتها أُصيب المهتمون بالأمر بالحيرة وكثرت التفاسير..
- نعم، تخيل عشرة آلاف عام، وقتها إندفع العلماء والباحثون إلى كهوف تاسيلى، وقد جرفهم الحماس جرفاً، وراحوا يفحصون النقوش والرسوم عن قرب ويجرون عليها اختباراتهم العلميه والكربونية، وقد جاءت النتائج مذهلة.. فالإختبارات كلها قد أجمعت على أن العمر الفعلى لتلك النقوش هو سبعة عشر ألف عام .. مائة وسبعون قرناً من الزمان يا صديقي حملت إلينا نقوشاً تناسب أو ربما تفوق العصر الذى تم كشفها فيه.. وظل ذلك لغز إلى الآن لا يمكن حله ..
- وياله من لغز..
- لغز عجيب رهيب حمل لسنوات وسنوات اسم " لغز كهف تاسيلى "، حتى ظهرت تلك النظرية التى تقول إن أطلانطس كانت تستقر فى ذلك المكان وغرقت فى رمال الصحراء .. عندئذ فقط اتخذ لغز كهوف تاسيلى أبعاداً جديدة.. فمن وجهه نظر المؤيدين للنظرية كان أصحاب تلك النقوش هم الذين نجوا من دمار أطلانطس، والذين لم يجدوا أمامهم بعد فناء حضارتهم سوى أن يتركوا لنا نقوشاً غائرة لا يمحوها الزمن ليخبرونا بقصتهم.. وليحذرونا منها أيضاً.. فمع ربط أطلانطس بتلك النقوش القديمة والمتقدمة جداً تطورت قصة دمار أطلانطس فى النظريات المستحدثة، وارتبطت بالتأثيرات التى شهدها العالم منذ سنوات قليلة آنذاك، لتصبح لدينا قصة جديدة تماماً.. فما دام سكان أطلانطس كانوا متقدمين إلى هذه الدرجة كما تقول نقوش كهوف تاسيلى، فهذا يعنى أن فناء قارتهم لم يكن بسبب سلسلة من الكوارث الطبيعية المتتالية كما قال " لويس سبنس " مؤيداً "إيجنا تيوس دونيللى".

- بالطبع يا كارل، سيكون الفناء كما وصفه أفلاطون تماماً فى محاورتيه الشهيرتين، لقد فنت أطلانطس فى يوم وليلة، فنت بواسطة انفجار ذرى رهيب أو طاقة أخرى أكثر قوة لم نتوصل إليها فى حضارتنا بعد، ويا لها من نظرية.
- بالضبط يا يوسف، لقد قلبت الأمور كلها رأساً على عقب، ومزجت كل شئ ببعضه، وخرجت إلينا بنتيجة عجيبة شديدة التوتر والتعقيد إلى أقصى حد، ومازال البحث جارياً عن أكثر الألغاز التي حيرت العلماء حتى عصرنا هذا، وفى لغز محير جداً كيف مُحيت مدينة أو مستعمرة أطلنطس فى يوم واحد بواسطة شعاع، ومن وضعوا تلك الرسوم على الكهف كيف علموا بهذا، أنه شئ غريب بالفعل.
- وأنا أيضاً يا كارل أميل معك إلى نظرية الغرق فى الصحراء ..

أشار إليه كارل قائلاً:

- عليك بزيارة كهوف تاسيلى فى أقرب فرصة يا يوسف، وستندهش من الرسوم الموجودة هناك.
- فى القريب بإذن الله يا صديقي، فلقد أثرت فضولى بالفعل لرؤيتها.

قالها يوسف وهو يتطلع إلى ساعته فوجد أنهما ما زالا يتحدثان منذ ما يقارب الساعتان، فإعتذر لكارل على إضاعة وقته بهذا الشكل، لكن الأخير لم يتركه ودعاه بالفعل للتنزه فى حديقة القصر..

وقبل توديعه أصر كارل على تناول العشاء الليلة مع يوسف ثم الذهاب معاً إلى حفل أوركسترا فى الأوبرا، مما جعل يوسف يكاد يطير فرحاً فى فناء الحديقة ..

****

خرج يوسف إلى المدينة مرة أخرى ليتجول فى شوارعها الفسيحة، ثم كان عليه أن يتوجه إلى أحد المقاهى لتذوق القهوة النمساوية، حيث تقدّم المقاهي لزوّارها قائمة طويلة غنيّة بأنواع القهوة التي يُعَدّ معظمُها خصيصاً لمقاهي المدينة، مثل قهوة "إينشبينر "وهي قهوة ثقيلة تُقدّم في كأس وتُتوَّج بالكريمة المخفوقة، ويقدّم إلى جانبها السكر الناعم.

وبالفعل جلس على أحد المقاهى بالقرب من الميدان الأشهر، وطلب تلك القهوة المعروفة، فللمقاهي التقليدية في فيينا طقوسها الخاصّة، حيث يلتزم النادل بتقديم كأس ماء لكلّ زبون حتّى وإن لم يطلب، كعلامة احترام وتقدير وإكرام له،

فابتسم يوسف وهو يدرك أنهم قد أخذوا هذه العادة عن العرب المشهورين بالجود وإكرام الضيف، فقد إحتك أهل فيينا بالعرب نتيجة حصار المدينة من طرف الجيش العثماني مرّتين.. ويقال أنّه جرّاء هذا الحصار، تعرّف أهل فيينا للمرّة الأولى على حبوب البنّ الدّاكنة، وتذوّقوا طعم القهوة المرّة، ولكنّ المذاق المرّ لم يعجبهم فأضافوا إلى القهوة الكريمة والعسل، وهكذا بدأت قائمة أنواع القهوة تطول شيئاً فشيئاً، حتّى وصلت إلى ما هي عليه اليوم...

و بالفعل اقترب منه النادل حاملاً القهوة وكأس الماء بالإضافه إلى طبق حلوى كرواسان فابتسم يوسف فى قرارة نفسه مرة أخرى عندما تذكر أن الحلوى الشهيرة تمّ ابتكارها في فيينا عند هزيمة الجيش العثماني وفكّ الحصار عن المدينة، وقد أخذت الحلوى التي صنعوها شكل "هلال"، وهو الشكل الذي كان يرمز للجيش العثماني، وكانوا يلتهمونها انتقاماً لمدينتهم التي تعرضت للأذى، يا لها من طريقة مبتكرة للإنتقام... أمسك يوسف بها وهو ينظر إليها ويتمتم:

- عجباً لذلك الإنتقام .. فعندما تصل رغبة الإنتقام فى الإنسان إلى حد الهوس والجنون فإنه يُخلد المنتقَم منه وقد يُدخله التاريخ من حيث لا يدرى.

بمجرد تناول يوسف القهوة لمح فى انعكاس صورته فى اللوح الزجاجى المطل على الشارع سيارة رمادية الشكل تتبع أسطول السيارات الخاص برينيه.. وأحدهم يجلس فيها وتذكر أنه قد رأي ذلك الرجل فى حديقة الشونبرون.. مما جعله يتمتم فى سخط:

- تباً لك يا رينيه، فأنا لن أهرب أيها الغبي، فلماذا تحص عليّ أنفاسي....؟

قالها يوسف وقد قرر أنه سيقضي طوال اليوم فى التنزه حتى ميعاد العشاء مع كارل وحفل الأوبرا مساءاً.. كم تمنى أن يظل فترة أكبر فى فيينا عاصمة الجمال..

أفاق يوسف على أزيز هاتفه لوصول رسالة على صفحته على الإنترنت ، ففتحها ليتفاجأ برد زميلته..

((لست فى القاهرة... قابلنى تمام الثالثة يوم الثلاثاء القادم فى آيا صوفيا بجوار عربة الذرة المسلوق))

وما إن إنتهى من قراءة رسالتها حتى هتف فى سخط:

- اللعنة يا وسام..آيا صوفيا فى تركيا.. أرجو ألا يكون مقلباً من مقالبها المعتادة..

ثم رد على الرسالة بأخرى مقتضبة :

((تركيا..!!، حسناً.. سأكون هناك فى الميعاد، ادعو الله أن تكونى جادة ..))

وتم بالفعل إستلام الرسالة ولكنها لم تعقب.. فأغلق يوسف هاتفه وهو يكاد ينفجر غيظاً، مما جعله يُحدث نفسه قائلاً فى سخرية:

- أين بجوار عربة الذرة يا وسام ..؟، أتدفعين مالاً مقابل عدد حروفك ..

كان اليوم هو الأحد مما يعنى أنه لم يتبق سوى يومين ليكون فى تركيا فى الميعاد المتفق عليه..

****

الفصل السابع

****

آيا صوفيا

****

إن الغموض دائماً ما يجذب النفس البشرية وكأنه يتحداها لتسبر أغوار العقل وتغوص فى أعماق المجهول، ربما هنا يكمن سر الحياة وروعتها أو ربما الحياة فى حد ذاتها هى رحلة بحث دائمة ربما عن السعادة أو عن الحب أو حتى عن هدف أو فكرة ليعيش الإنسان ويموت من أجلها.

****

فى صباح يوم الاثنين كان يوسف يجلس مع رينيه فى بهو الفندق، بعد أن رفض الذهاب إلى قصر الأخير لبُعد المسافة، ولأنه كان عليه الذهاب إلى اسطنبول فى اليوم التالى، بعد أن تم الحجز له فى طائرة المساء ليمكث فى فندق مرمرة تقسيم، والذى يقع بالقرب من ميدان تقسيم ليكون قريباً من الميعاد المنتظر مع وسام، كان يوسف يحاول أن يشرح لرينيه ضرورة سفره إلى تركيا للمرة العاشرة، بالرغم من عدم إقتناع الأخير الذى هتف فى حنق:

- تركيا يا يوسف..؟!!!

تنهد يوسف متأففاً قائلاً فى نفاذ صبر:

- نعم للمرة العاشرة يا رينيه، فمصدر معلوماتى قد أصر على مقابلتى له فى اسطنبول لإنشغاله، لذلك علىّ أنا أيضاً إنهاء الأمر ومقابلته لكى ننهى هذا الأمر.

تمتم رينيه فى حذر:

- وهل أنت واثق منه..؟

أشار يوسف بيديه قائلاً :

- ليس أمامى غيره، وأعلم أنه على دراية تامة بكل تلك الرموز المبهمة للفراعنة.
- لا أدرى ماذا أقول لك.. ولكنك تُصعب الأمور علىّ بالفعل، لقد كنت أظن أنك الوحيد القادر على فك رموز تلك الشفرة، ولكننا إرتبطنا سوياً بسبب تلك البرديات الملعونة، فالبرديات معى وأنت من يعرف الطريق لفك رموزها ودلنا إلى ما تريد تلك البردية إخبارنا به ، لذلك فأنا لست فى موقف يسمح لى أن أقرر البقاء معك أو الإستغناء عنك و......

قاطعه يوسف بغضب..:

- أى أمور تلك التى أُصعبها عليك يا رينيه، أولاً لا تنس أنك لولاى لم تكن لتصل إلى تلك البرديات ولو ضاعفت عدد سنين عمرك، كنت ستظل تدور فى حلقة مفرغة.. وثانياً فأنا لم أطلب منك أن تنتقل معى أو تضطر إلى

إرسال بعض كلابك ليقتفون أثري فى كل مكان كما حدث بالأمس وأول أمس منذ أن عدنا من فرنسا.. وثالثاً يا سيد رينيه فمجرد عودتى إليك وإخبارك بأننى قد توصلت إلى المصدر الذى من المحتمل أن يقدم لى الحل على طبق من فضة، ويحل ذلك اللغز، فهذا يدل على حسن نيتى فلو كنت أنوى......

قاطعه رينيه بدوره وهو يحاول تهدئته:

- فلتهدأ قليلاً يا يوسف، فأنا لم أقل أنك تنوى السرقة، وموضوع تتبعك هذا فلم يكن سوى إجراء بسيط لحمايتك فقط.. وكل ما قصدته أن الأمر قد بدأ يخرج عن المألوف، وقد بدأت أشعر بالملل.. كل ما لدينا هو بردية تثبت وجود حضارة ما كما أخبرتنى، ووجود تعاون بينهم وبين الفراعنة.. حسناً ماذا جنيت أنا من كل هذا..؟، ولماذا أخفاها ذلك المخبول جدى..؟ وفوق كل ذلك نجد تلك البردية وقد ذيلت بعدة أسطر ليس لها أية فائدة.

تنهد يوسف قائلاً فى حنق:

- لم أطلب منك المجئ معى .
- حسناً، سأتركك تذهب إلى إسطنبول، وسأنتظرك هنا فى قصري ولكن.....

قاطعه يوسف وهو يُكمل :

- لكنك تريد أن تضع شروطاً قبل أن ننتهى من هذا الأمر، الذى بدأناه معاً وسننهيه معاً..

تراجع رينيه فى مقعده وهو يقول ببطء وبلهجة مستفزة:

- إذا لم تصل إلى أية حلول فى تركيا، فسأضطر آسفاً إلى الإستعانة بأحد آخر..

هتف يوسف مستنكراً وهو يميل للأمام ليواجه رينيه مباشرة:

- أحداً آخر..؟!!، إستدع ولو شئت نصف سكان الكرة الأرضية فلن يفك أحد هذه الطلاسم مهما حاول..

ابتسم رينيه بخبث قائلاً:

- لا تكن واثقاً إلى هذا الحد يا صديقي، فلست وحدك الذى تمتلك المصادر.

إنعقد حاجبا يوسف وهو يتطلع إلى رينيه فى شك قائلاً:

- ماذا تقصد يا رينيه ..؟، هل استعنت بأحد ما أو عرضت تلك البرديات على أحدهم..؟

لوح رينيه بيديه وهو يقول فى برود :

- لم يحدث حتى هذه اللحظة يا يوسف، لكن لا تضمن أفعالى خلال الأيام القادمة.. إن عُدت إليّ مرة أخرى خالى الوفاض..

قالها وهو يتطلع إلى ساعته ويهب واقفاً معلناً إنتهاء الحديث عند هذا الحد قائلاً:

- والآن علىّ أن أتركك، فلدىّ موعد هام.. سأنتظرك مساء الأربعاء يا يوسف، لا تنس.. ستجد ألبير فى إنتظار طائرة التاسعة مساءاً، لنعلم بعدها ما هى الخطوات التى سنقوم بها..؟
- حسناً، سأكون هناك فى الميعاد.

نهض يوسف بدوره ليترك رينيه ويذهب إلى غرفته، بينما إقترب ألبير من رينيه هامساً:

- سيرافقه اثنين آخرين من رجالنا حتى العودة إلى هنا يا سيدى، لا تقلق فلن يغيب عن نظرهم لحظة واحدة.
- أخبرنى يا ألبير هل يمكن إرسال مخبر خاص إلى القاهرة لمعرفة كل ما يخص يوسف.. أريد معرفة أدق أسراره وليس عمله أو مكان إقامته فحسب، أريد معلومات أدق من تلك التى أحضرها ذلك الغبى الذى أرسلته لنا ليُحضر بيانات يستطيع أى طفل الحصول عليها من صفحات التواصل الإجتماعى كما فى المرة السابقة...؟
- نعم يا سيدى.. أعلم هنا شخص ممتاز يستطيع القيام بذلك..
- إذن هاتفه وأحضره إلىّ فوراً...أريد البحث عن شئ أستطيع مساومة يوسف عليه، فلكل منا سره الخاص والذى يحرص على ألا يكتشفه أحداً أبداً .

- أهناك أمر.......

لكنه لم يُكمل جملته بعد أن نظر إليه رينيه شذراً فأكمل رينيه:

- هناك أمراً آخر هذه المرة.. أتتذكر ذلك الشخص الذى طلبت منك إحضار أرقام هواتفه لربما نحتاج إليه..؟
- نعم يا سيدى .. لقد أحضرتها بالفعل، هل تريدها الآن..؟
- لا، قم بالاتصال به وأخبره أننى أريد مناقشته فى أمر هام يخصه، وإن تحجج بإنشغاله فإجزل له العطاء يا ألبير.. إحجز له فى أفخم الفنادق هنا مع تذاكر ممتازة وشيك بعدة أصفار وسيسيل لعابه ويأتى ...قلبي يحدثنى أنى سأحتاج إليه..
- ومتى تحتاجه إذن يا سيدى..؟
- قبل أن يصل يوسف من تركيا بأى شكل.
- سأحرص أن أُحضره لك بنفسي فى الميعاد المطلوب.

****

مساء الإثنين فندق مرمرة تقسيم فى وسط العاصمة إسطنبول

****

بعد رحلة استمرت ساعة تقريباً، وصل يوسف أخيراً إلى مطار أتاتورك الدولى، ومنه إستقل تاكسي إلى ميدان تقسيم حيث يقع فندقه بالقرب منه وعلى بعد خطوات من شارع الإستقلال..

كانت الساعة تشير إلى التاسعة مساءاً، وقبل صعوده للراحة فى غرفته إستنشقت أنفه عبير القهوة التركية، والتى لم يري مثيلاً لها فى العالم أجمع.. فترك متاعه فى بهو الفندق وخرج ليستمر فى السير حيث كانت الرائحة تقترب كلما اقترب من شارع تقسيم..

قاوم رغبة عارمة فى التنزه فيه، لكنه آثر فى النهاية أن يتنزه فى الشارع قليلاً.. فسار وسط مئات من السياح على مختلف الأشكال والأجناس، و بالقرب من بداية الشارع لمح محلات حافظ مصطفي والذى كتب عليها (اصل القهوة عام 1886) حيث استنشق رائحة القهوة الأصلية أخيراً.. فكاد أن يدخل ليشترى عبوة لكن فضل أن يفعل ذلك فى طريقه للعودة..

ظل يسير فى الشارع وهو يقف كل بضعة أمتار ليستمع إلى أحد الفرق الموسيقية التى كانت تصدح بأنغام عربية أحياناً، وتركية أحياناً أخرى.. سمع أغنية ع هدير البوسطة و عشرات من العرب اللبنانين يتراقصون على أنغامها، فنسي نفسه وبدأ فى الغناء والرقص معهم، حتى نسي تماماً ما جاء من أجله..

فعلاً فى تركيا أنت لا تشعر بالوقت ولا بالجوع ولا بالعطش.. مجرد رغبة عارمة فى التنزه فقط، ظل سائراً حتى و صل إلى نهاية شارع الإستقلال حيث برج جالاتا الشهير.. حاول أن يدخله، لكن الحارس أخبره أن البرج يغلق فى تمام التاسعة، فعاد مرة أخرى وقد جذبت رائحة اللحم التركى أنفاسه، ليقترب من إحدى المحلات ويأخذ شطيرتين ..

كانت الساعة تشير إلى الحادية عشر عندما تناول العشاء وفى طريق رجوعه منى نفسه أخيراً بذلك الكوب من القهوة التركى.. لكنه وجد المحل قد أغلق، فأخبره الشرطي أن جميع المحلات فى شارع الاستقلال تغلق ابوابها فى العاشرة مساءاً.. فعاد إلى الفندق ورائحة القهوة ما زالت تداعب عقله...

****

كانت الساعة تشير إلى العاشرة صباحاً ويوسف جالس فى صالة الطعام لتناول طعام الإفطار فى أعلى مكان بالفندق، حيث كان المنظر من الشرفة يطل على العاصمة كلها فى مشهد بديع.. لكن الأغرب هو عندما لاحظ وجود كمية كبيرة من طيور النورس تقف على الشرفات وعلى شرفات الفنادق المجاورة دون أن تسبب إزعاج أو قلق للسياح الذين كانوا يأخذون الصور بالقرب منها.

وزادت دهشته عندما لمح النادل يجمع بقية طعام الإفطار وفتات الخبز ليفتح شباك صغير فى زجاج الشرفة ليضع الطعام أمام عشرات من الطيور التى جاءت مسرعة لتناول ما تبقي من الطعام..

أطرق يوسف وهو يتفكر، فحين ترى إحترام الدول وشعوبها بمعاملتها حتى للطيور، وقتها تذكر مقولة الخليفة عمر بن عبدالعزيز إنثروا القمحَ على رؤوسِ الجِبال لكي لايقال .. جاعَ طيرٌ في بلاد المسلمين..

لكن سعادته الأكبر عندما لمح علبة قهوة باسم حافظ مصطفي بجوار المشروبات الدافئة، فقام مسرعاً لعمل كوب كبير من القهوه التركية.. كانت نكهة القهوة بطعم (المستكة) مما جعله يتذوق طعم الراحة والهدوء مع أول رشفة، وكأن روحه ترفرف مع طيور النورس فى كل رشفة.. مما جعله يعمل كوباً آخر..وقد أشعل سيجارته فى الشرفة مع الكوب الثانى، ومع ذلك الطعم والمنظر الجمالى الذى يراه نسي كل شئ..

كانت ساعته تشير إلى تمام الثانية عشر ظهراً .. لذلك كان عليه التوجه فوراً إلى ميدان السلطان أحمد وأيا صوفيا لمقابلة وسام وتناول طعام الغذاء معها، ثم العودة إلى الفندق للإعداد للسفر فى تمام الثانية عشر مساءاً.

تُرى هل تُكلل رحلته إلى تركيا بالنجاح..؟، هذا ما ظل ما يدعو الله به.. سمع آذان الظهر يتنامى إلى أذنيه من أحد المساجد القريبة فهبط إلى غرفته ليصليه ثم يستعد للميعاد المنتظر..

ميعاد تأخر لأكثر من سنوات وسنوات...

وضع يده على قلبه وهو يهمس لنفسه ..

- تباً لك من قلب عنيد، ألا تتئد قليلاً..

هذا ما أخبر به قلبه وهو يهبط بالمصعد إلى الطابق الثانى حيث غرفته...

****

كانت الساعة تشير إلى الثانية والنصف عندما وصل يوسف إلى ساحة جامع أيا صوفيا العريق بمنطقة طرابزون.. لم يكن قد زار تركيا من قبل، لكنه كان يتحرك بالخريطة التى كانت دوماً بحوذته..كانت الساحة فسيحة جداً وبها مئات من الأشخاص الملتزمين بطابور طويل جداً للدخول إلى أيا صوفيا، وأمامها وعلى بُعد مسافة قليلة كان يقع جامع السلطان أحمد أو الجامع الأزرق..

شعر بالحزن لأنه ليس لديه أى وقت حتى للذهاب إلى السلطان أحمد، فلطالما سمع عن عظمة وروعة هذا الجامع..

إلتفت مرة أخرى إلى أيا صوفيا.. كان بالفعل يستحق أن يعتبره البعض "ثامن عجائب الدنيا"، كان الزحام فعلاً على أشده، وتعجب كيف سيرى وسام فى هذه البقعة وبجوار عربة الذرة تلك..

لكنه لم يُكمل جملته عندما لاحظ أن هناك ما يقارب من سبع عربات تبيع الذرة المسلوق فى أرجاء المكان فكيف يعرف المقصودة ويبحث عنها وسط الزحام ووسط كل تلك العربات الصفراء.. بدأ فى التحرك حول كل عربة موجودة حتى تلك التى كانت بالقرب من الميدان.. عربة فإثنان فثلاثة..حتى إنتهى من السبع عربات الموجودة..

نظر إلى ساعته التى كانت تشير إلى الثالثة والنصف.. وقتها خطر له خاطر مزعج..

تباً.. أيكون كل ذلك مجرد هراء وحركة سخيفة من زميلته.. ولما لا وهى تشتهر أساساً بتلك الحركات الطفولية..؟

إستجمع نفسه وجلس على أحد المقاعد الحجرية وهو ينظر إلى تلك القباب منبهراً بروعة البناء.. نظر إلى ساعته مرة أخرى ليجدها قد اقتربت من الثالثة وأربعين دقيقة.. فأمسك هاتفه ولكنه لم يجد به شبكة إنترنت خارج الفندق، فحاول أن يتمالك نفسه فى صعوبة حتى لا يُلقى به ويحطمه بجواره على الأرض..

وقتها فوجئ بيد تمسك بذرة صفراء مسلوقة ملتفة بورق أبيض نظيف ووجه وسام الصبوح وهى تبتسم قائلة له بمرح:

- لم أتأخر كثيراً يا يوسف.. لقد رأيتك وأنت تتجول بين العربات ..كنت أود أن أعلم متى ستنفجر غيظاً..

قالتها وهى تجلس إلى جواره فى صمت وتأكل من الذرة بينما أمسك هو بكوز الذرة وهو يتطلع إلى وسام.. كانت كما هى بل وكأنها أصبحت أصغر وأجمل وأروع بكثير جداً من الماضي..كان يشعر وقتها أنه يجلس بجانب آلهة الجمال فى أحد الأساطير الإغريقية.. المكان التاريخي وهى بوجها الأبيض وعينيها الخضراوين والتى لم يلمح مثلها فى حياته حتى الآن، وسبائك شعرها الذهبي وهى تتراقص على جبينها.. كانت بالفعل من أصول تركية، أما هو فقد كان بالفعل مُغيّباً عن الواقع تماماً حتى لكزته وسام بكوعها قائلة:

- فيما شردت..؟، ولما كل هذا الصمت ..؟
- لا أدرى ماذا أقول، لكن....

قاطعته وسام دون أن تعطيه فرصة للحديث:

- أتعلم لما أعطيتك الميعاد هنا عوضاً عن القاهرة.. فأنت فى إنجلترا منذ سنتين وأنا قد أنشأت عملى الخاص.. شركة سياحية بعيدة عن والدى للسفر بين إسطنبول والقاهرة، والحمد لله أصبحت من الشركات الكبرى فى هذا المجال، وأحياناً أكون فى أنقرة لإجراء المقابلات مع بعض شركات السياحة للتمهيد ل.......

قاطعها مبتسماً وهو لا زال يتطلع إليها:

- أنتِ لم تتغيري أبداً.. أتعلمين أن آخر مرة تحادثنا هاتفياً فيها كان منذ ثمانى سنوات .
- نعم.. نعم ..أخبرنى هل تزوجت..؟
- لا..؟، وأنتِ...؟
- لا بالطبع، فلم أجد الرجل المناسب حتى الآن..؟
- بالتأكيد هناك الكثيرين بالطبع ممن يتمنون الإرتباط بك..
- ها أنت تقولها يتمنون، المهم أن أكون أنا من أتمنى وليس هم...
- حسناً وحياتك..؟
- لقطي فقط.

ضحك يوسف متذكراً ذلك القط ذو الألوان الغريبة قائلاً:

- كيف حاله الآن..؟، أعتقد أن اسمه شيكو على ما أتذكر.

نظرت إليه وسام وهى تهتف بإستنكار:

- شيكو ماذا أيها الغبي..؟، لا تُخطئ فى اسم ابنى، إنه فى الصباح (الكيشو) ..وفى الظهيرة (كرملة)..وفى العصر (شيكى ويكى).. وفى المغرب (اتى وتى هيف).. وفى العشاء (ويركي).. وفى الفجر (ابونيين)، وعندما نقوم بلعب الكرة اسمه (ويري كويا) وعندما......

قاطعها يوسف وهو ينظر إليها مندهشاً:

- وسام.. ما رأيك فى الذهاب للعشاء لنتناقش فى الموضوع التى أتيت تركيا من أجله..؟

قفزت وسام من مقعدها بسرعة وهى تهتف :

- أى عشاء يا صديقي الغبي..؟، إن الساعة لا زالت الرابعة، قم معى فسآخذك فى جولة سياحية داخل هذا الأثر الذى لن تراه مرة أخرى.

قفز يوسف هو الآخر كطفل صغير دعته أمه للذهاب معها فى رحلة، لكنه أشار على الصف الذى يبدو لا نهاية له قائلاً:

- لكن هذا الصف للحصول على التذاكر لن ينتهى إلا بعد ساعتين على الأقل.

أخرجت وسام تذكرتين وهى تجذبه من يده قائلة:

- وهل كنت تظن أنى كنت ألهو عندما تأخرت عنك.. فقد كنت فى الصف لأُحضر هاتان ..هيا.. هيا ..

سارا حتى دخلا إلى البهو الداخلى التى تناثرت به تحف ذهبية من عملات وخناجر موضوعة من خلف زجاج سميك، وهى تتحدث وتتحدث ولكنه لم يسمع حرفاً واحداً مما قالته، بل لازالت تصدح فى أذنيه نغمات شوبان فى سيمفونية الخريف التى سمعها فى أوبرا فيينا..

أفاق على صوتها وهى تقول:

- من أهم تلك الأساطير أن النبي سليمان عليه السلام أمر الإنس والجن والحور بجمع المرمر الملون من جبال الكاف والبلوز لتشييد البناء في عهده، ومن ثَم تطور البناء إلى الشكل الحالي.

شعر يوسف أنه بحاجة لأن يسمع المزيد عن المكان بالفعل فأردف قائلاً:

- أكملى ..؟
- وتجمع آيا صوفيا، وتعني "الحكمة المقدسة"، بين العمارة البيزنطية والعثمانية والزخارف المسيحية والإسلامية، فقد تجد في إحدى القاعات سقفاً يحمل رسوماً لكهنة وقساوسة تحيط به خطوط عربية تحمل آيات قرآنية، وقد تختلط بهما رموز ماسونية في بعض الجداريات.

فالرسومات المسيحية التي طمس الزمن بعضها قد أجريت عليها عمليات ترميم وتجديد في عهد السلطان عبد الحميد الأول، وهي تعود إلى ما قبل تحول الكنيسة إلى جامع، أما الرسومات الماسونية فالمرجح أن معمارياً إيطالياً مشاركاً في عمليات الترميم رسمها قبل نحو 170 سنة.

كانا قد وصلا إلى البهو الرئيسي الذى خطف أنظاره من عدد النجف الذهبي المتدلى من الأسقف، حيث ظهرت فعلاً النقوش والزخارف الإسلامية وتناثرت ثمانى دوائر كبرى تحوى أسماء الصحابة.. بينما كان أمامه لوحة جدارية مرسومة على أعلى الحائط تمثل السيدة العذراء.. ولكن فجأة شعر يوسف بألم فى صدره وكأن روحاً ما تطبق على أنفاسه.. فأشار إلى وسام بالتوقف قائلاً:

- مهلاً يا وسام .. إن قلبي منقبض بشدة بدون سبب ..

ربتت وسام على كتفه بقلق وهى تهتف:

- ماذا بك يا يوسف..؟، هل تشعر بشئ ..؟
- لا.. لا، مجرد إنقباض بسيط لا أدرى كنهه ..لكن.. لكن ..

توقف عن إكمال كلامه ،وهو يحاول أن يتمالك نفسه أمامها ويغير الموضوع قائلاً:

- أخبريني يا وسام قصة تشييد هذه التحفة المعمارية..؟

تطلعت إليه وسام فى قلق وكانا قد وصلا إلى المنبر الكبير حيث لوحة هائلة نقش عليها اسم الجلالة ومحمد عليه أفضل الصلاة والسلام، فجلسا على أحد البروزات وهى تستكمل الشرح:

- آيا صوفيا كانت أكبر كنيسة في الإمبراطورية الرومانية الشرقية في إسطنبول،وقد بنيت ثلاث مرات في نفس المكان، كان إسمه أولاً ميغال إكليسيا (الكنيسة العظمى) ،ومن القرن الخامس كان يعرف بأنه آيا صوفيا وهذا الاسم يعني (الحكمة المقدسة)، كانت آيا صوفيا كاتدرائية العاصمة، أعظم كنيسة للأباطرة خلال الإمبراطورية الرومانية الشرقية... تم بناء آيا صوفيا من قبل الإمبراطور جستنيانوس فى عام 532 الميلادى وإكتمل في فترة قصيرة ، بعد يوم من افتتاحها قال الإمبراطور جستنيانوس ، "الحمد لله على إعطائي الفرصة لجعل مثل هذا مكان العبادة" ..
- جيد جداً.. أكملى..؟
- وقد أفتتح للعبادة عام 537 م ،فصرح آيا صوفيا يعبر لناظره للوهلة الأولى عن تزاوج الفن المعماري الروماني بالإسلامي، مما يجعله تحفه نادرة من التحف المعمارية التي تتوسط مدينة إسطنبول التركية.. وكان بناء كنيسة أيا صوفيا على طراز الباسيليكا المقبب ويبلغ طول هذا المبنى الضخم 100 متر وارتفاع القبة 55 متر ويبلغ قطر القبة 30 متر... رائعة الجمال والتطور في ذلك الوقت فقد كانت قبة ضخمة ليس لها مثيل من قبل، فهى تبدو وكأنها معلقة في الهواء، ويصف لنا المؤرخ بروكوبيوس وهو أحد مؤرخى عصر جستنيان أنه من شدة إعجاب جستنيان بالمبنى لم يطلق عليه اسم أي من القديسين، بل أطلق عليه اسم الحكمة الإلهية أو المقدسة «سان صوفيا»، ونقل أيضاً عن جستنيان إنه قال "يا سليمان الحكيم لقد تفوقت عليك" ، ويقصد بذلك أنه تفوق ببناءه علي النبي سليمان الحكيم عليه السلام الذي كان يسخر الجن لبناء الأبنية العظيمة.
- حسناً جداً .. هيا نتجول فى الأروقة الآن لقد سئمت من الجلوس.

- هل تشعر بالتحسن الآن ..؟
- نعم.. فأنا أفضل الآن.
- إذن تعال للطابق الثانى لأستكمل لك القصة وأروى لك المزيد من الأسرار..

وبالفعل سارا حتى مدخل باب حجرى وعليه كان هناك ممر وليس درجات وآخر الممر كان ينحنى ليأخذ ممراً صاعداً آخر، وهكذا حتى وصلا أخيراً إلى الطابق الثانى الذى يطل على البهو الداخلى لآيا صوفيا.. ليستندا على السور المطل وتستكمل وسام قصة البناء:

- وقد استمرت الكنيسة في الإستخدام كمركز للدين المسيحي لفترة طويلة، حتى دخول الدين الإسلامي عام 1453 م للقسطنطينية، وكان لا يوجد للمسلمين في المدينة "جامع" ليصلوا فيه "الجمعة" التي تلت الفتح، فلم يُسعف الوقت لتشييد جامع جديد في هذه المدة الزمنية الضئيلة، فأمر السلطان بتحويل "آيا صوفيا" إلى جامع، ثم بعد ذلك قام بشرائها بالمال، وأمر كذلك بتغطية رسومات الموزائيك الموجودة بداخلها ولم يأمر بإزالتها، حفاظًا على مشاعر المسيحين، وما زالت الرسومات موجودة بداخلها إلى الآن ..وقد كان الفتح على يد السلطان محمد (الفاتح) ابن السلطان مراد الثاني الذي أكمل حلم والده وقام بفتح القسطنطينية (أسطنبول حاليا)، وأمر بأن يؤذن فيها عندما دخل مدينة القسطنطينية، وقام السلطان محمد الفاتح بأداء أول صلاة فيها وهى ركعتين شكر لله على هذا الفتح العظيم، ثم أضاف لها المآذن الأربعة حولها، والتي تعتبر مآذن إسطوانية الشكل ذات قمة مخروطية، والتي أضافت إلى هذا المكان وزادته رونقاً وجمالاً ولم تؤثر على عمارته البيزنطية .
- من أين تستاقين كل هذه المعلومات..؟
- لقد تركت دراسة التاريخ الفرعونى منذ زمن، وتحولت كلياً إلى التاريخ العثمانى يا صديقي.. والآن هيا إتبعنى فسترى الأعاجيب هنا..
- حسناً.. أكملى ..
- خلال الفترة العثمانية أضيفت إلى آيا صوفيا المساجد والمنابر وغرفة المؤذن ، وتم عرض المصابيح البرونزية على جانبي المحراب إلى المسجد.. أترى تلك اللوحات الدائرية الخضراء المكتوب عليها أسماء الصحابه ..؟

- نعم..

- لقد وضع الخطاط مصطفى عزت أفندي ثماني علامات على جدران الفضاء الرئيسي "الله جل جلاله،حضرة النبي محمد عليه أفضل الصلاه والسلام .. حضرة إبراهيم، حضرة عمر، حضرة عثمان، حضرة علي، حضرة الحسن وحضرة الحسين"، هذه اللوحات تُعرف بأكبر لوحات الخط العربي في العالم الإسلامي.

- إنها فى منتهى الروعة بالفعل يا وسام.

- وللأسف تم تحويل آيا صوفيا بأمر مصطفي كمال أتاتورك وقرار مجلس الوزراء إلى متحف وتم فتحه للزوار المحليين والأجانب كمتحف في فبراير 1935، وكانت هذه هي النقطة السوداء في تاريخ إسطنبول، ومما أثار أسف وحزن العديد من الناس بسبب تحول آيا صوفيا إلى متحف هو أن المسجد لم يعد يمكن استخدامه فى الصلاه أو حتى الآذان بداخله.

- و بالطبع استمر ذلك كثيراً تحت راية الحكم العلمانى لأتاتورك..

- بالفعل يا يوسف، وقد إستمر ذلك إلى أن قام الرئيس التركي أردوغان عام 2014 بإفتتاح آيا صوفيا مرة أخرى وتحويله إلى جامع بعد أن تحول إلى مزار سياحي.. وقد عقد مؤتمر صحفي كان مضمونه أنه توجه بالشكر للمعمارين الذين قاموا ببناء هذا الصرح العظيم وهو آيا صوفيا و قرأ لهم الفاتحة ، ثم رفع الآذان من مسجد آيا صوفيا ، وقام بأداء صلاة التراويح ، مما أعاد الفرحة مرة أخرى للأتراك.

- عظيم جداً..

- الأمر لم يتوقف هنا يا يوسف ، فقد جر هذا الأمر وبالاً على تركيا.

تطلع يوسف إليها فى دهشة وهو يتساءل :

- لماذا..؟

- مؤخرًا، وتحديداً بعد أن أصدرت رئاسة الشؤون الدينية التركية قراراً ينص على تلاوة القرآن في آيا صوفيا، وذلك على مدار شهر رمضان وأطلاق برنامج ديني خاص بليلة القدر، تحت عنوان (خير من ألف شهر)، تم في نهايته رفع الأذان من نفس الموقع الذي رُفع منه آخر مرة، قبل تحويل آيا صوفيا إلى متحف، أي قبل 85

عاما، ما يعادل ألف شهر تقريباً، فقد دفع ذلك اليونان لإنتقاد تلك الإجراءات، وقد صرحت أن هذا "يصل إلى حدود التعصب الديني، ويُظهر انفصاماً عن الواقع"، كذلك رأت أيضا أن هذه التصرفات لا تتوافق مع "المجتمعات الديمقراطية العلمانية"، وتمثل "إهانة لمشاعر ملايين المسيحيين "، ومن توابع هذا أيضاً مطالبة البطريرك برثلماوس، وهو الرمز الروحي لقرابة ثلاثمائة مليون أرثوذوكسي حول العالم، أن يبقى موقع آيا صوفيا متحفاً. بما مفاده إن عودة آيا صوفيا إلى كونه مسجداً سيضع تركيا في مأزق دولي، وقد يعيد للأذهان سوء معاملة الأتراك للمسيحيين خلال القرن المنصرم...

صمتت وسام لبرهة ،ثم إستدركت وهى تَّمسك بذراع يوسف ليكملا جولتهما:

- والآن اتبعنى لأريك بعضاً من أسرار هذا المكان ..

نظر يوسف إلى ساعته التى كانت تشير إلى السادسة مساءاً، وقد عاودته تلك القبضة الغير مفهومة فى صدره وهما يقتربان من أحد الممرات التى تم إغلاقها بشريط يمنع على المارة الدخول فيها أو النزول على درجاتها التى تؤدى إلى باب خشبي عتيق الطراز فاستوقفها برعب قائلاً:

- وسام أنا جوعان، لما لا نترك تلك الرحلة السياحية لنتناول شيئاً خارج هذا المكان.

تطلعت إليه وسام فى دهشة ، فقد كان متشوق لتلك الجولة والآن يريد إنهائها بسرعة ، فسألته مبتسمة :

- ماذا بك يا يوسف..؟، لما تعلو الصفرة وجهك هكذا..؟، إن من يخاف من هذا المكان لابد وأن يكون به مس من الجن يا صديقي..

أشاح يوسف عنها بناظريه وهو يهتف:

- بالله عليك يا وسام هيا بنا..

قهقهت وسام وهى تنظر إليه قائلة:

- لا تخف يا صديقي، سأخبرك سر هذه الممرات، هيا تقدم، لا تخف..

إستسلم يوسف لإلحاح وسام فتمتم قائلاً:

- حسناً، هيا أخبريني سريعاً..

تطلعت إليه وسام فى ريبة قائلة :

- غريبة فعلاً سر تعرقك ووجهك الذى تعلوه الصفرة يا يوسف، وخصوصاً هنا.
- وما الغريب فى ذلك ..؟
- مع مطلع القرن العشرين، بدأ العلماء والمختصون بتنظيم رحلات استكشافية وبحثية لبعض الأنفاق والممرات داخل آيا صوفيا، والتي حُفرت أساساتها على عمق 70 متراً، فكانت النتائج تشير إلى اكتشاف مدينة من الأنفاق التي تربط مدينة إسطنبول بالعديد من الجزر الواقعة في بحر إيجه، والتي كانت تستخدم في السابق كممرات لهروب الملوك والأمراء في حال الهجوم على المكان، وكذلك كمكان لحفظ وتخزين الأطعمة وحفظ الكنوز.
- حسناً.. تابعى..
- وفي عام 1998 بدأ العمل لإعداد أول رحلة استكشافية في باطن آيا صوفيا عبر المستكشف التركي جوكسال جولنصوي برفقة غطاسين وأربعة من المغامرين استمرت أكثر من عشر سنوات، وفي ديسمبر 2009 كانت أول غطسة في أعماق البناء، وقتها يا يوسف توصل الفريق البحثي إلى وجود أنفاق تعود تاريخها لنحو 1700 عام، أي قبل بناء آيا صوفيا، وممرات تربطها بقصر "توبكابي" وقبور وجداريات لبعض الكهنة ومجموعة من الصهاريج، وممرات سرية واسعة تربطها بقصر تكفور وجزر إيجه، وأوضح الفريق أن آيا صوفيا تحوي تحتها مدينة كاملة من الأنفاق والممرات تُعد أقدم مدينة في التاريخ بُنيت تحت الأرض.
- وماذا عن تلك الغرفة التى أرتعد حتى من الإقتراب منها.؟
- سأخبرك بذلك لاحقاً..
- إذن هيا بنا بالله عليكِ من هنا، فأنا أكاد أختنق.

كانا فى طريقهما إلى الهبوط إلى خارج المكان، إلا أنه لاحظ وجود عشرات من السياح فى طابور طويل سارا بجواره حتى إكتشف شيئاً غريباً جداً بجوار الباب الأخير من جهة اليسار لمجموعة الأبواب المواجهة للقبلة داخل آيا صوفيا، فقد كان هناك ثقب فى الحائط بداخل دائرة نحاسية ملتصقة بالجدار، ويأتى الزائر ليضع سبابته داخل هذا الثقب ويقوم بلف كف يده .. فتوقف مذهولاً بينما ابتسمت وسام قائلة له:

- لا أدرى ما اسمه بالتركية، ولكنه يسمى عندنا عمود التعرق.
- عمود ماذا..؟
- عمود أو سارية التعرق المكون من أحجار المرمر والمغطى المتر الأول منه بطبقة نحاسية، وتعود تسميته إلى الرطوبة وقطرات المياه التي تجدها عليه في كافة فصول العام، فعند ملامسته ستشعر وكأن مسام يديك تتعرق.. ويحوي عمود التعرق هذا ثقباً صغيراً يتوافد عليه الأشخاص من أنحاء العالم لدس أصابعهم داخله..كما ترى يا يوسف إذ يُعتقد أنه يشفي كل من يعاني من كثرة الإفرازات والتعرق وآلام الرأس.
- وما سبب تعرق العمود أساساً يا وسام..؟
- سبب تعرق العمود تتداول عنه ثلاثة معتقدات مختلفة، الأول حدوث هزة أرضية شديدة أدت إلى تصدع قبة المبنى، فأحضرت الملائكة ماء زمزم من مكة لترميم هذا العمود، والاعتقاد الثاني هو أن "الخضر" أمر بترميم القبة بخليط من لعاب الرسول محمد مع ماء زمزم، أما الثالث فيتمثل في استناد مريم العذراء على هذا العمود والبكاء عند مشاهدتها تعذيب المسيح، وهذه المعتقدات لا زالت تحتل مكانة كبيرة لدى الكثيرين.
- هذا عن الخرافات أو الأساطير فما هو السبب العلمى.؟
- طرح البعض تفسيراً غير مكتمل، إذ ذهب العلماء إلى كون العمود يحوي مسام وجزئيات شعرية تفرز الرطوبة من داخله إلى الخارج، ولكن دون توضيح لماذا هذا العمود دون غيره رغم تشابهه في الشكل مع أعمدة أخرى.

هز يوسف كتفيه فى إستسلام وكأنما يعلن أن هذا المكان قد أثار دهشته بالفعل قائلاً:

- حسناً .. إن الأمر كله غير مفهوم.. أهناك أمور أخرى غامضة فى هذا المكان.

- الكثير والكثير يا صديقى، انظر إلى هذا الزحام فى البهو البعيد..

- وما به هو الآخر.؟

- يوجد بئر صغير قطر فوهته 50 سم بعمق 7 أمتار، مياهه ليست عذبة لكنها غنية بالمعادن الطبيعية، كان المسلمون في السابق وحتى إغلاق آيا صوفيا وتحويلها إلى متحف، كانوا يؤمنون بأن مياه هذا البئر تُشفي أمراض القلب، فاعتادوا شرب مياهه بعد صلاة الفجر يومياً.

وأيضاً يا يوسف لا زال الغموض يحيط بقبر يقع داخل الغرفة التي يواجه بابها الأوسط القبلة، والذي يُعتقد أنه شاهد قبر "الملكة صوفيا"، زوجة الأمبراطور جوستنيان الذي أمر ببناء آيا صوفيا، ويتوسط غرفة تعلوها رسوم للملائكة الأربعة "عزرائيل وإسرافيل وميكائيل وجبريل"، ويرتبط شاهد القبر بمعتقد تاريخي يتمثل في كون أية محاولة لتحريكه ستؤدي إلى تهدم مبنى آيا صوفيا كاملاً.

- يا إلهى..!! هذا المكان يحوى العديد من الألغاز والأسرار يا وسام، فهل انتهيتِ أم لا زال يوجد ما ستفاجئينى به..؟

ضحكت وسام فى مرح قائلة:

- ما زال هناك الكثير يا صديقى، فقد كنت أتمنى أن أُريك من أحد النوافذ الخشبية فى الطابق الثانى مضيق البوسفور والمنظر الرائع المطل على مسجد السلطان أحمد و قبة قدم الفيل و...

قاطعها يوسف فى دهشة قائلاً:

- ماذا..؟، أى قدم فيل تلك..؟

- قبة "قدم الفيل" المتواجدة في جنوب شرق المبنى والبالغ ارتفاعها ستة أمتار ، وهى تحوي آثار قدم جواد، وهو ما يثير الكثير من الغموض، ولم يتوصل العلماء بعد إلى سبب أو حقيقة علمية، إلا أن المعتقد السائد في تاريخ الدولة العثمانية يذهب إلى أن السلطان محمد الفاتح ربط جواده في سارية هذه القبة، ولسبب ما فزع الجواد

وتسبب في أضرار جسيمة بالجدران تاركة هذا الأثر في القبة، وهو تفسير يستبعده العلماء دون تقديم تفسير آخر حتى الآن..

أمسك يوسف بكتفها وهم يتجهون إلى خارج المبنى وهو يهتف وكأن عقله لم يعد يستوعب كل تلك الألغاز والعجائب:

- هيا بنا يا وسام إلى هذه الكافيتريا بالله عليكِ لنحتسى ولو فنجانين من القهوة، إنها السادسة والنصف ..
- حسناً هيا.. هيا..

وفى طريقهم إلى الخارج وقف أمام باب خشبي كبير جداً، فابتسمت وسام وأصرت على أن تقترب منه وقامت بتصويرهما سوياً بجوار هذا الباب، ثم وقفت بمفردها وقد أعطت ليوسف الهاتف طالبة منه أن يقوم بتصويرها، وعندما فعل لاحظ سعادتها الشديدة مما جعله يتساءل..

- أراكِ سعيدة بتلك الصورة.
- سأخبرك لاحقاً عن السبب..

وسارا حتى وصلا إلى المقهى الموجود بداخل فناء آيا صوفيا، وقامت بطلب قهوة تركية سادة لكليهما.. وما إن إرتشف يوسف أول رشفة حتى تذكر أنه عليه شراء بن تركى من حافظ مصطفي، وخاصة أنه مسافر إلى النمسا تلك الليلة....

أفاق من شروده على صوت وسام الساحر وعينيها التى بدأت تتلألأ فى ضوء القمر قائلة:

- أتعلم يا يوسف، تحوي آيا صوفيا أبواباً كثيرة تحمل الكثير من الطلاسم والرموز، من أصل 361 باباً، وهنالك معتقد لا يزال منتشراً حتى الآن لدى البعض يفيد بأنه عند حساب عدد الأبواب التي تحمل طلاسم في آيا صوفيا فدائماً سيختلف حسابها عن العدد الواقعي، وأن هذا الأمر يرتبط بشيء من السحر.
- لا أفهم ذلك..!!
- ليس مهماً .. ولكن البروفيسور التركي فرحات أسلان في كتابه "أساطير آيا صوفيا" أكد أن هذا الأمر خرافة استمرت حتى نهايات عهد الدولة العثمانية، موضحاً أن عدد الأبواب التي تحمل طلاسم 101، لكن أهم تلك

الأبواب هو "الباب المغلق" ، وهو باب في نهاية ممر ضيق في الجانب الجنوبي من المبنى، يمكن رؤيته ولكن لا يمكن فتحه، والأقوال المأثورة عن الأجداد تحكي أن هذا هو باب هروب بطريرك الروم الأرثوذكس عند دخول الجيش العثماني مدينة قسطنطينية، ومنذ ذلك الحين أُغلق الباب ولا يمكن فتحه وطُمست حدوده داخل الجدار، بينما هنالك معتقد آخر يذهب إلى كون الشيطان مقيد خلف هذا الباب.

شرد يوسف وهو يتفكر فى كل تلك الألغاز والغموض الذى يحمله هذا المكان ، إن الغموض دائماً ما يجذب النفس البشرية وكأنه يتحداها لتسبر أغوار العقل وتغوص فى أعماق المجهول، ربما هنا يكمن سر الحياة وروعتها، أو ربما الحياة فى حد ذاتها هى رحلة بحث دائمة ربما عن السعادة أو عن الحب أو حتى عن هدف أو فكرة ليعيش الإنسان ويموت من أجلها .. أفاق من شروده وهو يتطلع إلى وسام قائلاً:

- لا تخبرينى أنه ذلك الباب الذى ارتعدت منه.

ضحكت وسام فى عبث قائلة:

- هو بالفعل يا صديقي.. فيبدو أن قريبك مقيداً بالداخل..
- أعوذ بك رب من همزات الشياطين، وأعوذ بك رب أن يحضرون..
- لا تخف فأنا معك، والشياطين تهرب منى..

ابتسم يوسف رغماً عنه وهو ينظر إلى ساعته.. فقد كان يتمنى ألا يمر الوقت ليظل يستمع لتلك الحسناء إلى الأبد، ولكنها استمرت فى الحديث :

- أما الباب الرئيسي لآيا صوفيا، وكان يُطلق عليه "باب الإمبراطورية"، فهو باب خشبي بارتفاع سبعة أمتار مغطى بطبقة من البرونز ومصنوع من خشب شجر "البلوط" وهذا هو...

قاطعها يوسف فى جزل:

- تقصدين الباب الذى أخذنا صور بجواره بالطبع..؟

- بالفعل ويقول معتقد شعبي إنه قطعة خشبية من سفينة نوح التي تم العثور عليها فوق إحدى جبال تركيا، ويعتز الشعب التركي بهذا المعتقد ويروج له بكونه نوعاً من التفاخر..

صمتت وسام لبرهة ، وهى تأخذ رشفة من القهوة قبل أن تبادر يوسف فجأة قائلة:

- والآن يا يوسف.. أخبرنى، ما الأمر الذى وددت أن أساعدك فى حله..

تباغت يوسف من تغيير مجرى الحديث، ولكنه كان عليه إنهاء الأمر أيضاً، فالوقت يمر بسرعة مما جعله يُخرج ورقة بيضاء وقد سطر عليها بنفس الكلمات الفرعونية التى دونت على البردية والتى أثارت حيرته فقرأتها وسام :

((وعندما تشرق الشمس بين قرنى الأفعى فى تلك العاصمة القديمة..

لتحيط بأشاعتها جنبات الوادى فتثير السعادة حول نخيلها المقدس..

و تخبوا ليتحول ضوئها إلى تلك الأفاعى التى تتجول راقصة ليلاً على موسيقاها الأبدية داخل محراب معبدها القديم ..

ثم إلى ضوء ساطع وموسيقي ساحرة ومن خلفه يمر البابون ليحرسه للأبد..

مُحذراً كل غريب يخترقه بصاعقة قاتلة من السماء..

وهناك تتوالى البركات حيث بيت الولادة لتسطع النجوم من مغرب شمسه إلى الأبد،

والتى لن تُطفأ أبداً))

قرأتها وسام ثم تمتمت فى حيرة:

- أنا لا أفهم شيئاً..؟

إنتفض يوسف من هول المفاجأة فقد كانت وسام هى آخر أمل له:

- نعم.. ماذا تقولين يا وسام، كيف لا تفهمين شيئاً..؟

- هل هذه هى كل الرسالة..؟

- نعم..

- وأين و جدتها..؟

- فى مقبرة ما..؟

- و إلى ما تشير..؟

- وهل إن كنت أعلم كنت سألجأ إليكِ يا وسام..؟

- يبدو أن الأمر يستحق بالفعل يا يوسف.

- أقصي ما تتصورين..؟

- إكتشاف أثري..؟

- ربما..؟

- مقبرة بها كنوز لم تُكتشف بعد..؟

- ربما يا وسام..؟

- لما أتيت إلىّ بالذات ..؟

- لأنى بحاجة إليكِ، فليس هناك فى الكون من أثق به غيرك، هذا أولاً، وثانياً لأنكِ الوحيدة فعلاً القادرة على فك الرموز المكتوبة.

نظرت إلى عينيه لثانية واحدة ثم ابتسمت فى خجل، وأخذت الورقة منه وبدأت فى التفكير هامسة..:

- قرنى الأفعى إذن، فربما كان يقصد الرمز وهناك كانت العاصمة القديمة فى ذلك الوقت.. فكان النخيل متواجد... مم... أو كان مقدساً فى زمن ما.. ثم تتحول فجأة لتتراقص تلك الأفعى وكأنها ضوء.. نعم.. نعم

إبتسمت وسام فى سعاده كطفله تلهو بدميتها.. وهى تُخرج من حقيبتها قلم، وقد بدأت فى كتابة الرموز العربية فوق الكتابة وإستمرت على ذلك وهى تتمتم :

- وبالطبع تتحول إلى ضوء .. يا لغبائك يا يوسف إنه قرد البابون المقدس، كيف لم تعلم ..؟

سألها يوسف فى لهفة وقد بدأ الأمل يدب فى قلبه:

- ما هذا الذى لم أعلمه..؟

أسكتته وسام بإشارة من يدها وهى تُكمل:

- إخرس الآن، فأنا أُحدث نفسي... بالطبع وكانت لتصيبه تلك الصاعقة الكهربائية.. عظيم.. عظيم جداً، ثم تنزل البركات هناك فى اميزيم تقريباً، نعم.. نعم.. تباً لك..؟، لكن ما المقصود بمغربه..

نظرت إليه وإلى القلم ثم الورقة ثم حكت القلم برأسها وقامت وسارت إلى الباب الخشبي وقبلته ثم عادت مرة أخرى وهى تبتسم ليوسف قائلة:

- إن الورقة ناقصة أيها الماكر، هذا أولاً، و ثانياً إن تلك الرموز ما هى إلا عبارة عن خريطة لمكان سري ترشدك إليه إذا علمت المكان المطلوب.
- حسناً... فليكن ..

قفزت وسام كالأطفال وهى تهتف قائلة:

- ولقد علمت أنا المكان المطلوب بمنتهى السهولة.

قهقه يوسف ضاحكاً .. قائلاً :

- لا أصدقك أيتها الماكرة.

- حسناً حسناً ماذا لو أخبرتك أنك تبحث عن مقبرة فى مكان يخص علاقة الفراعنة بحضارة ما..؟

تطلع إليها يوسف فى ذهول وهو يهتف:

- اللعنة يا وسام وكيف عرفتى ذلك..؟
- ليس هذا من شأنك، المهم الآن هو التوصل إلى إتفاق..؟
- إتفاق..؟!!!
- نعم، وهل تنتظر منى أن أُخبرك بهذا السر دون أن يكون لى نصيب..؟!!

إندهش يوسف من طريقتها، لكنه استكمل حديثه:

- نصيب ..؟حسناً.. لكِ ما تشائين، بشرط أن تكوني صادقة..
- متى ستكون فى القاهرة..؟
- بحلول نهاية الأسبوع تقريباً، سأكون فى أسوان .. فأنا مقيم في قصر صغير بالنوبة.
- قصر..؟!!، يبدو أن البحث فى الآثار جعلك من الأثرياء يا يوسف.
- إلى حد ما يا صديقتى.
- حسناً، سيكون مقابل فك تلك الرموز عشرة أكياس طعام مجفف من أفخر الأنواع لكيشو زنة العبوة عشرة كيلوجرامات.

قهقه يوسف وهو يردف:

- لا.. ستٌ فقط.
- حسناً فليكن تسعة.
- سبعة، ولن أزيد كيلوجراماً..
- حسناً ثمانى عبوات، ولن أقبل بأقل من ذلك.

- إتفقنا..

ومد يده مصافحاً إياها لكنها ذعرت من ملمس يديه فأرجعها سريعاً، و هى تردف:

- يا إلهى يا يوسف، ما كل هذه الخطوط الغائرة على يديك..؟
- إنه أمر يطول شرحه يا عزيزتى.. والآن هل لكِ أن تُخبرينى بكل ما فهمتيه ..

بدأت وسام فى الحديث ويوسف يصغى إليها ويدون كل ما تفوهت به.. استمر الحديث لأكثر من ساعة أخرى وهو غير مصدق كيف حلت له الموضوع بكل بساطة.. واتفقا على المقابلة فى القاهرة بمجرد رجوعه بعد أن أخذ كل هواتفها مع وعد بإرسال الطعام إلى قطها فى أقرب فرصة..

نظرت إلى ساعتها التى كانت تشير إلى الثامنة مساءاً وهى تقف لتخبره أن عليها توديعه الآن لارتباطها بحفل مع صديقة لها فى المساء.. فعرض عليها توصيلها لكنها اخبرته أن الأمر لا يستحق، فحيته وأمسكت حقيبتها لتنصرف مُسرعة .. وقبل أن تختفى عن ناظريه إلتفتت وهى بجوار باب ايا صوفيا ملوحة بيديها إليه..

لملم يوسف حاجته وأوراقه وهو ينظر إلى ساعته، فقد كان عليه الذهاب سريعاً إلى الفندق لتجهيز حقيبته.. وبالفعل وصل إلى الميدان وأشار إلى تاكسي ليستقله وهو يلقى نظرة من نافذة السيارة على آيا صوفيا بأنوارها الذهبية المتلألئة وهو يتمتم:

- وهنا تركت قلبي ..

****

كان يوسف يجلس فى طائرة الثانية عشر مساءاً والمتجهة إلى فيينا، وهو يحتضن حقيبته والتى أخرج منها عدة أوراق ليقرأ ما دوّنه من خلف وسام.. وبتلقائية استنشق عبير الأوراق عندما وجدها قد تشبعت برائحة البن المميزة ، ليس الورق فحسب وإنما الطائرة بأكملها، وكأنما تلك الرائحة تأبى أن تفارق عقله..

بدأ فى قراءة الأوراق وهو فى منتهى السعادة، لأنه الآن أصبح على بُعد أمتار قليلة من إكتشاف أثري قد يغير وجه التاريخ الفرعونى بالكامل..

تذكر قول وسام أن الأفاعى ما هي إلا رمز للآلهة القديمة حتحور، والتى يُرمز لها فى الرسومات القديمة على هيئة امرأة تحمل تاج عبارة عن قرنين بينهما قرص الشمس، أو بقرة أو لبؤة أو أفعى أو شجرة، وهنا كان الوصف واضحاً، حيث تم ذكر شروق الشمس بين قرنى الأفعى، ووردت الموسيقي والخصوبة فى بيت الولادة، فكل ذلك يشير أولاً إلى الآلهة حتحور والتى هى آلهة السماء، والحب، والجمال، والأمومة، والسعادة، والموسيقى، والخصوبة..

إذن هذه لحتحور، فأين يقع معبدها..؟

هنا أشارت وسام إلى العاصمة القديمة، ومن المعروف أن هناك معبد واحد للآلهة حتحور فى مجمع معابد دندرة ويقع خارج مدينة قنا، وكانت معروفة قديماً بتنترة، وقد أطلق عليها اليونانين تنتريس، وكانت عاصمة الأقليم السادس فى مصر وموقعها مليىء بالمقابر، حيث كانت عاصمة الإقليم السادس في مصر، وأشهر هذه المجموعة هو معبد حتحور، وهناك حيث لم تطأ أقدامه تلك البلدة لذكرياته السيئة هناك... استمر يوسف محدثاً لنفسه..:

- جيد جداً.. هذا المكان وقد علمت أيضاً أنه المعبد المقصود من موضوع المنحوتة التى تشير إلى الكهرباء.. غريب جداً ما قالته وسام .. فهى لا تتعدى كونها نظرية، لكن أنا شخصياً قد أميل إلى تصديقها.. وكل ذلك فى الرموز يشير إلى تلك اللوحة الجدراية والتى كانت تجمع بين الأفاعى الراقصة و قرد البابون الحامى.

وقتها تذكر حرفياً ما قالته وهو يكتب وراءها، تلك النقطة التى تفسر جملة:

- ((و تخبوا ليتحول ضوئها إلى تلك الأفاعى التى تتجول راقصة ليلاً على موسيقاها الأبدية داخل محراب معبدها القديم ..

ثم إلى ضوء ساطع وموسيقي ساحرة ومن خلفه يمر البابون ليحرسه للأبد..

مًحذراً كل غريب يخترقه بصاعقة قاتلة من السماء..))

ففى هذا الخصوص كان هناك نظرية مفادها أن الكهرباء لم تكن موجودة في العصور القديمة .. أو ربما هذا هو ما نعتقده.. حيث ظهرت منحوتة فى معبد حتحور، حيث عُثر على نقش لمصباح كهربائي يمثل رجلاً يمسك بجسم زجاجي بيضاوي الشكل يبدو كمصباح كهربائى، وبداخله أفعى طويلة متصلة به ويجلس عليه شخص بجوار المنحوتة، ومن خلفه قرد بابون كبير يحمل سكينتين مما يفسره البعض بإنه بمثابة تحذير من الإقتراب خشية حدوث صاعقة كهربائية.

نظر إلى تلك الكلمات وهو يتعجب، كيف فاته كل ما قامت به وسام من شرح اللغز بطريقة بسيطة جداً، لكنه تعجب فعلاً من نظرية الكهرباء تلك، فهو لم يشاهد من الأصل هذه اللوحة الجدارية، ولكن فى القريب جداً سيكون هناك لمشاهدتها.. للتأكد من أنه المكان المقصود..مما جعله يتمتم فى قرارة نفسه:

- وكأننى كل يوم اكتشف شيئاً مُذهلاً فى التاريخ الفرعونى..

عاد يوسف إلى تفكيره بخصوص الجزء الأخير الذى يقول:

- ((وهناك تتوالى البركات حيث بيت الولادة لتسطع النجوم من مغرب شمسه إلى الأبد، والتى لن تُطفأ أبداً..))

هنا أخبرته وسام أن هناك بالقرب من معبد دندرة يوجد معبدين وهما إيزيس، وهو معبد صغير، بجانب الركن الغربي للمعبد الكبير، وقام ببنائه القيصر الروماني نيرون.. كما يوجد "ماميسي" ويسمى قديماً (بيت الولادة) شمال معبد إيزيس، وهو موهوب إلى الإلهة حتحور... إذن المقصود هنا ليس معبد حتحور ولكن بيت الولادة هو المكان المقصود، ومعنى كلمة لتسطع النجوم من مغرب شمسه، يعنى أنه من الباب التى تغرب الشمس عنده، وقد أدرك تفسير ذلك والذى لم يخبر به وسام، فـ"جت" أراد أن يخبرنا أن تلك النجوم التى كانت تسطع هم المبعوثين، والذى نجح فى دفنهم فى مقبرة سرية، حيث لن تُطفأ شمسهم أبداً، وللوصول إلى هذا المكان يجب أن ينطلق من الباب الذى تغرب الشمس عنده.. وبمسافة معينة..

نظر من خلفه فلم يجد أحداً والكل نيام، فأخرج هاتفه وفتح ظهره ليفتح جزء قديم من البردية، والتى نجح فى قص السطر الأخير منها..

نعم لقد فعل ذلك عندما شعر أن رينيه ربما يغدر به أو يبعده عن السر، فكان عليه أن يحتفظ بهذا السطر الذى نجح فى قصه بحِرَفية شديدة بمشرطه الحاد، ليحتفظ بهذا الجزء الذى لم يعد أحد يعلم عنه شيئاً، حتى وسام عندما سألته وبالتالى ستصبح البردية ناقصة، ولو حاول أمهر الخبراء العثور على المكان المنشود فلن يستطيعوا دون ذلك الجزء.

أخرجه بعناية ليقرأ المدون به ويهمس بصوت خافض :

- ((ولو كانت على بُعد خمس آلاف ذراع قيصري))

فلأن الرومان هم من بنوا ذلك المعبد الموهوب إلى الآلهة حتحور، ومن المعلوم أن وحدة قياس الطول فى مصر الفرعونية كانت بالذراع حيث يبلغ طول الذراع اثنين وخمسين سنتيمتر تحديداً، إذن فلو أولى ظهره لباب غروب الشمس فى معبد ماميسي أو بيت الولادة و سار مسافة وبدأ فى حساب المقاييس على الآلة الحاسبة فستكون المقبرة إذن تقع على بُعد ألفان وستمائة متر بنفس الإتجاه..

لكن ستظل المشكلة التى ستؤرقه هى أنه الآن بين مفترق طرق.. هل يكشف سر جت المفقود ويكشف عن مقبرة الأغراب مُقدماً للعالم الدليل على وجود حضارة أطلانتس ليُثبت أن الحضارة المصرية قد قامت بمساعدات خارجية، أم يترك الأمر كما هو دون أن يكشفه.. دار داخله صراع بين تقديسه لمصر الفرعونية ورغبته فى عدم إفشاء أدق أسرارها والحفاظ على مجدها وغموضها، وبين الكشف عن تلك المقبرة للأغراب، وخاصة أن هناك العديد من آثارهم و مقتنياتهم بداخل تلك المقبرة بالتأكيد..؟، فهل يكتشفها مع رينيه أم يكتشفها وحيداً ويعمل على طمسها للأبد.

ظل يوسف يفكر حتى استقر على الرأى الأخير، لكن كيف سيبعد رينيه عن طريقه، وهو سيحصى عليه أنفاسه المتبقية حتى إكتشاف تلك المقبرة.. ظل يفكر كثيراً حتى اهتدى أخيراً إلى حل سيرضي بالتأكيد جميع الأطراف..

وحينما وصل لتلك النقطة أغلق عينيه مبتسماً وحاول أن يغفو خلال النصف ساعة المتبقية للهبوط فى مطار فيينا الدولى، حيث سيكون ألبير فى استقباله..

****

فى صباح اليوم التالى كان يوسف مع رينيه يتنزهان فى حديقة قصره، بينما بدا رينيه هادئاً جداً على غير عادته وهو يتحدث مع يوسف قائلاً:

- إذن أنت تخبرنى أن الأثر الذى سنبحث عنه موجود فى تلك القرية فى صعيد مصر، وهذا الأثر يتعلق بمقبرة فرعونية كاملة من عصر الأسرة التاسعة عشر أو العشرين.. حسناً فلتخبرنى إذن يا صديقي لما أحاط ماسبيرو الأمر بكل هذه السرية..؟
- لأن تلك المقبرة هى لأحد كهنة الجن يا رينيه..
- ماذا..؟
- إن الأمر ليس بغريب فلما اندهاشك..؟، لقد إشتهر الفراعنة بقدراتهم في فعل أشياء ترتبط بالسحر وتسخير الجن بطريقة ما، لمساعدتهم في إظهار قدرات غير طبيعية أو قدرات خارقة للطبيعة أثناء الطقوس الدينية داخل المعابد وأمام العامة من الشعب، لإظهار ملوك الفراعنة والكهنة أنهم أبناء الآلهة علي تلك الأرض المباركة، وبذلك يشعر أبناء الشعب أن ملوكهم وكهنتهم ليسوا من باقي البشر.
- أنا لست مندهشاً، لكن ما علاقة ذلك بقضيتنا..؟
- إنتظر حتى أُنهى حديثي وستعلم، لقد إستطاع الكهنة طوال عقود طويلة أن يرسخوا تلك الفكرة في وجدان المصريين القدامي من خلال السحر، ليكون دليل علي صدق كلامهم وعقيدتهم، فالكهنة في المعابد كانوا ماهرين في السحر الأسود والقدرة علي تسخير الجن ليكونوا كالعبيد لهم في الدنيا وفي الحياة ما بعد الموت، في الواقع كانت حياتهم جزءاً من هذا السحر، وكان لديهم العديد من التصورات تعتمد على ذلك، فحياة المصري القديم كانت تعتمد علي إيمانه الراسخ أنه يعيش في الدنيا ليقوم بتجهيز كل ما تتطلبه حياته فيما بعد الموت، خوفاً من فكرة ضياع روحه في الكون، وعدم عودتها إلي جسده مرة أخري، لذلك عندما يتم إدانة شخص ما أو يصب الفرعون لعنته وغضبه علي شخص ما كان يتم دفنه بطريقة عقابية بدون أن يُعالج جسده، حتي تتحلل جثتة وأثناء عودة الروح إلي الجسد لا تستطيع الروح التعرف علي الجسد، مما يجعلها هائمة بدون العودة إلي الجسد.

هتف رينيه فى نفاذ صبر:

- ادخل فى حديثك مباشرة يا يوسف، لقد سئمت من الموضوع بأكمله..؟

لم يكترث يوسف بجملته الأخيره فاستكمل محاولاً إقناع رينيه بما يمهد له :

- لذلك كان المصري تفكيره الكلي في الحياة ما بعد الموت وكيفية ترتيبها، لكي يكون بجوار الفرعون والكهنة وعائلته في الحياة الأبدية، ولذلك خاضوا الكثير من التفاعلات والتجارب التي لم يخبرنا عنها التاريخ، لنرسم صورة واضحة عن تقدمهم وأسرارهم في هذا المجال، يمكننا أن نلاحظ العديد من العلامات التى قد تدلنا أو تخبرنا بشيء ما عن ذلك، وخصوصاً في كتاب الموتى، فهناك العديد من علامات الإستفهام والغموض في العلاقة بين حياتهم بعد الموت والسحر، لذلك يا رينيه نجد ان بعض الكهنه نبغوا فى التواصل مع الجن، و كانت لهم معابدهم الخاصة فى الصحراء بعيداً عن العمران للتواصل مع الجن، وليس الجن العادى فقط، بل ملوك الجن وعظماء الجن لحماية قبور الملوك والملكات وعظماء القوم المقربين من الفرعون نفسه من السرقة.

لذلك دائماً يمكن أن نجد الكلمات التي تدل علي اللعنة والتهديدات على أبواب المقابر، وأن الإنتقام سوف يكون قاسي جداً.. وقد إستخدم كهنة الفرعون الجن لحماية المقابر، وربما كان هذا هو السبب وراء لعنة الفراعنة، لأن الجن يطارد من يسرق مقابر الفراعنة والملوك وتحل اللعنة عليه وعلي من حوله، وهناك بعض الكتب والتي تؤمن بلعنة الفراعنة ترى أن السفينة العملاقة تيتانيك قد غرقت بسبب مومياء فرعونية، أساساً كانت ملعونة بداخل السفينة، وكان يتم نقلها إلى أمريكا.. وأن هذه السفينة لا يمكن أن تغرق وأن ماحدث لها شيء عجيب وغريب...

والآن، وخاصة في صعيد مصر تجد الكثير من الباحثين عن الكنوز والآثار ومن يسيل لعابهم عندما يخبرهم أحدهم أنه ربما يوجد شيء عظيم القيمة أسفل منازلهم فيهرعون للتنقيب أسفل منازلهم من أجل إكتشاف ما في باطن الأرض فربما تكون مقبرة ما، تجدهم يلجأون إلى السحرة عظيمي الشأن الذين يملكون القدرة علي

التعامل مع حارس المقبرة من الجن، وكيفية التغلب عليه لمعرفة مكان المقبرة وفتحها، وربما يكون هذا الجن له سطوة بين الجن.

ابتسم رينيه وهو ينظر إلى يوسف قائلاً بخبث:

- مثل الشيخ فاخر كبير عائلة سبيع بصعيد مصر.

توقف يوسف عن السير بجواره، ولم يُظهر اهتمامه وإنما أجابه ببرود:

- أرى أنك لم تضع وقتك، وظللت تبحث عن أصولى فى مصر.
- بالطبع يا صديقي، لابد أن أتحرى عن كنزى، لا تنسى أنك لا تقل عن ملايين الدولارات والتى تمشي على الأرض..
- حسناً، و ماذا علمت أيضاً..؟
- بدون ضغائن يا عزيزى، فقد علمت موضوع لا أدرى ما تسميته بالعربية، اه لقد تذكرت موضوع (الزهراوى..) أو ما يطلق عليه الشخص الزوهرى.

وهنا بدأ يوسف فى الإرتعاد حرفياً وهو ينظر إلى رينيه بحدة ليجذبه من يده قائلاً بغضب:

- ماذا علمت عن هذا الموضوع..؟، ومن أخبرك..؟
- ليس مهماً من أخبرنى، المهم أنه يقال عندكم فى الأساطير أن هذا الشخص هو الذي اشترك فيه الإنس والجن فأصبح في برزخ بينهما، فيستطيع أن يتعامل مع الجني لشفافية روحه، ويستطيع أن يتعامل مع الإنس لأنه في عالمهم.. فهو مطلوب عند الجن لأنه وسيط جيد، و عالم الجن يتفاخرون جداً و يشعرون بالمباهاة إذا تملك أو صاحب أو صادق هذا النوع أو هذا الإنسان، وعموماً فإن عالم الجن يعني لما يصاحب جني إنسي، و هذا شيء عظيم عندهم فهم يتباهون بهذا الأمر و يفرحون به، فالجني يتباهى بأنه مقترن بإنسي و أن صديقه إنسي، فهو شيء جميل وجيد عندهم، لاسيما إذا كان الإقتران مبني على عهد بينهما، عهد دموى يا صديقي يوسف.

هتف به يوسف مُحذراً:

- يجب ألا تتحدث عن...

لم يتوقف حديث رينيه بل استمر وقد بدا متفاخراً عندما عرف السر الذى يخفيه يوسف دائماً عن الجميع :

- وقد قيل أن طبيعة روحه هي شفافة، و تستطيع أن تتأقلم مع عالم الجن وعالم الإنس فيكون وسيط جيد، وإشتراك الجن والإنس فيه يجعله أقرب الى أن يكون شفاف، وهذه النوعية من البشر مطلوبين جداً لدى الكثير من المنقبين عن الكنوز واللاهثين خلفها الذين يبحثون عن هذا النوع وعن الإنسان الذي يستطيع أن يكشف لهم ويستطيع أن يتحاور ويتخاطب مع الجن الذين يدعون أنهم حراس لهذا الكنز، وذلك عن طريق العهد الدموى يا يوسف، فالجن يسعى لدمائك المختلفة، فيأتمرون بأوامرك بقطرات من دمك.. فيكشفون لك ما اختفى من الكنوز فى باطن الأرض .. لماذا كل ذلك..؟، بسبب العهد الدموى ..العهد الدموى يا يوسف، من أيام الراحل جدك الكبير مروراً بوالدك.. الكل فى الصعيد يعرف عائلاتكم، و يعرف سركم المخفي الذى لا تبدونه أمام أى غريب.. يعرف سر تقطع أيديكم من الشفرات الحادة التى تسيل منها دمائكم الحارة لتثير لعاب الجن.. نعم لقد علمت أن هناك مواصفات معينة لهذا الشخص مثل ما يسمونه خاتم سليمان، و هي عبارة عن نقطة سوداء في العين وخط اليد يكون مختلف، وهذا ما أنا متأكد منه لو خلعت قفازك الجلدى هذا، أو حتى بالنظر على ساعديك.. وقد لا توجد تلك الصفات بأكملها فيك أو حتى ليس بك شيء من تلك العلامات، ولكنك تستطيع أن تتأقلم مع عالم الإنس ومع عالم الجن.
- لكن ...
- دعنى استكمل حديثى يا يوسف، فليس هناك إنسان زهراوي ولا يعرف شيء عن عالم الجن، لابد للزهراوي أن يُخاطب من الجن، بمعنى أنه يجب أن يتم الإتصال بك فى عمر الطفولة، مثلاً فى سن خمس سنوات من عمرك، ومع سن العشر سنوات يبدأ الانسان الزهراوى فى سماع أشياء ورؤية أشياء أخري، فلا يمكن أن تجد انسان زهراوي عمره 20 أو 25 سنة يقول أنه لم يرى أو لم يسمع أو لم يحلم بالجن أو لا يشعر أن لديه أموراً غريبة..المهم يا صديقي..إن هذا الشخص الذي كما قلنا تلهث خلفه السحرة ويلهث خلفه المشعوذون والدجالون ويحاولون أن يصادقوه وأن يصاحبوه، ومنهم من وقع في حبال السحر وأصبح ساحر عليم، والأفضل عند

الشياطين إذا أرادوا أن يستخدموا ساحر و أن يجعلوا منه ساحراً إنسياً، فهم يختارون هذا النوع لأنه يمتلك الشفافية.

وجم يوسف لبرهة لكنه انفجر ضاحكاً من حديث رينيه، الأمر الذى لم يتوقعه الأخير أبداً مما جعله يندهش من رد فعل يوسف فأردف:

- لا أعتقد أنى كنت أخبرك عن أحد النكات يا يوسف، لما هذه الهيستريا منك..؟
- من أين أتيت بهذه المعلومات يا صديقي..؟
- حسناً أنت تنكر، هذا من حقك، و لكن من حقى وإن كنت لا أصدق أى من تلك الخزعبلات المتوارثة فى تراثكم، إلا أنه لا تنس أنى رأيت بعينى دليلاً على كل ما أقول..

إبتسم يوسف وهو يتمتم فى سخرية:

- ألا وهو ..؟
- مكان البرديات يا يوسف.. ألا تظن أننى لم أجد تفسير منك مقنع بذلك حتى هذه اللحظة..؟
- حسناً، وإن وافقتك على ما تقول من هذه الخزعبلات.. هل هناك ما يسوء فى الأمر..؟
- أنت تهزأ إذن.. أنت ثروة متحركة يا صديقي.. لما لا أقترح عليك إقتراح قد يفيدك..؟
- تفضل..
- ما رأيك لو أنشأنا شركة مشتركة للتنقيب عن الآثار المصرية فى البر الغربي مثلاً، وخاصة أن هناك الآلاف من الأماكن التى لم تُكتشف بعد.. فأنا أوفر لك كل ما تتخيليه من أموال ومعدات وتصاريح للتنقيب فى الصحراء المصرية، وأنت بإجتهادك مع بنى قومك من الجن....

قاطعه يوسف مُحذراً للمرة الثانية قائلاً:

- احذر عن الحديث عن هذه الأمور يا رينيه، فأنت لا تعلم فى أى ملعب ألقيت بكرتك.. إن الأمر....

قاطعه رينيه بخبث أكبر:

- ولما القلق يا عزيزى ..؟، فأنا أعلم أن هذا الموضوع سري جداً، وقد ورثته عن المرحوم والدك فى طقوس معينة، أو عهد بينك وبين حلفائكم من الجن.. تُقدم إليهم دمائك وهم يسيرون خلفك ليدلوك على أهم المقابر الفرعونية، حتى لو ملكية، وعشرات المقابر التى اكتشفتها فى مصر وجعلت اسمك من مشاهير الباحثيين عن الآثار فى مصر ومعرفتك لمكان البرديات شاهداً على ذلك، فلم يكن ذلك مصادفة أبداً.
- ليس هذا وقته يا رينيه، فلدينا مهمة المفترض أن ننهيها.

أومأ رينيه برأسه متفهماً وهو يستدرك:

- حسناً.. أكمل، كنت تقول أن المقبرة تعود لأحد كهنة الجن الذين يحمون المقابر..حراس المقابر على ما أظن..

كان يوسف متوتراً من حديث رينيه لمعرفة الأخير سر مثل ذلك، فحاول أن يشتت رينيه على قدر ما يستطيع فإستكمل:

- تعود فكرة حراس الجن إلي أن تلك القبور قد تعرضت للسطو أيام الفراعنة نفسهم، ربما من لصوص أو من الفراعنة نفسهم، ففكرة الإنتقام ذاتها كانت لدي الملوك، حيث كانت تتم سرقة مقابر ملوك من أجل حرمان الفرعون الميت من كل الأشياء التي تُساعد روح الفرعون في التعرف علي جسده، لذلك نجد أن الكثير من المومياءات الملكية قد نُقلت إلي وادي الملوك بعد دفنها خوفاً من السرقة أو رغبة من الكهنة فى المحافظة علي المومياءات الملكية ..

ففكرة التعامل مع هذا الحارس والتي ينكرها الباحثون والعلماء، بالرغم من وجود الكثير من الحكايات الغريبة والأحداث الغامضة التي تحدث في تلك القري في الصعيد، فإن التعامل هنا يحتاج قدرات وطلبات خاصة مع الذي يقوم بحراسة تلك القبور، وأحيانا تلك الرغبات من السحرة تكون عنيفة مثل قتل طفل بمواصفات معينة للعثور على مدخل المقبرة، أو إحضار فتاة عذراء ليسيل دمها أمام مدخل المقبرة، أو تلاوة سور من القرآن لهداية الجن لهم، ولكن في حالة فتح المقبرة بدون رغبة من الجن، نجد أن منازلهم قد أُحرقت دون سبب ورؤية

ألسنة اللهب تظهر وتختفي بدون سبب، والطيور المشتعلة في الليل لتقع علي المزيد من منازل القرية لتنشر الرعب بين أهل القرية، ففي بعض هذة القري يجدون النار تظهر من دولاب حجرة النوم ثم تختفي بدون سبب أو في أحد أركان المنزل وتختفي أيضاْ بدون سبب.

- حسناً هل انتهيت ..؟، وهل بعد حديثك هذا تتوقع أن أتركك..؟، فأنت تعمل كل شئ ببساطة شديدة.
- دعنا ننهى الأمر أولاً ثم نتناقش بعد ذلك يا رينيه.
- إذن فعلينا السفر فى أقرب وقت والبدء فى معرفة المكان الذى بالطبع لن يعلم أى أحد عنه شيئاً غيرك..

عقد يوسف حاجبيه وهو لا يدرك إلى ماذا يرمى رينيه بقوله هذا فتساءل قائلاً:

- بمعنى..؟
- بمعنى أنى سأكون مرافقاً لك فى تلك الرحلة، وفى هذا المعبد وفى كل خطوة تخطوها فى هذا المكان الحار.. ولو حصلنا على تلك المقبرة يا يوسف فلك فيها النصف.
- مستحيل...

تطلع إليه رينيه فى دهشة قائلاً:

- ما هو المستحيل..؟، المستحيل أن أتركك وحدك فى هذا الكشف الأثري .
- إن الأمر فى غاية ولن تتحملة..
- هذا شأنى أنا يا عزيزى ولتعلم إنى اصر على القدوم معك حتى لو آخر العالم..

صمت يوسف وهله ثم إستطرد بهدوء :

- إذن فليكن، لكن بشرط واحد.
- وما هو..؟
- أن تظل البرديات فى حوذتى إلى أن ننتهى من هذا الأمر..

- ولكنى أرتاب فيك يا يوسف..؟

- كلنا نرتاب فى بعضنا يا صديقي، ولكن فى المرحلة القادمة علينا أن نثق فى بعضنا البعض حتى ننتهى من ذلك الأمر.. أنت تريد مرافقتى لخوفك من هروبي، وأنا أريد البرديات حتى لا تهرب أنت بهم، وإن كنت أشك أن أحداً ما سيفهم ما جاء بهم..

- حسناً، لك ذلك، وستكون معك فى الحال.. و ماذا أيضاً.؟

- فليتم الحجز على مطار أسوان الدولى لنمكث فى بيتى بالنوبة، وذلك لأستدعى فريق البحث الخاص بي ونتحرك فور وصولنا.

- ليس هناك أدنى مشكلة فى ذلك.

- لكن ليس الآن يا رينيه، فلدىّ مهمة أكثر أهمية فى القاهرة..

- وما هى تلك المهمة..؟

- فى المتحف المصري..بعدما عشت تلك القصة، علىّ أن أرى صاحب تلك المومياء الملعونة.

- و ما الهدف أساساً من ذلك.؟

- مجرد إشباع فضول يا رينيه..

- ولماذا كل هذه الرحلة فلنهبط إلى أسوان ثم إلى القاهرة، ثم إلى المعبد فى صعيد مصر كما تقول ولسنا....

قاطعه يوسف بإشارة من يده قائلاً بحدة:

- رينيه.. اليوم هو الأربعاء، إجعل ألبير يحجز لى غداً صباحاً على أول رحلة للقاهرة، وسأمكث هناك يومان وسوف أنتظركم فى مطار أسوان يوم السبت المقبل.. أعلم أنك قد تشك فى أننى قد أهرب، لكن تذكر جيداً أن ذلك ليس فى مصلحتى، وأنت كما أخبرتنى أنك تريد أن أكشف لك عن العديد والعديد من المقابر، والتى سأكشفها لك فلن أغامر بعداوتى لك.

فكر رينيه لمدة دقيقة وهو يتناول سيجاره ويشعله ليبتسم ليوسف مرة أخرى قائلاً وهو يقدم سيجار آخر له :

- لا تنس أنى وقتها سأصل إليك حتى لو كنت فى آخر العالم يا عزيزى.

- لا تهدد يا صديقي، فكلنا فى الهم سواء..

****

الفصل الثامن

****

العودة

****

أواه لذلك الإنسان الغبى المغرور، هل كُتب عليه أن يُساق كالأعمى وراء شيطانه الذى يسلط عليه نفسه، هل كُتب عليه أن يتجرع كأس الخطأ حتى ثمالتها ليدرك أنه أخطأ، وحتى لو أدرك ذلك فإن الآوان وقتها يكون قد فات ولم يعد يجدى الندم بعدها، ربما هذا هو قدر الإنسان على هذه الأرض، أن يُخير دائماً بين طريقين لا ثالث لهما، إما حق أو باطل، إما خير أو شر، فلا يوجد بينهما منطقة رمادية ليقف فيها على الحياد، إنه إن يفعل ذلك يكون قد خدع نفسه وهو يظن أنه يُحسن صنعاً ..

****

وفى تمام الواحدة من ظهر يوم الخميس، بعد هبوط الطائرة القادمة من فيينا في مطار القاهرة الدولى، كان يوسف واقفاً فى صالة الوصول فى انتظار ختم جواز سفره، وهو يجر من خلفه حقيبته الخاصة، بعدما وضع رقمه المصري فى الهاتف ليفتحه مُحدثاً أكرم صديقه ومدير أعماله بمصر، الذى ظل يتبادل الحديث معه إلى أن بادره يوسف قائلاً:

- المهم يا صديقي، انصت إلىّ جيداً،سأبيت الليلة فى شقتى فى التجمع، لأننى فى الغد مرتبط بمشوار خاص للمتحف المصري، عليك بالإتصال بشوكت لمقابلته هناك لأمر هام جداً، وسأعاود الإتصال بك فى المساء، لا تنس يا صديقى فرقم هاتفه ليس معى، وفى صباح يوم السبت ابحث لى عن أى وفد سياحى يزور مجمع معابد دندرة وإحجز لى فيه، فلا أريد أن ألفت الأنظار بالتجول هناك بمفردى..

حاول أكرم مقاطعته إلا أن يوسف بادره هاتفاً:

- لا تقاطعنى يا أكرم.. أعرف عما ستسأل، نعم.. فأنا مُراقب.. لذلك انصت بالله عليك، ففى مساء يوم السبت ستستقبل فى مطار أسوان عدة أشخاص على الطائرة القادمة من النمسا، سأرسل لك قائمة بأسمائهم، وعليك بإستقبالهم بنفسك فى المطار وإحضارهم إلى المنزل فى النوبة، وبعد أن تفعل ما طلبته منك اتصل بكل فريق البحث الخاص بنا، فأنا أود ملاقاتهم فى صباح الأحد القادم بإذن الله.. أما الأهم من كل ذلك يا أكرم فاليوم على الطائرة القادمة من دبي فى تمام الرابعة فجراً رقم 977 هناك شحن خاص بإسمي، عبارة عن حقيبة كبيرة خاصة، بها كل أدواتى مع شخص يسمي فؤاد الصيرفي، فأنت تعلم أنى لا أستطيع الدخول بها... نعم أخبر رجالك لإنهاء الأمر.. لا لم أخرج من المطار بعد .. نعم أعلم أن فاروق فى انتظارى بالخارج .... انتظر يا أكرم دقيقة من فضلك ..

كان فى تلك الأثناء قد وصل إلى منفذ ختم جوازات السفر فوقف وهو ينظر مندهشاً إلى الضابط الموجود خلف الزجاج، والذى لم يقم بختم جواز السفر بل نظر إليه نظرة متفحصة قائلاً:

- يبدو أن هناك خطأً ما يا سيد يوسف، لذا عليك بالإنتظار لبضع دقائق..

قالها وأخذ جواز السفر ليشير إلى أحد رجال الأمن الواقفين، والذى أتى مهرولاً ليستلم جواز السفر ليختفى به فى أحد الممرات، بينما يوسف يقف وقد بدا عليه التوتر، فاقترب مرة أخرى من الضابط قائلاً:

- هل هناك خطب ما..؟، أيوجد خطأ فى الجواز..؟

أشار إليه الضابط فى هدوء قائلاً:

- من فضلك انتظر فى هذا المكان ولا تتحرك، فالأمر لن يتعدى بضع دقائق..

أمسك يوسف بالهاتف مرة أخرى وهو يتحدث مع أكرم:

- يبدو أن هناك أمراً ما فى صالة الوصول.. إن لم أتصل بك مرة أخرى فى تمام الثالثة حاول التصرف، فسأكون وقتها محجوزاً فى أمن المطار، فهناك أمراً ما لا يريحنى ونظرات الضابط أساساً لا تروق لي..

وما إن أنهى يوسف مكالمته مع أكرم حتى اقترب منه رجل الأمن، فحاول يوسف أن يبدو متماسكاً وهو يتساءل عما إذا كان هناك أمراً ما قد كشفه أو كشف تجارته فى الآثار الفترة الماضية..، كل ذلك كا ن يدور فى خلده حينما بادره رجل الأمن قائلاً:

- أستاذ يوسف، تفضل معى.
- إلى أين .؟
- لمقابلة ضابط الأمن الوطنى بالمطار.
- هل هناك خطب ما ..؟
- لا أعلم .. سيخبرك هو بكل شئ.

سار خلف رجل الأمن فى طرقات وسط طرقات، حتى وقف أمام غرفة وطرق الباب ثلاثة مرات، وقد دلف رجل الأمن ومعه يوسف إلى الغرفة ، ليجد شاباً يجلس من خلف مكتب زجاجى فخم وهو يشاهد أحد التقارير الإخبارية لإحدى

المحطات العربية، بينما كان على يساره شاشه كبري مقسمة إلى حوالى عشرة أقسام لمراقبة صالات الوصول والمغادرة .. فأعتدل وهو يشير ليوسف بالجلوس بينما أشار لرجل الشرطة بأخذ حقيبة يوسف خارجاً ومعها هاتفه المحمول.

نطق يوسف بعد ثلاث دقائق من الإنتظار، بينما كان الضابط يُقلب فى جواز سفر يوسف وهو ينظر إليه مرة بعد مرة:

- هل هناك خطأ ما..؟، ان كان لديكم ما يديننى فلتخبرنى، فأنا لدىّ مواعيد هامة ولابد من اللحاق ب.....

قاطعه الضابط الشاب قائلاً:

- مهلاً يا سيد يوسف، فستضطر إلى أن تلغى جميع مواعيدك اليوم بالفعل.

إنعقد حاجبا يوسف وهو يهتف فى صوت حاول ألا يبدو عليه التوتر:

- لماذا..؟، هل هناك تهمة معينة تود.....
- إننا لا نُلقى التهم جزافاً يا سيد يوسف، فلا تتعجل الأمر واصبر فقط.. والآن أخبرنى ألا تجد أن الأمر مُريباً بعض الشئ ...
- وما هو الغريب والمريب فى الأمر..؟
- أنك تعمل أو كنت تعمل فى وزارة الآثار كمستكشف عن الآثار الفرعونية، وقمت بالكشف عن عشرات المقابر وقدمت للدولة الكثير من الكنوز الفرعونية.
- حسناً، أعتقد أن ذلك يصب فى مصلحتى وليس العكس.
- تمهل قليلاً يا سيد يوسف.. فقد تركت كل ذلك لتستوطن فى بريطانيا وتكمل دراستك هناك منذ عدة سنوات وتتقوقع داخل معهدك البريطانى، وخلال تلك الفترة لم تحضر إلى مصر إلا فى زيارة سنوية فى شهر رمضان فقط لزيارة بعض أقاربك والمكوث فى قصرك بالنوبة .. أليس كذلك..؟
- نعم بالفعل..
- ثم فجأة وبدون سابق إنذار تقوم بالرحلات التالية خلال فترة وجيزة جداً لا تتعدى عشرة أيام.

كالتالى:

من انجلترا إلى النمسا..

ومن النمسا إلى فرنسا..

ومن فرنسا تعود مرة أخرى على النمسا..

ومن النمسا مرة أخرى إلى تركيا..

ومن تركيا إلى النمسا..

وأخيراً من النمسا إلى القاهرة..

كل ذلك فى عشرة أيام فقط يا يوسف وجواز سفرك يدل على ذلك ..ليس هذا فحسب وإنما أيضاً تم حجز لرجوعك إلى انجلترا الخميس القادم.. ولا تستقر فى أى بلد لأكثر من يومين، أليس كذلك..؟

- كما تعلم فأنا باحث فى الآثار ، والجامعة فى بريطانيا لديها طموح فى انشاء فريق عمل للبحث عن آثار قد تعود للعصر الفيكتورى.

- هل لديك ما يثبت صحة كلامك..؟

- إن هذا الحديث بالطبع لن يتم كتابته فى أوراق، فنحن فقط نقابل إناس ونقوم بالتحقيقات اللازمة لمعرفة بعض الآثار الإنجليزية التى تم تهريبها فى أعقاب الحرب العالمية الثانية.

- هل هناك دليل على صحة حديثك يا يوسف..؟

- أنا لا أجد أى جريمة يا سيدى، فأنا لم أنكر كل ما تقوله، بل لقد حدث كل ذلك بالفعل، ولكن أخبرنى أنت هل بذلك أكون متهماً بجريمة ما..؟

- بالطبع لا.. ولكن إذا كانت الآثار المصرية هى التى تنوى تهريبها فسيكون تلك جريمة، وليست أى جريمة كما تعلم بالتأكيد ..

- لو كنت أنوى تهريب آثار لكنت قمت بتهريبها من زمن يا سيدى.

- حسناً، وما تلك الصفقه التى تنوى الإشتراك فيها..؟

- أخبرتك أنها ليست صفقة، إنها مجرد تحقيقات مع بعض تجار الآثار فى تلك الدول التى أخبرتنى عنها.

- وإلى ماذا توصلت ..؟

- إنها فى عدة أماكن، ولازال أمامنا الكثير للكشف عنها.. فمنها ما هو فى فرنسا، وقد كدت أن أصل إلى بعضها إلى حد ما ولكن الإنتربول كان مُلاحقاً لى..

- نعم هذا صحيح فالإنتربول قد أرسل لنا للتحرى عن سلوكك، وكذلك للإشتباه بك فى فرنسا، لإجتماعك مع أحد تجار الأسلحة وأفّاق آخر يعمل وسيط للآثار.

- إذن هذا ما يثبت لك حسن نيتى، لكنى لم أعلم أنه تاجر أسلحة، أما الوسيط الآخر فقد كان دليلى للوصول إلى الرجل الفرنسي.

- لا أصدقك يا يوسف، إن فى الأمر شيئاً لا زلت تُصر على عدم البوح به.. لما أتيت إلى مصر إذن..؟

- مجرد زيارة عادية، ومحاولة منى مرة أخرى لتقديم أوراقي فى جامعة مصرية ومقابلة غداً فى المتحف المصري، فقد قاموا منذ فترة كبيرة بمخاطبتى لأمر يتعلق بالتنقيب..

- ما زال هناك أمراً ما لا أفهمه، ولست مرتاح لحديثك يا يوسف.

فى هذه الأثناء دق الهاتف الموجود على مكتبه، فالتقط السماعة وهو يستمع فقط لمحدثه ، ثم يُنهى المكالمة وهو يقول حيرة:

- حسناً يا سيد يوسف، لا يوجد أى شئ يدينك، تستطيع الإنصراف الآن.

وضغط على زر بجواره فحضر رجل الأمن مرة أخرى، وأخذ جواز السفر مشيراً ليوسف بأن يذهب معه..

وعندما خرج يوسف من المطار أخيراً كان فى انتظاره سيارة فاخرة يقودها فاروق السائق الخاص به، والذى استقبله مُهللاً لينطلق به إلى القاهرة الجديدة القريبة من المطار..

حاول يوسف الإسترخاء، دون أن يغيب عن ناظره وجود سيارتين تتبعه بمجرد خروجه من بوابات المطار..

****

فى صباح الجمعة كان يوسف يجلس فى مكتب الأستاذ شوكت نائب مدير المتحف وصديقه القديم يتناقشان فى موضوع تلك المومياء الصارخة، بحجة أن دراسة يوسف تتطرق لهذا الأمر، مما جعل صديقه القديم يتفاخر أمامه بتلك القصة المتوارثة، وهو يستدرك:

- بالفعل يا صديق ، فمن النادر أن تجد ما يشير إليها كثيراً فى التاريخ الفرعونى، فقد طُمست جميع الحقائق ولم نستدل على الحقيقة إلا من بعض برديات أحد القادة وهو يحكى تفصيلاً عن الجريمة.
- ولماذا حتى الان لا نجد الحقيقة ونسير وراء عشرات الأساطير يا شوكت..
- بالطبع كان يلزم إخفاء تلك القصة والتى تشير إلى أول محاولة اغتيال لفرعون يا يوسف، فذلك يُعتبر وصمة عار فى التاريخ المصري بأكمله.. حتى تلك المومياء لم يتم عرضها للجمهور حتى الآن .
- ولماذا ..؟

أجابه شوكت وهو ينهض ويشير إليه ليتبعه قائلاً:

- سترى بنفسك السبب..

نهض يوسف ليتبع شوكت فى طريقهم لمخزن المتحف المصري فى الأسفل، بينما شوكت لم يتوقف عن استعراض معلوماته ولو لدقيقة واحدة، أما يوسف فقد كان يتظاهر بالاندهاش من حديثه حتى يصل فقط إلى تلك المومياء ..

- أتعلم يا يوسف أن المومياوات دائماً ما تلفت نظر الباحثين والدارسين لما تحمله من أسرار فرعونية حول فن التحنيط، وكيف استطاع الإنسان المصرى القديم أن يحنط الموتى، وهو السر الذى لم يتم اكتشافه حتى الآن، كما أن تلك المومياوات تجذب العديد من الزوار للمتحف، فركن المومياوات هنا فى المتحف يستقبل يوميًا العديد من الزوار.
- ولما لا تعرضون بنتائور فى الأعلى وسط بقية المومياوات.

ضحك شوكت وهو يهتف:

- نعرضها للجمهور؟!!، كيف يا صديقي ونحن فى المخزن نغطيها بقطعة قماش من الأصل حتى لا نضطر إلى رؤيتها دوماً.. فوجهها مُرعب بصورة لن تتخيلها.

كانا قد وصلا فى تلك اللحظة إلى صالة المومياوات الموجودة بالمخزن، وبجوار أحد التوابيت الموضوعة على الأرض أشار شوكت إلى مومياء مُغطاة بقماش أبيض قائلاً ليوسف:

- ها هو صديقك، فلتسحب القماش إن أردت رؤيته..

تقدم يوسف ليسحب الغطاء، ثم ما لبث أن ندت منه صرخة فزع على غير عادته لمجرد رؤية المومياء، مما جعل شوكت يضحك بسخرية .. فقد كان المنظر يفوق قدرة يوسف على التخيل، فالمومياء كانت لشخص تبدو عليه ملامح الألم على وجهه، ليس ألم طبيعى بل إنها آلام رهيبة تلك التى عاناها قبل أن تُزهق روحه، فقد كان مفتوح الفم و كأنه يصرخ ألماً أو كأنه قد رأى شياطين الجحيم تجذبه إليها قبل أن تفيض روحه.. لون جلده كان مختلفاً هو الآخر وكذلك اعوجاج فكه بصورة مرعبة.

استطرد شوكت فى تباهى :

- أعلم أن الأمر صعباً، لذلك لم يتم عرضها للجمهور لسببين.
- الأول بالطبع هذا الشكل المرعب..؟

- نعم يا يوسف، أما الآخر كان يرجع لعدم علمنا عنها أي شيء عنها، ولكن عندما قمنا بإعداد دراسات عليها من خلال تعرضها للأشعة المقطعية والـ "DNA"علمنا أن المومياء تابعة لابن رمسيس الثالث.. وهذه "المومياء الصارخة" تم اكتشافها بمنطقة الدير البحرى عام 1886، ضمن مجموعة كبيرة من المومياوات الملكية عن طريق عالم الآثار "جاستون ماسبيرو".

والمومياء الصارخة هى لشاب لم يتم معرفة هويته قبل فحص الحمض النووي، بكامل بنيته الجسدية، ولم يكن مصاباً بأى إصابات على الإطلاق، ولكن تم تحنيطة ودفنه مقيد اليدين، ولم يُتبع فى إجراءات دفنه مثلما كان يُتبع فى التاريخ المصرى القديم، فلم يتم استخراج أحشاءه من البطن ولا جمجمته.

وكما ترى فإنه تظهر على ملامح وجهه آلام وخوف كبير، حيث يُرجح أن صاحب المومياء مات مختنقًا أو مسموماً كما تلاحظ عندإكتشاف المومياء الصارخة أنها وضعت داخل تابوت خشبى غير مزين بزخارف أو مرصع بالأحجار، مثلما كان متبع فى تلك الفترة، كما لا يحمل التابوت اسم المدفون بداخله، بالإضافة للفه فى جلد ماعز وهو ما كان يعتبر عند المصريين القدماء نجس، لأن الماعز كان من أعداء "رع " إله الشمس... مما دفع العديد للتساؤل عن ما إذا كان الغرض من كل هذا هو التحقير من شأن هذه المومياء، فلماذا تم وضعها بجوار الملك رمسيس الثالث أعظم ملوك مصر؟، كما تم وضع المومياء فى قماش من صوف النعاج، ووفقًا لطقوس الدفن القديمة فهم لم يعتادوا أن يستخدموا تلك النوعية، ولكن كان الغرض فيما يبدو هو الإمعان فى التحقير من شأن الميت.

لذا فقد تعددت الآراء حول تلك المومياء الصارخة، ومن أحد تلك التفسيرات أن هذه المومياء تخص ابن رمسيس الثالث الخائن، وقد كان أميرًا آنذاك ومهووسًا بالسلطة، حيث قام بخيانة أبيه بمساعدة والدته الملكة "تى"، ليطيح بأبيه من على العرش، واستدلوا على ذلك بمخطوطة من الورق البردى توضح أنه كان هناك بالفعل مؤامرة ضد الملك رمسيس الثالث تهدف إلى قتله وجعل ابنه حاكمًا لمصر.

كما تسرد المخطوطة أن هناك رجال من الدولة تعاونوا مع ابن رمسيس الثالث، إلا أنه سرعان ما اكتشف الأخير المؤمراة وتم إلقاء القبض على المتآمرين وحكم عليهم بالإعدام، ولكن ابنه تم صدور حكم بالعفو عنه وتُرك له الفرصة للموت بالانتحار، ولذلك يُرجح أنه فى الغالب انتحر بعد تناوله السم.

- لم نر أبدا مومياء بمثل تلك الهيئة يا شوكت إنها معاناة، ليست طبيعية على الإطلاق، وتقول لنا إن شيئاً غريباً قد حدث معه.

- فى رأيي المتواضع أنه لسبب ما فالصراع كان دائر في مرحلة تحنيطه، فأحد الجانبين كان يعتقد أنه لا يستحق البقاء للحياة الآخرة، بينما كانت الجهة الأخرى تعتقد أنه يستحق أن يبقى جثمانه، ويمكن أن يتم التجاوز عن أخطائه السابقة، ولذلك تم وضعه بهذا الشكل بجوار والده.. وأوضح أنه عندما قمنا فحصنا المومياء وجدنا أن هناك آثار حبال على رقبتها، وأنه تمت تغطيتها بجلد الغنم، لأن الفراعنة كانوا يعتقدون أنها نجسة، وأعتقد أن جلد الماعز كان مرتبطاً لدى القدماء بأن الشخص سيذهب إلى النار، مشيرًا إلى أنهم إذا كانوا يعتقدون أنه سيدخل الجنة كان سيحنط ويتم تغطيته بالكتان.

وقد وجدت هذه المومياء ويديه ورجليه مربوطتين بحبال من الجلد وتم تجفيفه في ملح النطرون ثم صب الراتنج بداخل فمه المفتوح، كما أن وجود علامات شنق على رقبة الرجل المجهول تتطابق مع النص الموجود ببردية مؤامرة الحريم، التي تسجل قصة المؤامرة على قتل الملك رمسيس الثالث.

- وهل فحصتم والده رمسيس الثالث..؟
- بالطبع، فعند فحص مومياء الملك رمسيس الثالث ضمن أعمال المشروع المصري لدراسة المومياوات الملكية، ظهرت أدلة جديدة عن حياة الملك ووفاته تفيد بأنه وإن كان يعاني من التهاب بالمفاصل، لكنه لم يتوفى نتيجة لكبر سنه، فعند الفحص الدقيق لمنطقة الرقبة بالأشعة المقطعية تبين أن شخصاً ما كان قد فاجأه من جانبه بطعنة في الرقبة بسلاح حاد ومدبب كالخنجر، ووصل عرض الجرح البالغ في الأنسجة ل 35 مم وامتد بعمق حتى وصل لنهاية الفقرة الخامسة وحتى الفقرة السابعة من فقرات الظهر، حيث قطع الجرح جميع الأعضاء الموجودة بمنطقة الرقبة بما فيها البلعوم، والقصبة الهوائية، والأوعية الدموية الأساسية.
- حسناً يا شوكت هل لك أن تتركنى معها عدة دقائق..؟

هتف شوكت فى دهشة :

- ماذا..؟!!، هل فقدت عقلك يا يوسف..؟، لماذا ..؟

هز يوسف كتفيه فى لا مبالاة قائلاً:

- لا أعلم، ربما هى رغبة فى تأمل نلك المومياء وبالطريقة القاسية فى قتلها وتحنيطها، أو ربما مجرد فضول، أو ربما عظة، لا أعلم ولكنى أشعر أنى أريد البقاء وحدى بالفعل مع تلك الحالة النادرة التى ربما لن تتكرر..
- حسناً، سأنتظرك فى المكتب خلال عدة دقائق.. إن فتح المخزن من البداية أمر غير مسموح به ..لكنى..

قاطعه يوسف متوسلاً ..:

- هى فقط دقائق يا صديقي..

خرج شوكت بعد أن تطلع إلى يوسف مندهشاً.. بينما تسمر الأخير أمام المومياء وكأنه يحدثها ويحاول أن يعرف آخر لحظات مرت عليه قبل تجرع السم القاتل.. لم يكن منظرها يثير الرعب فى قلب يوسف بقدر ما أثار الشفقة على مصير الإنسان الذى تطغى عليه طموحاته وطمعه حتى ليشعر أنه سيملك النجوم بيديه، فيبيع الدنيا وينحط إلى أدنى الدرجات متخلياً عن أغلى وأقدس ما يملكه الإنسان.. شرفه وقيمه ومبادئه، ويضحى بأقرب الناس إليه من أجل الوصول إلى مكانة زائلة ومُلك فانى..

أواه لذلك الإنسان الغبى المغرور ، هل كُتب عليه أن يُساق كالأعمى وراء شيطانه الذى يسلط عليه نفسه، هل كُتب عليه أن يتجرع كأس الخطأ حتى ثمالتها ليدرك أنه أخطأ، وحتى لو أدرك ذلك فإن الآوان وقتها يكون قد فات ولم يعد يجدى الندم بعدها، ربما هذا هو قدر الإنسان على هذه الأرض، أن يُخير دائماً بين طريقين لا ثالث لهما ، إما حق أو باطل إما خير أو شر، فلا يوجد بينهما منطقة رمادية ليقف فيها على الحياد، إنه إن يفعل ذلك يكون قد خدع نفسه وهو يظن أنه يُحسن صنعاً ..

دار كل ذلك فى خُلد يوسف وهو يتطلع إلى تلك المومياء الجاثمة أمامه لتشهد على ذنب لم يطويه الزمن ولم يغفره التاريخ لم يدرى وقتها لما ذكرته تلك الأفكار بنفسه، فها هو ذا يفعل ما فعله بنتائور، كيف يكون باحثاً فى علم المصريات وعاشقاً له ومدافعاً عنه، فى الوقت الذى يبرر فيه لنفسه بيعه لتراث أجداده، صحيح أن الروتين والمحسوبيات فى بلده قد سلبوه طموحه وأحلامه التى عاش من أجلها وقتلوا كل ذلك بداخله بل وجعلوه يغادر إلى بلاد غريبة لم يشعر فيها سوى ببرودة قلبه وروحه، جعلوه يبتعد عن معشوقته مصر، ربما من أجل أن يحقق طموحاته أو ربما من أجل فرص أفضل

للمستقبل أو ربما ليهرب بعيداً لعجزه وجبنه عن المواجهة، ولكنه ظل يشعر أنه غريب، قد إستوطنت الغربة صدره تتبعه أينما ذهب ، ظل دائماً يشعر أنه يبيع نفسه مع كل قطعة يبيعها من تراثه وتاريخه ..

تُرى هل حان الوقت لتعود وتُكفر عن خطاياك فى حق بلادك يا يوسف، أم أنك ستكون مثل بنتائور، تعيش وتموت وأنت تتجرع كأس الخيانة لأصولك وحضارتك وكل تلك الأفكار التى عشت تدافع عنها فى العلن لتبيعها فى الخفاء....

شعر وكأنه قد إختنق وهو يقاوم تلك الدمعة السخيفة التى كانت تقاوم للهروب من عينيه، فإستدار ليغادر وهو يشعر أن ذلك الصراع الذى يدور بداخله قد بدأ يُحسم ...

للأبد......

****

في عصر يوم الجمعة كان يوسف يتجول مع أحد الوفود الروسية ومعه أكرم وثلاثة من المساعدين له داخل معبد دندرة أخيراً.. ظل يتجول بالقرب من الجميع ليبحث عن اللوحة التى تدل على أن المصريين القدماء قد عرفوا الكهرباء، والتى أشارت إليها وسام فى تفسيرها للغز البردية، والتى قالت له أنها موجودة فى هذا المعبد، كان يحمل فى يديه كاميرا ليقوم بتصويرها .. فقد كان المعبد بالقرب من قنا وتحديداً فى قرية دندرة.. بينما لاح له جبل من بعيد، كان يوسف يعلم أنه يحمل أسوأ كوابيسه..

استمع مرة أخرى إلى المرشد السياحى وهو يشير إلى المتحف ويتحدث بلغة انجليزية سليمة قائلاً:

- تلك القرية التى تحيط بالمعبد كانت معروفة قديما بـ" تنترة "، وأطلق عليها اليونانيون "تنتيرس"، وموقعها مليء بمقابر تعود إلى عصر الأسرات الأولى، حيث كانت عاصمة الإقليم السادس في مصر، وأشهر هذه المجموعة هو معبد حتحور، المُحاط بسور عظيم من الطوب اللبِن على مساحة كبيرة جداً، و تاريخ المعبد يعود للعصر البطلمي، فقد بناه بطليموس الثالث، وظلت عمليات البناء متواصلة من تجديدات وغيرها حتى عصر الإمبراطور الروماني أغسطس، واستمر العمل من عام 54 إلى 20 ق .م، وقد بُني فوق معابد سابقة عليه، بعضها يعود تاريخه إلى الدولة القديمة، وأخرى شيدها تحتمس الثالث ورمسيس الثاني والثالث، وقد عُثر على اسم

بطليموس الثاني عشر في الجزء الخلفي من المعبد، وهو جزء بُني في العصر البطلمي، وكان أكثر العمل في عهد كليوباترا السابعة، والتي حكمت مصر لمدة 21 عاما.

ويُعرف معبد دندرة لدى علماء الآثار بمعبد الآلهة "حتحور" آلهة الحب والجمال والأمومة عند قدماء المصريين، وزوجة الإله "حورس" إله معبد إدفو، حيث تم بناء المعبد لعبادتها، وقد اتخذ تمثال الآلهة حتحور شكل رأس بقرة جميلة، أو تحمل قرون بقرة على الرأس.

صمت المرشد لبرهة ثم أشار إلى الوفد الذى يرافقه قائلاً:

- تفضلو ا معى للتنزه داخل أرجاء المعبد ..

سار الجميع ومن خلفهم يوسف ومساعديه وهو يلتقط الصور، والذى لم يغب عن عينيه أبداً من يتبعه.. فقد كان يشعر أنهم فريقين، أحدهم طبعاً من الشرطة، والآخر لرينيه ورجاله.. ولذلك حاول أن يكون طبيعياً على قدر المستطاع ..

وقف الفوج السياحى عندما بدأ الدليل يتحدث مرة أخرى مُشيراً إلى باب المعبد الكبير:

- وأمامكم أيها السادة واجهة المعبد، عرضها 35 مترا، وارتفاعها 12.5م، وبها ستة أعمدة ذات رؤوس حتحورية على شكل " شخشخيات موسيقية "، وداخل المعبد سنجد دهليزاً به ثمانية عشر عاموداً على شكل شخشيخة، ويُلاحظ تلاعب الضوء والظلال على الأعمدة في الدهليز، وعلى الجانب الأيسر من الجدار الأمامي نحتاً يُظهر الإمبراطور مرتدياً تاج مصر الدنيا، وهو يغادر القصر لإتمام مراسم تتويجه بالمعبد، ويُظهر الآلهة حورس وجحوتي، ثم تقوم عدة أرباب بتتويجه، هذه المناظر تتواصل على الجدار الأيمن من الدهليز، حيث يضع الملك خطة معبد دندرة ويكرسه لحتحور، كما توجد رسوم للإمبراطور وهو يرتدي تاج مصر العليا، ويقدم الهدايا إلى حتحور.

إقترب المرشد أكثر من الباب وهو يشير إلى السقف قائلاً:

- انظروا معى إلى السقف يا سادة، سنرى أنه مزين بمناظر فلكية، تشتمل على ربة السماء نوت وعلامات للبروج، ومن وراء الدهليز قاعة عواميد صغيرة بصفين من ثلاثة أعمدة تُسمى قاعة المناظر، وقواعد العواميد مصنوعة من الجرانيت بينما أساطينها أو منتصفها وتيجانها مصنوعة من الحجر الرملي، واذا انتقلتم معى إلى اليمين، إنظروا إلى تلك المناظر على الجدران، في النصف الأيمن من القاعة تُقرأ في عكس اتجاه عقارب الساعة من المدخل إلى الباب الخلفي، ومثل تلك التي في الدهليز تحكي قصة إرساء الأسس والبناء وتكريس المعبد لحتحور، أما المناظر في النصف الأيسر من القاعة، تُقرأ في اتجاه عقارب الساعة من المدخل، وتُظهر الملك، وهو يقدم المعبد إلى حتحور وحورس....

اقترب أكرم مساعد يوسف و هو ينظر اليه فى ضجر هامسا فى أذنه:

- هل سنظل فى تلك المحاضرة إلى الأبد.. لقد تعبت وأصابنى الصداع من حديث الرجل.

هتف به يوسف فى صوت خفيض متمتماً:

- اصمت يا أكرم واستعد فقط عندما أخبرك، فقط انصت وأصمت.

استمر الرجل ذو الصوت الجهورى مخاطباً الجميع :

- حول قاعة العواميد تقع ستة غرف صغيرة، ومن ورائها حجرتين أماميتين تقف الواحدة منهما وراء الأخرى، إحداهما تسمى قاعة القرابين، وكانت تُغلق بباب هائل ذي ضلفتين من الخشب والمعدن، وعلى جانبي الغرفة الأمامية الأولى، سلالم تصعد بك إلى سقف المعبد، والغرفة الأمامية الثانية قاعة تسمي "التاسوع الإلهي"، محاطة بسلسلة من الغرف الصغيرة التي كانت بها ثياب وزينة الآلهة.

الغرفة الأولى على اليسار، تسمى غرفة "الكتان"، حيث يُحفظ فيها القماش والكتان الذي كان يأتي من الوجه البحري، أما تلك التي على اليمين فهي "الكنز"، وبالمشي إلى الكنز نتجه إلى فناء صغير في ظهره سلم يصعد إلى دار

العبادة الطاهرة المعروفة بـ "واعبت"، وكانت تُؤدى المراسم التي تضم حتحور والإله الشمسي في عيد ميلادها، وفى رأس السنة الجديدة، يقدم الكهنة القرابين في الفناء الصغير وهؤلاء يظهرون على جدرانها بتفاصيل رائعة.

السلالم على الجانب الأيسر تأخذك مباشرة إلى السقف، أما تلك التي على اليمين فتأخذك بصورة حلزونية إلى أعلى، وهى نفس السلالم التي استخدمها الكهنة القدامى في عيد السنة الجديدة، وجدران السلالم مزينة بمناظر للمواكب الكهنوتية، صاعدين على السلالم حاملين تماثيل حتحور، للإحتفالات فوق السقف، أو نازلين بعد إتمام المراسم، وسقف المعبد مبنيّ على عدة مستويات، تعتمد على ارتفاع الغرفة الواقعة أسفله.

وفي السقف، فُتحت مجموعة صُروف مُعدة لتوجيه مياه الأمطار إلى فتحات تصريف، وأسفل كل فتحة مباشرة عامود رأسي من النصوص السحرية ينساب عليه الماء، وتشكل مناظر رائعة لمجموعة دندرة.

ونستطيع أن نرى من هنا خلف المعبد حيث يوجد مبنى صغير لإيزيس، بُني من قطع أخذها الإمبراطور أغسطس من مباني سابقةً كانت في الموقع، وإلى الجوار بحيرة مقدسة بها أشجار.

وأمام معبد حتحور، يقع بيت ولادة روماني كبير يسار الباب الرئيسي في الجدار المحيط، وقد بُني في عهد أغسطس وزُيّن في عهد تراجان وهادريان، وكان مكرسا لـ "حر سوم توس"، تصور المناظرُ بالداخل ميلاد "حر سوم توس " ، وتظهر صوراً للإله "بِس" الذي له شكل قزم ورأس أسد وله علاقة بالزواج والولادة، وبجانب بيت الولادة الروماني، نجد بقايا كنيسة قبطية ترجع إلى القرن الميلادي الخامس، ويُعتقد أنه كان هناك خمسون ألف راهب يأتون سنوياً للاحتفال بعيد الفِصح هناك، وسنرى بعد خروجنا هناك المعبدين ..

انتبه يوسف عندما جاء المرشد على ذكر بيت الولادة، وهو المكان المقصود والذى سيتم البحث فيه.. بينما سار خلف الجميع للنزول الى داخل المعبد ومشاهدة اللوحة المقصودة.

وقف يوسف مذهولاً أمام تلك اللوحة المقصودة، وهو يستمع أخيراً إلى الدليل السياحى وكأنه يستمع إلى وسام .

- نحن نعرف أن الكهرباء لم تكن موجودة في العصور القديمة.. أو ربما هذا هو ما نعتقده.. وأنتم الآن تشاهدون لوحة منحوتة فى الصخر، من بين أكثر المنحوتات الغامضة والمثيرة للجدل فى العالم بأكمله، حيث تظهر هنا

بعض الرسومات الفرعونية على جدار في سرداب المعبد، إذا نظرت إليها للوهلة الأولى لظننت أنها نقش لمصباح كهربائي إعتدت على رؤيته... فأمامكم يا سادة نقش يمثل رجلاً يمسك بجسم زجاجي بيضاوي الشكل يبدو كمصباح كهربائى، وبداخله أفعى طويلة، ومتصل به قاعدة على شكل زهرة اللوتس متصلة بدورها بسلك طويل موصول بجسم مربع الشكل وكأنه بطارية، ويجلس عليه شخص يرمز لإله الهواء عند الفراعنة، وأمامها قرد بابون كبير يحمل سكينتين، يفسره البعض بأنه بمثابة تحذير من الإقتراب.

تمتم يوسف مُحدثاً نفسه:

- لقد كانت على حق.. كانت وسام فعلاً على حق بكل حرف تفوهت به، ولكن كان عليّ التأكد من أنه المعبد المقصود.

هكذا استمع يوسف لنفسه وهو يقوم بتصوير المنحوتة عدة مرات وهو فى غاية الإعجاب وكيف لا، وهو لأول مرة فى حياته الأثرية يرى تلك اللوحة وما تحويه من رموز غامضة.. واستمر يسمع الرجل الذى إستكمل:

- بالطبع بعض العلماء التقليديين لا يرجحون تلك النظرية لعدم وجود دلائل أخرى، ويعتبرون أن الرسم ما هو إلا تعبيراً عن رموز مصرية أو أساطير مشهورة في الثقافة المصرية مثل الأفعى، زهرة اللوتس، قرد البابون، وغيرها.

ولعل هذه النقطة تقودنا إلى تساؤل آخر لطالما حّير الكثيرون " كيف أضاء المصريون القدماء الغرف المظلمة بداخل الأهرامات والمعابد والقبور،كي يرسمون تلك النقوش المذهلة على الحوائط بكل دقة وفن..؟ " ، ولعل أحدكم يجيبنى ويقول أنهم إستخدموا مصابيح الزيت العادية التي إستعملها الناس في ذلك الوقت .. ولكن في الحقيقة لم يعثر العلماء على أي أثر للسخام الناتج عن إستخدام المشاعل داخل المناطق الأثرية..، فهل توصل الفراعنة إلى الكهرباء بالفعل.. ؟

سار الجميع خارجين من المتحف مذهولين من مما يسمعونه لأول مرة ، والمرشد يشير إلى معبدين بالقرب منه قائلاً:

- هنا كانت تقع بحيرة مقدسة غرب المعبد، ينمو فيها النخيل حديثاً، وتوجد آبار محفورة في الأرض ومن ضمنها مقياس للنيل..أما هناك فى تلك الناحية البعيدة فيوجد بها معبدان هامان هما معبد ايزيس وبيت ماميسي ، وقد أمر القيصر أغسطس ببناء معبد إيزيس، وهو معبد صغير، بجانب الركن الغربي للمعبد الكبير، وقام ببنائه القيصر الروماني.. ويربط بين المعبدين طريق معبد طوله نحو 130متر. كما يوجد "ماميسي" (بيت الولادة) شمال معبد إيزيس ويبعد عنه نحو 70متر، وهو موهوب إلى الآلهة حتحور ، وبيت الولادة "ماميسي" أكبر منه قليلا ويقع شمالاً من معبد هاتور الكبير، قام بإنشائه القيصر تراجان، وقد رُسمت بعض النقوشات على جدرانه في عهدي هادريان وأنطونيوس بيوس.. والآن سنتوجه إلى بيت الولادة أولاً، لنحضر غروب الشمس واختفائها بنورها الذهبي داخل صالته وإنعكاسها على الحوائط لتثير بهجة لا يمكن وصفها إلا لمن يراها فقط.

وبعد عشرة دقائق كان الجميع يقف فى المدخل الخلفى لبيت الولادة وقد بدأت الشمس ترسل أشعتها الذهبية فى طريقها إلى العالم الآخر لتثير جواً من الرهبة والغموض والشجن بداخل معبد "ماميسي"، هنا فقط تأكد يوسف وقتها أنه على بُعد مئات الأمتار فقط من كشف مقبرة المبعوثين..

أسند يوسف ظهره على باب الخروج حيث غروب الشمس وتنهد أخيراً .. تماماً كما صدق جت.. النخيل المقدس ومنحوتة الأفعى والبابون وبيت الولادة.. ومن هنا وعلى بُعد 5000 ذراع و داخل هذا الجبل الرابض أمامه من بعيد، والذى يخفي بداخله مقبرة المبعوثين وغيرها من المقابر الأخرى التى لم تُكتشف بعد... وهنا أيضاً كان المكان الأكثر رعباً بالنسبة له، لما يحمله من ذكريات مرعبة قديمة.. نظر إلى ساعته والتى أشارت إلى الخامسة والربع مساءاً، وقد بدأت الشمس فى المغيب.. ولم يغب عن ناظريه هؤلاء الأشخاص الذين تولوا مراقبته بكل همة ونشاط.. بينما اقترب من أكرم قائلاً وهو يشير إلى السقف وكأنه سيحدثه عن شئ مهم ليشتت إنتباههم:

- أكرم.. عليك بتجهيز الرجال غداً فى تمام التاسعة .. ستقلهم وستتحرك إلى البطحة .. أفهمت يا أكرم..؟

إنعقد حاجبا أكرم فى دهشة وهو يهتف بصوت منخفض:

- قرية البطحة..؟ ، إنها في جانب الجبل الغربي بمركز نجع حمادي.

- هو يريد مقبرة فرعونية .. حسناً، سأعطيه مقبرة فرعونية، وسأحرص على أن يكون معى خطوة بخطوة حتى ألقنه درساً لن ينساه للأبد.

أومأ أكرم برأسه علامة على الفهم قائلاً :

- حسناً لا تقلق..
- والآن هيا بنا فلدينا ضيوف غداً ، ادعو الله أن يمر هذا الأسبوع على خير.

وبعد انتهاء الرحلة السياحية استقل يوسف سيارته بقيادة فاروق ومعه أكرم بينما تبعه سيارة أخرى تابعة له، وعلي مسافة ليست قريبة لاحت سيارتان مراقبة من بعيد.. كان عقله يحاول أن يرتب وينظم الطريق إلى الجبل، وكيف يحصل على ما يريده ..؟، وكيف يعطى رينيه كل ما يريده هو الآخر..؟

أفاق من شروده على صوت أكرم و هو يحدثه:

- بخصوص التعديلات التى أخبرتنى عنها بالأمس، لقد قمنا بعمل اللازم، وسيستقبلهم مدير أحد شركات السياحية غداً فى المطار وكأنهم فى زيارة للأقصر، ولن يمكثوا بأسوان إلا ساعة فقط، ثم يرحل الجميع إلى فندق شيراتون، حيث قمنا بالحجز لهم، ولكن ..ألن تثير تلك التغييرات حفيظتهم..؟
- بالطبع ذلك سيثير شك رينيه.. وخصوصاً أنه لم يكن فى حسبانه المكوث بالأقصر، بل كان يظن أنى سأحضر لآخذه من المطار، ثم إلى بيتى، ثم التحرك سوياً إلى المقبرة.
- لكن من بيتك للمعبد ما يقارب المائتان وخمسين كيلو متر تقريباً، وهى مسافة ليست قليلة، بينما من الأقصر حوالى أربعون كيلو متراً فقط.
- هو لا يعلم ذلك، هو لا يريدنى أن أغيب عن عينيه لحظة واحدة.. لذلك سأضطر للحديث معه هاتفياً بمجرد وصوله، ثم مقابلته فى المساء دون أن يلاحظ إختفائنا أحد..
- وكيف ذلك وأنت مُراقب من الشرطة أيضاً..؟

- لاتقلق، سأتصرف وحدى.. أما أنت ستمر عليهم وستذهب بهم مباشرة إلى قرية البطحة، وانتظرنى هناك بالقرب من المقابر المهجورة فى الموعد المحدد، وسأحضر بالسيارة الخاصة بالنقل.. فلتحرص على تنفيذ الأوامر بدقة يا صديقي ..
- حسناً ارتاح أنت الآن، فما زال لدينا ساعتين على الأقل للوصول إلى غرب سهيل ..

تراجع يوسف فى مقعده ، وهو يتنهد فى عمق قائلاً:

- لقد إفتقدت تلك القرية جداً ..
- إن آخر مرة كنت في قصرك منذ ما يقارب العام يا يوسف.. لا تقلق فكل شئ بخير، حتى حيواناتك الأليفة..

قهقه يوسف جذلاً وهو يتمتم:

- الأليفه ...؟!!، تلك الحيوانات الأليفة كم أود أن أطعمها بيدى لحم الكثيرين يا أكرم.

****

فى عصر اليوم التالى كان رينيه يحاول أن يكتم غيظه وهو يتحدث على الهاتف الذى أعطاه له مدير شركة السياحة ليُحدث يوسف، الذى حاول إفهامه للمرة الثانية فى الهاتف، بينما كانت السيارة السياحية التابعة للشركة تنهب الطريق إلى الفندق الذى سيقيم به رينيه وجماعته بعد أن هبط رينيه فى مطار أسوان الدولى..:

- لماذ غيرت الخطة يا يوسف..؟
- أبعد كل ما أخبرتك به تسأل لماذا أفعل بك ذلك..؟، أخبرتك يا رينيه أننى مُراقَب بسببك .. لقد أخبرتك أن الأنتربول أرسل للشرطة المصرية للتحرى عنى بسببك.. وقد تم احتجازى بالمطار بسببك، ولولا أنهم لم يتوصلوا إلى أى شئ، لبقيت محتجزاً حتى الآن.
- ولماذا بسببي..؟، لما لا تقول أنهم يشكون بك وبتجارتك للآثار..

- كل ذلك بسبب تلك المقابلة اللعينة مع صديقك الفرنسي تاجر الأسلحة فى باريس ..فمنذ أن خرجنا من هناك وهم يحصون عليّ أنفاسي.. فكيف بعدما كنت فى مكتب الأمن الوطنى بالمطار، وبعد أن سألونى عليكم يفاجأون بإستقبالى لك فى المطار، ثم أصطحبك إلى بيتى..؟، لذلك كان علىّ أن أقوم بتغيير الخطة، وكأنكم فى فوج سياحى قادم على الأقصر، وسأقابلك فى المكان المحدد غداً فلما كل هذا الغضب..؟، كما أن السيد إسلام مدير الشركة قد أخبرنى أنك أتيت وبرفقتك إحدى عشر رجلاً.. إحدى عشر رجلاً يا رينيه..؟!!، لماذا..؟، هل أتيت لتدخل حرباً..؟، لما كل هذا العدد والمثير للشبهات ..؟، هذا بالإضافة إلى أن معظمهم يبدو من هيئته أنه من رجال العصابات ..؟

- وكيف عرفت ...؟

- من إسلام بالطبع ...لما هذا العدد يا رينيه..؟

- وهل تظن أنى سآتى إلى بيتك دون أن أكفل لنفسي الرجوع آمناً ..؟، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فسيكونوا معك فى كل خطوة، ولو شعرت بمجرد القلق فسوف.....

قاطعه يوسف صارخاً بحدة مفاجئة لم يعهدها منه رينيه من قبل:

- أقسم لك يا رينيه إن سمعت نغمة تهديدك تلك فلن ترى ضوء الشمس مرة أخرى، لا أنت ولا من أتوا معك، ولو كنت على رأس ألف رجل، فلو أردت أن أُرديك قتيلاً فى الحال لقتلتك، فاصمت ولا تتحدث معى بتلك اللهجة مرة أخرى.. أخبرتك أن الأمر يخص مقبرة من نوع خاص، أنت تريدها وسألقيها فى وجهك لتتصرف أنت بها.. فالزم غرفتك حتى مساء الغد، وستمر عليك سيارة بها أحد مساعدينى، والذى سيحرص على التأكد من أنك لست مراقب.. لتأتى أنت وأربعة رجال فقط، فلا نريد لفت النظر لجيشك القادم معك هذا.. هذا إتفاقنا، ولا تحاول مرة أخرى أن تُلقي بتهديدك الأجوف وضع لسانك داخل فمك الكريه وإخرس تماماً وإلا أخرستك إلى الأبد.. تريد الحضور معى..؟، حسناً.. فليكن، وسترى بنفسك ما لم تراه أبداً حتى فى أسوأ كوابيسك...

قالها وأغلق الهاتف فى وجهه الذى علته الصفرة من طريقة يوسف فى الحديث، وهو ينظر إلى إسلام رئيس شركة السياحة الذى بادره مبتسماً:

- إنه العمل يا صديقي، فلا ضغائن بيننا، وأنت بالفعل لا تحسن إختيار وجوه مساعديك..

إلتفت رينيه إلى ألبير وإلى رجاله من خلفه، ولوهلة شعر أنه بداخل سجن مكسيكى بالفعل، فمال على أذن ألبير وهو يقول هامساً:

- ألبير يا صديقي .. اصدقنى القول، من أين أتيت بتلك الوجوه البريئة...؟
- إنهم مختصيين بالقتل يا سيدى، فأنت قد أخبرتنى أن أقوم بإختيار عدة رجال لمهمة شاقة بالقاهرة..

نظر إليه رينيه فى ذهول، ثم إلتفت برأسه دون أن يُعقب عليه، ولكنه تمتم بغضب وهو يتطلع من النافذة إلى الصحراء الممتدة أمامه إلى مالا نهاية.

****

وفى تمام الساعة التاسعة مساءا تماماً كان رينيه وألبير ومعهم ثلاثة رجال يجلسون مع أكرم فى سيارة تقف بجوار مقابر قديمة تبعد عن القرية قرابة الأربعة كيلو مترات، بينما السيارة الأخرى كانت نصف نقل، وتحمل معدات خاصة وبداخلها الرجال المساعدين ليوسف.. الذين ظلوا فى انتظاره حتى وصل أخيراً فى سيارة فان كبيرة سوداء تحمل لوحات دبلوماسيه.. هبط منها سريعاً مُحيياً أكرم الذى هبط سريعاً من السيارة ومن خلفه سبعة رجال من السيارة الأخرى، بينما أشار رينيه لألبير بالإنتظار بجانبه فى السيارة.. واقترب أكرم منه وهو ينظر من خلفه إلى بعيد.

- حمداً لله أنك إستطعت الهروب من المراقبة ..
- لا تنس تلك السيارة يا صديقي، وأنت ماذا فعلت ..؟

- لم يكن رينيه مُراقباً بشكل ما، وهذا ما تأكدنا منه، وما حدث أننا تقريباً قمنا بخطفه أثناء وجوده فى عرض مسرحي فى الأقصر، ولذلك لم يشعر بغيابه أحد حتى رجاله، وهو كان على علم بكل ذلك، ولذلك أحضر أربعة رجال فقط كما طلبت..

بدأ يوسف يهمس للعاملين معه وهو يشير إلى أحد المعابد البعيدة التى لم يبق منها إلا مجرد أطلال، ويشدد على تأمين المحيط حول أطلال المعبد، اقترب يوسف مصطحباً أكرم وأحد رجاله إلى رينيه وهو فى السياره قائلاً:

- مرحباً بك يا رينيه.. والآن هيا سوف نترك السيارتين مع اكرم والرجال ونتحرك سوياً أنا وأنت فقط حتى أطلال ذلك المعبد القديم، هناك سنعلم سوياً مكان المقبرة المقصودة، ولن يتحرك الرجال إلا بعد أن نبدأ فى معرفة مكانها .. سأهبط أولاً لأقوم بتأمينها لكم وبعد ذلك ننصرف قبل سطوع الشمس.. وسنكون سوياً فى كل خطوة كما أردت..
- ماذا..؟!!، كنت أظن أن مهمتى تنتهى هنا يا يوسف، فأنا ليس لدىّ أى شأن بالتنقيب، أنا مجرد.....

زفر يوسف بضيق مقاطعاً..:

- رينيه، ليس هذا أبداً وقت للمجادلة، فلدينا عدة ساعات فقط حتى ننتهى من نقل محتويات المقبرة، وهذا ما كنت تريده منذ البداية.. ولا تنس أنك ظللت تُلح عليّ حتى آخر لحظة..
- لكن.....
- لا يوجد لكن..، هل تريد المقبرة أم ننصرف الآن..؟

تردد رينيه وهو يتمتم فى قلق :

- هل هناك أى خطر من تلك العملية..؟

تطلع إليه يوسف بنظرة غامضة وهو يجيبه فى هدوء:

- سترى بنفسك يا رينيه....

ثم أخرج من بين طيات ثيابه هاتف يعمل بالقمر الصناعى وأعطاه إلى أكرم قائلاً:

- وأنت يا أكرم لا تتحرك إلا مع إتصالى وتحديد موقعى تماماً، وفى سيارة النقل تلك، ولا تتصل بي حتى السادسة صباحاً، فإن لم تحصل على أى إشارة فأنت تعلم جيداً ما عليك فعله..

نظر رينيه متوتراً إلى أكرم ويوسف وهو يهتف:

- وهل هناك شك فى عدم خروجنا..؟، يوسف.. أظن أنك.....

قاطعه يوسف فى عصبية قائلاً:

- صه بالله عليك يا رينيه، أنت لا تعلم أى شئ، فاصبر من فضلك.. لقد أردت الحضور والحصول على المقبرة بنفسك، وسيكون لك ذلك ..

والتفت ناحية أكرم قائلاً:

- ستقوم بتوصيلنا يا أكرم، ثم لتعد إلى هنا مرة أخرى، وأمّن كل المنطقة فى كافة مخارجها، و اعرف لى أماكن وجود كمائن الشرطة فجراً..

تدخل رينيه مرة أخرى فى الحديث الدائر بالإنجليزية كما طلب رينيه:

- وهل هناك خطر أيضاً من وجود الشرطة..؟

نظر إليه يوسف وأكرم دون أن يُعقب أحدهما، وتركه يوسف ليذهب إلى السيارة ليُخرج منها حقيبة هاندباج ليضعها خلف ظهره، ثم اقترب من السيارة ليقفز إليها مشيراً إلى رينيه الذى كان يهمس لألبير قائلاً:

- ألبير.. سأكون على إتصال بك، ولو شعرت بأى خطر أقتل أكرم ومن معه واحضر إلىّ فوراً.. هل لديك أية أسلحة..
- مع رجالى يا سيدى..
- حسناً.. كونوا على استعداد دائماً، فلا أعلم ما يخبئه لى ذلك الوغد.. وارسل الموقع للرجال وكن على إتصال معهم حتى ننتهى من تلك المهمة.

وما هى إلا لحظات حتى كان أكرم ورينيه ويوسف يقطعان الطريق القصير إلى أطلال المعابد القديمة والتى تختفي بداخل وادى نخيل .

كان يوسف يعلم أن تلك هى فرصته الأخيرة للتخلص من رينيه، لأنه يعلم من والده وأجداده أن قرية البطحة بُنيت فوق مقابر فرعونية كاملة، وهناك فى وادى النخيل قبل مدخل القرية يقع على منطقة جبانات قديمة منذ العصر الحجري والعصور الفرعونية، وعليه أن يقوم بالعهد الدموى من أجل حضور ادوميت لإرشاده على مقبرة لأحد الكهنة حتى يتخلص من ذلك المعتوه الموجود بجواره..

توقفت السيارة بالقرب من أطلال المعبد المهجور، والذى خلت المنطقة بالكامل من أى مار حيث بدأت الأمطار فى هذه الليلة من شتاء نوفمبر.. ترجل يوسف وهو يشير إلى رينيه أن يتبعه إلى الداخل، وأخبر أكرم بالرجوع فوراً..

كان المشهد بأكمله يبعث على الكآبة .. فقد بدأت السماء ترسل رذاذ خفيف مع بعض الرعد، مما جعل يوسف يُسرع مع رينيه إلى الداخل..

كان المعبد المهجور يقع على مساحة كبيرة، وفيه العديد من الغرف الخاوية، ولكن تم غلق المكان منذ فترة كبيرة لوجود خطر من إنهيار بقية الأعمدة .. لذلك تم غلقه منذ عشر سنوات ..

كان يوسف يخطو وكأنه يعرف خطواته جيداً، فنظر إلى جواره حتى وجد غرفة مغلقة يستطيع عمل الطقوس المعتادة بداخلها .. لم يضع أى إهتمام لرينيه، أخبره فقط أن يتبعه أينما ذهب، ولا يفتح فمه أبداً مهما رأى..

كسر يوسف باب الغرفة بحذر ثم دلف إلى الداخل.. كانت غرفة بسيطة بها مكتب خشبي متهالك، وكذلك سرير معدنى قديم و دولاب مما يبدو معه أنها كانت غرفة لخفير حراسة للمعبد قبل أن تقوم الحكومة بغلقه للأبد..

أشار إلى رينيه أن يجلس قائلاً بحذر:

- لم يصل أحد إلى هذه الدرجة يا رينيه، أنت تظن أنى سعيد بما أنا فيه.. سترى بعينيك.. سترى كيف سأدلك على المقبرة المقصودة.. لكن مهما رأيت أو سمعت فلتلزم الصمت ولا تتحدث أبداً أو تُصدر صوتاً، وإلا أصابتك لعنة لن تستطيع أبداً الفكاك منها..

حاول رينيه أن يتحدث، لكن صوته لم يخرج منه ليوسف الذى كان منهمكاً فى تثبيت الشموع الحمراء على جانبي الغرفة واشعالها وتنظيف ارضيتها، وبدأ يُخرج قلم ذو مداد أحمر ويقوم بكتابة كلمات على الأرض، لم يفهم منها رينيه أى حرف، لكنه كان ينظر برعب إلى يوسف الذى كان خياله يتراقص على الحائط بينما يوسف كان لا يزال جالساً على أرضية الغرفة ليُنهى ما بدأه من كتابة تلك التعاويذ الحامية ..

تحسس رينيه مسدسه والذى ظلت يده تمسكه تحسباً لحدوث أى أمر خطير، ومن الناحية الأخرى أمسك بهاتفه ووضعه إلى جواره على اسم ألبير لنجدته.. لكن كل ما كان يقوم به يوسف كان يثير رعب رينيه أكثر فأكثر، وخاصة عندما وضع يوسف الكأس الذهبية على الأرض وجلس إلى جوارها، ثم خلع قفازيه ليُخرج سكينه الحاد ويبدأ فى تقطيع يديه.. حاول رينيه أن يقف لكنه شعر وكأن قدماه قد تحولت إلى وتدين ملتصقين بالأرض، فلم يشعر بهما أبداً.. حاول أن يتحرك لكنه لم يستطع، كل ما كان يستطيع فعله هو النظر إلى يوسف الذى بدأت دمائه تسيل بداخل الكأس الذهبية، بينما ارتسمت ملامح الألم الشديد على وجهه، وهو لا يزال يقطع فى راحتيه وساعديه لتنزل تلك القطرات..

إتسعت عينى رينيه فزعاً عندما رأي عشرات من الأطياف السوداء تخرج من الحوائط ومن تحت الأرض ساعية إلى تلك الدائرة، وهم يلتفون حول يوسف وكأسه الذهبية..

عشرات وعشرات.. حتى شعر أن الغرفة قد امتلأت بهم، حاول الصراخ أو حتى مد يده للهاتف للإتصال بألبير ولكنه لم يستطع.. فقد أصبح مشلولاً تماماً..

فنظر إلى يوسف ليستنجد به، لكنه إزداد فزعاً عندما رأى ملامح يوسف نفسه، وكأنه تحول إلى شخص آخر، فقد تحولت عيناه إلى اللون الأبيض، وبدت كل خيالاته على الحوائط بالقيام بحركات غير مشابهة لما يقوم به يوسف، والذى كانت عيونه البيضاء فقط هى التى تنظر إلى رينيه .. لكن الصدمة الكبرى له عندما وجد أن هناك ظلاً أسود اللون طويل تصل أكتافه إلى السقف يقترب منه ويمد شيئاً وكأنه يده ليتحسس وجه رينيه .

وقتها لم يحتمل رينيه الصدمة فسقط مغشياً عليه ..

وبدأت الطقوس.....

****

الفصل التاسع

****

السر

******

إنها تلك الحكمة التى إمتلكها الأقدمون ، والتى جعلت حضاراتهم تُخلد أبد الدهر ، فى الوقت الذى ينسى الناس فى عصرنا هذا أمسهم ، ربما لأننا أصبحنا نفتقد تلك الحكمة التى بُنيت عليها تلك الحضارات كأرقى أنواع المعرفة الإنسانية ، فبالحكمة تُبنى الأمم وتُشيد الحضارات ، وبالحكمة يُصنع الإنسان ليقوم بتلك المهمة التى أوكله الله بها ، فيُعمر فى الأرض ويرتقى بنفسه وبغيره من مخلوقات الله، إنها الحكمة.. مغامرة العقل البشرى الأولى فى فك طلاسم هذا الوجود وكشف النقاب عن أسراره وخفاياه..

****

كانت الساعة تشير إلى منتصف الليل تماماً عندما بدأ رينيه فى فتح عينيه وهو غير مدرك لتلك الأحداث التى تدور من حوله، لكنه وجد وجه ألبير أمامه، فقفز من مكانه واقفاً وهو يصرخ ويزيح ألبير ورجاله القريبين منه، وهو فى حالة هيسترية لما أصابه حتى نجحوا فى تهدئته...

جال ببصره فى أنحاء الغرفة مرة أخرى ليجدها مكتظة برجال يوسف ورجاله، الذين تجمعوا فى هذه الغرفة الضيقة، حيث كان بعضهم يحاول إفاقته، والآخرون بجوار يوسف الذى بدا عليه الإجهاد الشديد جداً، وقد أصبح بالفعل غير قادر على الحديث، حيث كان يهمس إلى أكرم الذى وقف بجواره.. حاول ألبير الإطمئنان على رينيه فهتف وهو يهزه فى هدوء قائلاً برعب:

- مسيو رينيه .. هل هناك ما يسوء.. ماذا حدث..؟، لقد استدعانا أكرم ووصلنا منذ عشر دقائق، ورأيناك غائباً عن الوعي لمدة تزيد عن ساعة كاملة كما أخبرنا مسيو يوسف.. ما الذى حدث..؟

لكن رينيه لم يرد عليه وهو يزيحه من جانبه مقترباً من يوسف الذى كان يعطى أوامر لرجاله ليخرجوا جميعاً لينفذوا ما أمرهم به ، بينما اقترب منه هامساً فى توتر و جسده ينتفض بشدة:

- هل كان للأمر فائدة..؟، هل نجحت..؟، هل علمت مكان المقبرة ..؟

لم ينطق يوسف، ولكنه أشار إليه قائلاً بهدوء :

- اتبعنى.

خرج يوسف ليجد أكرم ورجاله فى خارج الغرفة، بينما سار رينيه ورجاله من خلف يوسف حتى وصل إلى نهاية المعبد، ثم إتجه شرقاً وهو ينظر إلى السماء ويجلس على الأرض ويتحسس بيده التربة المبتلة بآثار مياه الأمطار التى توقفت.. وسار عدة خطوات أخرى حتى وصل إلى نهاية السور والمُلتقي بالحافة الأخرى مُشيراً إلى أكرم هاتفاً:

- هنا يا أكرم..

إقترب رينيه من المكان المنشود، لكن أحد رجال يوسف لم يسمح له ولا لرجاله بالمرور، وبينما كان يحاول أن يعترض أخرسه أكرم قائلاً:

- مسيو رينيه.. إن هذا الأمر ما زال خطير جداً حتى الآن، نحن عند باب المقبرة، وليس لك أن تتدخل الآن، إلا بعد أن يدخل يوسف للداخل ويؤمنها لنا، حتى تستطيع أن تدخل أنت ورجالك، وسيتم نقلها قبل سطوع الشمس أفهمت..؟، إن كل ذلك من أجل سلامتكم جميعا.

أومأ رينيه بالإيجاب بينما بدأ رجال يوسف بالحفر بمنتهى الدقة والحِرَفية، ويوسف يقف وحيداً على بُعد وكأنه يُحدث نفسه دون أن ينظر إلى أحد منهم.. بينما بدا علي وجهه الإعياء والإجهاد الشديد، إستمر الحفر لمدة نصف ساعة حتى لاح أخيراً حجر على مساحة متر فى متر، فأشار أكرم إلى رجل رينيه بالتقدم لمساعدته فى محاولة إزاحة الحجر الذى إستطاع رجال يوسف لف الحبل جيدا عليه.. وقد بدأ الرجال جميعاً فى محاولة إزاحة الحجر ولكن دون جدوى.. فقفز أكرم لمساعدتهم وهو ينظر إلى رينيه الذى هب واقفاً هو الآخر جاذباً ألبير لمساعدتهم فى الإمساك بطرف الحبل، وظل الجميع يجذبون الحبل.. ولكنهم لم يفلحوا فى إزاحة الحجر حتى إقترب يوسف منه مرة أخرى، وبدأ فى الحديث السري والهمس وهو يلمس الحجر والتربة كما هى عادته ، ثم أشار إلى أكرم بالجذب، وما إن فعلوا حتى تم إزاحة الحجر بالكامل ليكشف من أسفله عن دَرَج حجرى يمتد إلى أسفل بعدة درجات حجرية.. كاد رينيه أن يطلق صرخة فرح لكن أكرم أشار له بالصمت مرة أخرى هاتفاً:

- إننا فى منتصف الليل الآن، ولا نريد أن نجذب إنتباه أحد، حتى الذئاب يا مسيو رينيه والتى تمتلئ بهم الصحراء، انتظر لنهاية الأمر واعط الأمر لرجالك بالإستعداد..

أعطى أكرم ليوسف حقيبته الخاصة وقام بإرتداء المصباح الكهربائي على رأسه وميكروفون مخصوص فى أذنه ليسمع همسه أكرم ورجاله بالخارج ، وقد أمسك فى يديه بعتلة حديدية، وهو يهبط فى بطء، درجة درجة وهو يهمس إلى أكرم ..

كان الظلام شديداً بالداخل، وهو ينزل درجة بعد درجة، بينما كان يشعر بتلك الخيالات تتراقص من حوله لتغوص فى الأرض مرة أخرى، التى وصل إليها بعد ثمانى عشر درجة إلى الأسفل.. فأدار المصباح فى أرجاء المكان ..كانت مجرد غرفة

واسعة عادية حجريه.. كان يعلم أن المقبرة خلف أحد الجدران كما أخبره ادوميت منذ ساعة.. نعم، فلقد كانت هناك مقبرة لأحد الكهنة الكبار فى العاصمة القديمة، وتم دفنه فى المعبد القديم، وكان من أهم الكهنة فى تلك المنطقة، لذلك عندما طلب منه يوسف أن يدله على أحد المقابر المهمة أخبره بهذا المكان.. كان عليه دفع الثمن باهظاً هذه المرة، والمرعب أن الثمن فى المرة القادمة قد يكلفه أكثر وأكثر، لكنها لعنة لن يستطيع الفكاك منها إلا بالقضاء عليه.. لذلك فقد إتخذ القرار أخيراً أن تكون هذه الليلة هى آخر عهده بالكشف عن المقابر بواسطتهم .. بعدما رفض ادوميت الدماء المعتادة وأصر على الضِعف مُخبراً يوسف أنه فى كل مرة ستزيد الضعف، حتى يرتوى هو ومن معه.. مُعطياً إياه ميعاد قبل الفجر تماماً..

- إنها آخر ليلة أقسم، لكم لن تنالوا دماءاً منى مرة أخرى.

هذا ما همس به يوسف لنفسه وهو يتحرك واضعاً أذنه على حوائط الغرفة الداخلية محاولاً سماع أى همس بالداخل.. لم يسمع شئ فى أول حائطين، لكنه ابتسم عندما سمع ما كان ينتظره من خلف الجدار الثالث.. كان يُحدث أكرم بذلك وخَبّره بالتريث، وألا يهبط أحداً لأنه فقط الذى يستطيع الوصول إلى غرفة الدفن..

لمح باب صغير مخفي فى الحائط الأخير، فوضع العتلة الحديدية بينه وبين الجدار، وبدأ يحاول زحزحة الباب حتى نجح بعد جهد شاق جداً لإزاحته بما يكفي بالزحف إلى داخل المقبرة.

وبدأ بالفعل بالزحف إلى الداخل، وبمجرد وقوع ضوء المصباح داخل المقبرة حتى إلتمعت العديد من التماثيل الذهبية الخالصة وعدة تماثيل أخرى وأداوت فخارية وأدوات حربية.. بينما كان التابوت فى المنتصف، حاول يوسف قراءة الكلمات الموجودة على جدران المقبرة، فكانت مجرد سيرة ذاتية للكاهن، وكذلك عدة نصوص لطمأنته فى رحلته إلى العالم الآخر، وشاهدة على ما قام بعمله على مدار تاريخه الحافل من إنجازات فى خدمة آمون.

كانت بالفعل المقبرة تساوى ثروة لا تقدر بثمن مع وجود تلك الصناديق الخشبية المغلقة، وكذلك التماثيل الذهبية الصغيرة .. بدأ فى تلاوة بعض الآيات القرآنية، وما إن انتهى منها حتى بدأ فى قراءة بعض الطلاسم.. نظر إلى ساعته التى

كانت تشير إلى الواحدة والنصف ، لذلك كان عليه أن يتحرك فوراً إلى المكان الآخر.. حيث سيرشده إلى المقبرة الأخيرة كما هو متفق بينهما..

أشار لأكرم بالنزول هو ورينيه وبعض المساعدين و الذين هبطوا بالفعل على حذر.. كان رينيه فى منتهى الرعب، ولكن بمجرد رؤيته للمقبرة كاد قلبه أن يقفز خارج ضلوعه بعد ما صدق يوسف فى كل ما قاله، فها هو الآن أمامه كنز لا يقدر بثمن..

كان الجميع يتلاشى النظر إلى رينيه ربما رعباً.. فقد تحول شعر رأسه إلى اللون الرمادى وكأنه عائد من الموت ولكن أحداً لم يجرؤ أن يخبره بذلك.. وبينما كان رينيه يتفقد محتويات المقبرة بإنبهار، كان يوسف يعطى أوامره إلى فاروق المساعد الآخر له بكيفية نقل المقبرة إلى الخارج فى السيارة الخاصة بالهيئة الدبلوماسية، وينبه عليه أنه بمجرد الإنتهاء من مهمته تلك فعليه صرف الرجال والذهاب إلى النوبة حيث قرية غرب سهيل والمكوث فيها حتى يصل إليهم فى الغد مع أكرم، مع المحافظة على كل شئ، كما اقترب من رينيه الذى كان لا يزال فى نشوة الفرح قائلاً:

- رينيه.. أعتقد أنى كنت صادق معك فى كل خطوة، والآن أنصت إلىّ جيداً، لن أستطيع المكوث معكم حتى إستخراج المقبرة ونقلها.. سيقوم الرجال بإخراج كل ما تراه إلى السيارة الدبلوماسية، وعليك التحرك بعدها فوراً، إما إلى فندقك ومقابلتى فى الغد، أو بالتحرك مع المقبرة حتى بيتى فى النوبة، أيهما تُفضل.؟

هتف رينيه فى لهفة وعينيه تلمع فى جزل:

- بالطبع لن أتركها، ليس لعدم أمانة منك لا سمح الله، ولكن أحب أن أسهر على كنزى الليلة، أقصد كنزنا يا صديقي.. لكن..؟؟
- لكن ماذا..؟
- كيف سنمر حال وجود أى كمائن بالطريق من هنا إلى النوبة..؟
- تلك فائدة السيارة الدبلوماسية يا صديقي، فهى من تسهل علىّ الحركة فى مصر..؟
- وكيف ذلك..؟، وكيف حصلت عليها من الأساس..؟

- إن التحرك بسيارة دبلوماسية مستحيل أن يتم تفتيشها أو الإقتراب منها، وإلا وقعت فى أزمة دبلوماسية بين البلدين.. وقد حصلت عليها من دولة إفريقية، فكل دولة لها عدة سيارات تستخدمها فى التنقل لدبلوماسيها، وكل ما فعلته هو شيك بعدة ملايين ليستغنوا عن تلك السيارة، والتى لا تزال تتبع سفارتهم.. فلا تخف، فلن يجرؤ كائناً من كان على إيقافك..؟
- رائع يا يوسف، فى منتهى الروعة.. ولكن أخبرنى إلى أين ستذهب..؟
- إلى المشفى يا صديقى.. فلابد من نقل دماء لى فى القريب وإلا ..
- دماء..؟!!
- هل نسيت يا رينيه ما حدث..

إقشعر جسد رينيه مُخبراً يوسف بألا يذكر هذا الأمر مرة أخرى.. والذى بادر بدوره قائلاً:

- سنجلس سوياً غداً يا رينيه، فبمجرد دخولك هذا العالم لن تستطيع الفكاك منه.
- لا أفهم ..؟
- ستفهم كل شئ فى الغد...إحرص على حياتك أنت ومن معك وانسي تماماً ما حدث الليلة، ولا تخبر به أى أحد حتى ألبير.. إن للجن آذان يا صديقي، ولا نريد إغضابهم .. أفهمت ..؟
- إلى حد ما، ولكنى سأنفذ كل ما تقوله.. متى سألقاك..؟
- بإذن الله سنجتمع سوياً فى الصباح.. والآن هيا اعملوا، فعليكم الإنتهاء من نقلها إلى الخارج قبل سطوع الشمس..
- والتابوت...؟
- ليس مهماً يا رينيه، فهو لأحد الكهنة، ولا نريد أن نحمل معنا مومياء قد تصيبنا باللعنة، ولكن احرص على غلق المقبرة جيداً..

وإلتفت إلى فاروق قائلاً:

- فاروق.. لا تترك أى أثر لنا أو أى أثر يدل على وجود تلك المقبرة، وإنهى عملك قبل سطوع الشمس، أفهمت يا فاروق..؟، لا أريد أى خطأ.
- حسناً يا سيد يوسف، لا تقلق.

بدأ الجميع فى إزاحة الباب المؤدى إلى المقبرة، فى حين كان فاروق ينظم عملهم فى الداخل،أما يوسف فقد خرج مع أكرم حتى وصلوا إلى السيارة الصغرى التى إستقلها فى طريقه إلى معبد ماميسي حيث الجبل الذى يحمل ذلك السر.

****

كانت الساعة تقارب الثانية وخمس وعشرون دقيقة حتى كان أكرم يقف أمام باب الخروج فى معبد ماميسي، وبجواره يوسف الذى كان غير قادر على السير بعد مقابلته الأخيرة مع ادوميت، وقد أخرج أكرم عداد لقياس معدل سيره حتى المسافة المذكورة.. اسند ظهره إلى السور ليبدأ فى التحرك، وما هى إلا ثوانٍ حتى انطلق عدواً فى اتجاه الجبل الرابض إلى الأبد.

وبعد عدة دقائق كان أكرم يقف أمام الجبل تماماً بعد أن تجاوز مسافة 2551 متراً فقط ، مما يعنى أن المقبرة لازالت تبعد فى الداخل بمقدار خمسون متراً أخرى.. هبط يوسف من السيارة التى كان يجلس بداخلها مُراقباً الأمر حتى يصل أكرم للمكان المذكور.

- هنا يا يوسف، فقط 2551 متر بمعنى أن لدينا .....
- نعم.. نعم، لكننا الآن أمام حجر أصم، ولا يوجد مدخل..

لم يكن هناك أى أثر لفتحة الدخول.. فرفع الإثنان مصابيحهم الضوئية للبحث عن المدخل دون أى جدوى، تركه أكرم بالقرب من السيارة ودار حول الجبل للبحث عن أثر للدخول.. بينما وقف يوسف مُتحيراً وهو ينظر من بعيد إلى معبد ماميسي أو بيت الولادة، فلابد أن تكون فتحة الجبل هنا فى هذا المكان.. فلا يزال خمسون متراً بداخل الجبل.. اقشعر جسد يوسف وهو يبحث من الناحية الأخرى عن الفتحة.. كان يشعر أن هذا الجبل الممتد إلى مساحات هائلة يحوى

بداخله الكثير من المقابر، والتى كان من المستحيل الكشف عنها داخل الممرات الصخرية.. دون دليل أو مرشد.. أما هو فلديه الدليل والمرشد لكن بالطبع سيكون المقابل أكثر، والذى سيزيد فى كل مرة يطلب يوسف فيها مساعدة ادوميت .. لذا كان قراره الأخير اليوم ..كان بالفعل هو من يعتمد عليه الآن لإخراجه من هذا المأزق، فهو يريد الكشف عن المقبرة التى أشار إليها جت، كل أمله فقط أن يشعر بالمكان وأن يدله ادوميت على المقبرة الأخيرة، وهذا ما اشترطه عليه خلال الساعات الماضية.. لكنه لم يخبره أبداً بنيته على عدم العودة إلى العهد الدموى مرة أخرى..

كان يوسف فى هذه الأثناء يدور بمصباحه الكهربائي فى الجوار باحثاً عن المدخل، ولكنه لم يجد إلا الحجر الأصم أمامه..، مما جعله يتمتم قائلاً:

- أين تقع فتحة الدخول يا جت..؟، أرشدنى بالله عليك..

أفاق من شروده على صوت صفير أكرم، فرجع سريعاً إلى مكان السيارة فوجده يهتف متوتراً :

- تعالى معى، لقد وجدت المدخل.. ولكن....

قاطعه يوسف فى لهفة قائلاً:

- ولكن ماذا ..؟، وأين وجدته ..؟
- فى القرب من هنا ، إتبعنى .

سار أكرم ومن خلفه يوسف بمحاذاة الجبل، دون أن ينبسا ببنت شفة، حتى وصلا إلى صخرة قريبة، صعد أكرم عليها ووضع قدمه على صخرة أخرى مُشيراً إلى يوسف قائلاً:

- هنا المدخل.
- أين ..؟، أنا لا أرى شيئاً يا أكرم..؟

قالها واقترب من الصخرة التى كان أكرم يحاول زحزحتها حتى نجح فى إزالتها بالكامل لتتدحرج على الأرض الجبلية.. مما جعل الإثنان يصابان بالهلع عندما شاهدا الفتحة المؤدية للداخل.. فقد كانت تقارب النصف متر ، ينطلق من داخلها

هواء ساخن.. فسلط يوسف وأكرم مصابيحهما الكهربائية بداخل الفتحة ليتفاجئا أن الفتحة ترتفع إلى أعلى من الداخل..

نظر الإثنان إلى بعضهما فى قلق، بينما أشار أكرم للفتحة قائلاً:

- إن الأمر جد خطير يا يوسف، فلا نعلم هل ستضييق تلك الفتحة أم تتسع، كما أننا لا ندرى أى نوع من الزواحف قد تكون بداخلها فأنت فى منتصف الجبل يا رجل.. فكر فى الأمر جيداً، فالأمر فى منتهى الصعوبة..

تطلع يوسف إلى الفتحة متفحصاً وهو يقول :

- نعم.. ولكن من الناحية الأخرى فالفتحة غير صماء، فيوجد هواء ساخن يلفحنا، بمعنى أن هناك غرفة كبيرة من الداخل يحمل الهواء الساخن إليها من كافة فتحات الجبل.. كل ما نريده هو حبل، وستنتظر هنا بجوارى، ولو حدثت أى مشكلة سأخبرك لتجذبنى خارج الجبل.. إن الأمر يحتاج إلى الدقة فقط..

غمغم أكرم فى قلق :

- حسناً.. ولكن بالنسبة لما ينتظرك بالداخل، فقد يكون هناك ضوارى..؟
- لا تقلق يا أكرم، سأشغل جهاز الكشف عن الحرارة الذى أحمله معى فى الحقيبة وأتركه.. هل هناك أمراً آخر يقلقك..؟

تطلع إليه أكرم فى قلق وهو ينظر إلى عينيه مباشرة:

- مالى أرى عينيك تلمعان كالمختلين يا يوسف..؟

حاول يوسف الإبتسام بالرغم من الإنهاك والتعب وهو يقول:

- فرحاً يا أكرم.. لا أُخفي عليك رعبي من الجبل، ولكن وجود الفتحة يُشعرنى أن الأمر أسهل مما نتصور ، ولا تنس أن هناك مقبرة كاملة فى الداخل فى انتظارنا.

- تباً لتلك المقابر.. ألم تمل من هذا الموضوع يا يوسف..؟، فقد أصبح لدينا ما يكفينا، ليس لنا فقط، بل لأبناء أبنائنا، فكفي يا يوسف بالله عليك، فالأمر يزداد خطورة فى كل مرة..
- ربما بالفعل تكون تلك آخر مرة يا صديقي، فلا تقلق ستمر الأمور على ما يرام بإذن الله.
- فلنفترض أنك وجدتها ، ألا تعلم أنه من المستحيل إخراج أية توابيت من هذه الفتحة..؟
- لا تستعجل الأمور يا أكرم.. ربما لا نحتاج أى شئ من الداخل سوى عدة برديات، وأى محتويات ذو أهمية.. هيا، قم بالإتصال بهم والإطمئنان على الأمور هناك، وأنا سأتوكل على الله وأقيد قدمى بالحبل.. لا تهاتفنى يا أكرم مهما حدث، وإن شعرت بالخطر سأخبرك أنا...

وما هى إلا دقائق حتى كان يوسف يدلف إلى تلك الفتحة، تاركاً طرف الحبل الآخر فى يد أكرم.. شعر بالقلق فى بداية الأمر، ولاحت له فكرة الرجوع وليذهب الجميع إلى الجحيم، ثم إستجمع شجاعته دفعة واحدة ليبدأ فى الزحف..

كان النفق يسير به إلى الأعلى، وبدأ يوسف فى الزحف ببطء مع تراقص ضوء المصباح الموضوع على رأسه وهو يثير الأتربة كلما تقدم.. شعر يوسف أنه سار عشرات الأمتار، فنظر خلفه ليجد أن أكرم لا زال يشجعه. ولا تتعدى المسافة بينهما ثلاثة أمتار..فأغلق عينيه واستمر فى الزحف، وكلما تقدم كلما توقف قليلاً ليتنفس القليل من الهواء الذى كان يصل إليه ساخناً ملفحاً بالأتربة، التى تخبره أنه لم يطأ أحد هذه الأماكن منذ مئات السنوات.. كان الجو بأكمله خانقاً.. بالإضافه إلى حالة الإجهاد التى كان يمر بها ، مما جعله يشعر أنه بالفعل غير قادر على التنفس..

فتوقف قليلاً ليلتقط أنفاسه متذكراً رعبه القديم من هذا الجبل...

نعم.. ففى هذا الجبل منذ ما يقرب من أربعين عاماً عاش يوسف أسوأ كوابيسه عندما كان مع والده الشيخ فاخر، وهما يكتشفون مقبرة ما فى أحد الكهوف القريبة من ذلك الجبل، ووقتها أخبره والده أن هذا الجبل بداخله مقابر لم يكتشفها أحداً أبداً لوجودها فى متاهة، ولن يصل إليها إلا من صدق وعده...

كلما تذكر تلك الأحداث كان يرتعد من داخله.. فهو لا يزال يتذكر تلك الوجوه الأقرب إلى الأشباح وهم يقومون بتحنيط أحد الفراعنة .. لا يدرى كيف انتقلوا إلى الزمن الحديث، بل وكيف ظهروا له.. ولكنه ومنذ ذلك اليوم عرف من هو

ادوميت وعرف معه سر العهد الدموى المقدس بين عائلة والده وبين حراس الجن.. هو العهد الموثق بينهما.. يعطيهم دمائه فيأتمرون بأوامره..

الدم فقط هو من يسوقوهم إليه.. ولولا تلك العهود والقسم المشترك لكانوا فتكوا به منذ اليوم الأول.. لكنه القسم المقدس الذى يجعلهم طوع بنانه ..

ولكن إلى متى..؟

هذا ما كان يفكر به يوسف، فكل مرة يتم إستنزاف دمائه أكثر فأكثر لإرضاء ادوميت وتابعيه، وكأن قصد الملاعين شرب دمائه وهو على قيد الحياة.. لقد أقسم ذات مرة ألا يعود لتلك المهنة وابتعد عن البلد بأكملها، لكن بظهور بردية ماسبيرو المفقودة ورغبته فى معرفة سرهم المفقود لجأ إليهم مرة أخرى..

كان يوسف يفكر بكل تلك الأحداث، بعدما بدأ يزحف مرة أخرى وهو يقترب أكثر وأكثر حتى شعر أن السرداب يكاد يصبح قائماً لصعوبة الصعود.. لم يفكر كيف سيعود ، فرغبته فى المعرفة أصبحت لا حد لها فى عقله.. وأخيراً وصل النفق إلى حجرة فسيحة، وكان النفق يعلوها قرابة متراً ونصف.. لم يستطع يوسف أن يعدل من وضعه لضيق السرداب.. ففرد ذراعيه قافزاً إلى الداخل داعياً الله ألا يصاب بكسر..

لم تكن الوقعة شديدة لكنه تأوه عندما ارتطم بكتفه حجر صغير.. رفع يوسف رأسه سريعاً لمشاهدة النفق القادم منه، لكن لرعبه كان هناك العشرات والعشرات من الأنفاق الموجودة فى تلك الحجرة الفسيحة..

حمد الله أنه لم يبتعد وإلا حُكم عليه بالمكوث إلى الأبد هنا، ولأنه كان يخشي أن يتيه لذلك أدخل رأسه بداخل النفق مُسلطاً ضوء مصباحه على أرضية النفق، فوجد علامات أقدامه وجسده زاحفاً..

أخرج علبة ذو رزاز خاص من حقيبته لينثر منه على الحائط ليقوم بعمل علامة (X) على النفق حتى يعلم أنه طريق خروجه من هذا التيه..

دار بمصباحه فى أنحاء الغرفة، والتى كانت واسعة بصورة كبيرة تقارب الثلاثة أمتار إرتفاع فى طول يقارب العشرة أمتار، وبعرض خمسة أمتار تقريباً.. وفيها عدة أنفاق على الجدران منها ما هو صغير ومنها ما هو أكبر...

توقف يوسف قليلاً متحيراً، أى تلك الطرق سوف يسلك.. انتظر إشارة تدله من ادوميت، فلم يجد إلا بعد سبع دقائق قليل من الهواء الساخن يأتى إليه عبر أحد الأنفاق التى تقع على يمينه.. لم يكن يعلو عن الأرض بل كان مجرد فتحة فى جدار الصخر وتجذبه بالهواء الساخن إليها.. فقام بتعليم الفتحة كالسابقة بنفس العلامة ودخل إليها زاحفاً مرة أخرى..

ولكن بعد أن قطع حوالى عشرة أمتار زحفاً وجد فى النفق مجرد فتحة بها عدة درجات صخرية، وكأن هناك من قام بترتيبها للنزول، وبالفعل هبط يوسف الدرجات الحجرية وهو يكاد يختنق، فالهواء أصبح ثقيلاً فى هذه المنطقة.. كان عليه أن يختار، إما أن يمضي نحو نهاية الدرج، أو يعود مرة أخرى إلى أكرم.. لكنه كان قد عزم أمره وأقسم أنه لن يعود أبداً حتى ينتهى من تلك المقبرة هذه الليلة وليكن ما يكون.. فهبط الدرجات الحجرية الملتصقة فى الجدار وهو يستند على الحائط وهو يهبط، حتى وصل إلى صخرة فسيحة ، فتوقف قليلاً ليلتقط أنفاسه وهو يسلط الضوء على الجدار الذى أمامه، لكن لخيبة أمله لم يجد أى شئ.. مجرد حائط أصم.. مما جعله يتمتم مُحدثاً نفسه:

- إذا لم يكن هناك شئ ، فلما وضع الفراعنة هذا الدرج إذن..؟، اللعنة..!!

قالها وهو يستدير ليصعد مرة أخرى إلى الأعلى، ولكن فى منتصف الدرج لاحظ وجود فتحة على الجدار تكاد تسمح له بالدخول زاحفاً على الرغم من صغرها .. ولكنه لم يلاحظها أثناء هبوطه.. فحاول بصعوبة أن يضع جسده فيها بعد أن خلع حقيبة الظهر ليضعها أمامه لعدم وجود مساحة يمر منها.. وبدأ فى الزحف مرة أخرى، لكن هذا الممر كان أطول من سابقيه، فقد ظل يزحف لمدة تُقارب الخمس دقائق حتى بدأ يشعر بالدوار من قلة الهواء، ولكن فجأة حدث ما لم يكن يخطر بباله قط، فقد وجد شيئاً ما يجذبه من قدمه ويمنعه من الزحف..

توقف قلب يوسف فعلياً، وحاول أن يلتفت من خلفه ليجد هذا الشئ، لكنه لم يستطيع لضيق المكان.. ففزع أكثر وحاول أن يزحف للأمام، لكنه لم يستطع التحرك ولو سنتيمتر واحد.. وقبل أن يغشي عليه من هول الصدمة سمع صوت أكرم فى جهاز اللاسلكى وهو يصرخ :

- يوسف أأنت بخير..؟، ماذا حدث ..؟، لماذا تجذب الحبل..؟، هل أجذبك للخارج..؟

لم يُجب يوسف سريعاً على أكرم، لكنه تنفس الصعداء عندما علم أن ذلك الذى كان يجذبه لم يكن سوى الحبل بالطبع، فقد كان قد وصل إلى نهايته، لكن أكرم لم يمهله حتى للرد، وما هى إلا ثوانى وشعر يوسف بالحبل يجذبه بشدة إلى الخارج مما جعله يصرخ مذعوراً فى أكرم:

- لا تجذب الحبل يا أكرم، لا تخف، إنى فقط فى مكان بعيد فى قلب الجبل.. أتسمعنى..؟
- أنت بخير إذن.. حسناً لن أجذبه، ولكن إذا كان قد وصل إلى نهايته فمعنى ذلك أنك تعديت الخمسين متراً مكان المقبرة، ولن تستطيع التحرك بعد ذلك.
- إذن إترك الحبل لأتحرك بحرية لأنى عالق الآن..
- ولكن ذلك خطر عليك يا يوسف..
- هيا يا أكرم، إفعل ما طلبته منك، فليس هناك وقت.
- حسناً لقد تركته، تستطيع أن تتحرك بحريتك وهاتفنى إن إحتجتنى..

مرت عدة ثوانى فقط، وقد تخلص يوسف من الجذب و بدأ فى الزحف مجدداً فى ذلك النفق الممتد إلى مالا نهاية هابطاً به إلى أسفل مرة أخرى.. لكنه وبعد أن ابتعد حوالى عشرون متراً عن المكان العالق فيه، شعر وكأن هناك من يجذب الحبل مرة أخرى.. استشاط يوسف غضباً وقام بفتح اللاسلكى ليتحدث إلى اكرم، لكن صوته لم يصل أبداً إليه، فقد أصبح فى بطن الجبل .. تُرى أيكون أكرم قد دخل إلى الجبل ورائه ممسكاً طرف الحبل حتى يصل إليه ..؟

- بالطبع لا.. لقد أخبرته ألا يتحرك أو يفعل أى شئ إلا قبل أن أخبره.. أيكون....

لكنه لم يُكمل تساؤلاته بل شعر أن الجذبة هذه المرة كانت أعنف.. ارتعد يوسف أكثر ودارت عشرات التخيلات فى رأسه.. فأخرج سريعاً جهاز التتبع الحرارى من حقيبته وفتحه وبدأ فى الزحف حتى يعمل.. كان هذه المرة يزحف أسرع من ذى قبل خاصة عندما لمح فى نهايه النفق دَرجاً صخرياً آخر يصعد إلى أعلى .. كان الجهاز قد بدأ فى رصد الحرارة، وما إن نظر يوسف إلى شاشته حتى وجم ..

فقد كان الجهاز يشير إلى وجود جسد ضخم يزحف سريعاً من خلفه فى النفق، وهذا الجسد يكاد يقارب طول يوسف زاحفاً بداخل النفق..وقد أطلق العنان لعقله ليتخيل ماهية ذلك الزاحف سريعاً خلفه..

قطع حبل أفكاره ذلك العواء المخيف، والذى لا يصدر إلا من ذئب جبلى وجد فريسة تأتى إليه داخل أنفاقه الجبلية ..

لم يكن أمام يوسف إلا أن يقاوم بكل ما يملك، لم يعلم من أين أتت له هذه القوة ليزحف العشرة أمتار الأخيرة فى عدة ثوانٍ فقط، ثم يقفز بنصفه العلوي على الدرج الصخرى، ليقف بجوار الفتحة ويُخرج سريعاً خنجره الذهبي ويمسكه بكلتا يديه فى انتظار ذلك الحيوان الزاحف إليه من بعيد..

كان صوت عوائه يصيب يوسف بالرعب أكثر وأكثر.. وكلما إقترب من الفتحة زاد الصوت، كان يوسف ينظر للجهاز الحرارى و هو يري الذئب يقترب من الفتحة ..خمسة أمتار.. أربعة.. ثلاثة.. استعد يوسف بكلتا يديه بالخنجر..

الآن .....

لا شئ.. نعم، لم يحدث أى شئ.. نظر مرة أخرى إلى جهازه الحرارى، لم يجد أى إشارة تدل على أى جسم حراري قريب.. وكأنه تبخر.. وعلى الرغم من ذلك كان الصوت لا يزال يصدح فى أذنيه..

دار بالمصباح فى أرجاء الجبل الملعون فوجد أنه يقف على مصطبة حجرية.. فك الحبل من على قدمه وقام بلفه ووضعه خلف كتفه، فربما احتاجه فى وقت ما فى رحلته تلك والتى بدت وكأنها بلا نهاية، ثم بدأ فى الصعود مستنداً مرة أخرى على ذلك الحائط لكن بعد خمس درجات وجد أن هناك درجتين قد تحطمتا بمرور الزمن.. اسقط فى يديه فما هو الحل الآن ، فلا يوجد أى طريق إلا تلك الدرجات الصاعدة إلى أعلى .. وبالطبع كان من المستحيل عليه الرجوع إلى ذلك النفق الآن .. كما أن هناك مشكلة أخرى، فكيف سيعود من تلك المناطق مرة أخرى ..؟، تذكر أنه لم يعد يقوم بوضع أى علامات على أماكن دخوله، فابتسم من غبائه وقام بعمل علامة على المدخل الوحيد الذى خرج منه، وبدأ يفكر كيف سيقفز هاتين الدرجتين إلى أعلى..؟

ألقي بحقيبته إلى الدرجات المتبقية، ولكنها وقعت على الأرضية الحجرية، فهبط مرة أخرى ليلتقطها، ليعود بعد دقيقتين فى نفس مكانه السابق ليقذفها لأعلى مرة أخرى، فثبتت على الدرج الحجرى.. اقترب بحذر من الدرجة الأخيرة، وكان عليه

أن يقفز فوراً قبل أن يظل متردداً، وبالفعل قفز يوسف، لكن قفزته لم تكن سليمة بالشكل الكافي، فقد ارتطمت رأسه بالحقيبة، ولولا وجودها لكانت قد ارتطمت بالحجر الصخرى، ولكن أثناء قفزته لم تتحمل الدرجات الهابطة وزنه، فتحطمت من القفزة، وأصبح يوسف على منتصف الدرجات، ومن أسفل منه تحطمت الدرجات الصخرية المؤدية إليه.. وكأن القدر يخبره أنه لا مجال للعودة من نفس الطريق..

ظل يوسف يحاول صعود الدرج وهو يدعو الله أن ينتهى من هذا الكابوس.. نظر إلى ساعته، كان يشعر أنه فى الجبل منذ ساعات وساعات، ولكنه وجد أنه لم يلبث على دخوله إلا سبعون دقيقة فقط، فقد كانت الساعة تقترب من ميعاد ظهور ادوميت..

وأخيراً ظهرت كوة فى جدار الجبل، كان الهواء البارد يتسرب منها.. فعرج يوسف داخلها ليجد أنها غرفة أخرى فسيحة جداً مشابهة للأولى، وبها أيضاً كهفين كبيرين ..أحدهما كان على يمينه، والآخر على يساره ..اقترب يوسف من الكهف الموجود على يمينه فلفحه تيار من الهواء البارد فتنشقه بارتياح.. ولكنه عندما سلط ضوء مصباحه لم يجد ثمة مخرجاً واضحاً.. فعاد مرة أخرى إلى الكهف الموجود على يساره فإذا به يُفضي إلى غرفة أخرى ثم إلى عدة أنفاق فيها.. زفر يوسف بضيق واستند على حجر صخرى كبير، وهو يلعن ذلك اليوم الذى حُكم عليه أن يكون نسله من نسل الباحثين عن المقابر والمختلطين بالجن.. بدأ فى السب وهو يقذف الحجارة فى سخط..

وبينما هو ملقى على الأرض مهموم ومُنهك ويضرب بقدمه الحائط غاضباً، إذا به يشعر بالحجر الذى يضع عليه قدمه يتزحزح، فقفز وبدأ يختبر الحجر، فوجده دائرى الشكل وبالإمكان تحريكه، وما إن أزاحه فإذا به يجد سرداباً ضيقاً لا يكاد يتسع للزحف، فشعر أن هناك من يدفعه للدخول فى تلك الفتحة الضيقة، فبدأ يزحف.. وكلما زحف كان يسمع صوت هواء ويشعر بضوء وبرق..

شعر بالأمل لشعوره أن الأمر قريب.. فقد كان السرداب يلتف بكامله ناحية اليمين إلى جهة الكهف الذى وجده بمجرد دخوله، كان يشعر بتيار الهواء يلفحه من فتحات صغيرة، وكان يفصل بين الكهفين مجرد حجر ضخم .. حتى وصل أخيراً إلى مكان فسيح يطل مباشرة على فتحة فى الجبل، ما إن لمحها يوسف حتى جرى إليها ليستنشق ذلك الهواء البارد الذى

ملأ رئتيه ويتطلع من خلالها إلى ذلك المنظر البديع.. فقد كان يطل على جنبات الوادى ومعبد ماميسي من بعيد وسيارته التى تبدو ضئيلة جداً من أعلى..

كان القمر يرسل ضوئه إلى داخل المكان ليضيئه، وخاصة بعد أن انقشعت السحب، وبدا بدراً فى تلك الليلة الشتوية.. ولكن جالت بخاطره فكرة جعلت قلبه يكاد يتوقف.. فلو أراد جت مكان خاصاً ليكون مقبرة للغرباء فلن يجد مكان أكثر عظمة ليكون مقبرة من .....

ولم يُمهل نفسه للتفكير، بل نظر مرة أخرى إلى آخر الجدار.. حيث تظهر فتحة مثلثة الشكل، هرع يوسف إليها ليجد باب طوله نصف متر تقريباً، لم يلحظه يوسف أثناء دخوله لهروعه ناحية الفتحة المُطلة على الوادى، ولكن ضوء القمر كان يدخل إلي ذلك الباب الصغير، فمد رأسه ليتسلل إلى الداخل مع ضوء القمر، ليجده وقد وقع على ثلاثة تماثيل ذهبية، يلمع ضوئهم مع شعاع القمر الواقع عليهم، ليضيف إلى المكان رهبة لم يعهدها يوسف فى عشرات من المقابر الفرعونية التى دخلها.. ومن خلف التماثيل كان هناك ثلاثة توابيت ذهبية بالكامل، وغرفة كاملة منقوش على جدرانها باللغة الهيروغليفية، ومناضد رخامية قد تراصت عليها تماثيل وأدوات ومخطوطات وصناديق وأشياء لم يعهدها يوسف من قبل فى المقابر الفرعونية..

وقتها علم أنه قد وصل أخيراً إلى مقبرة المبعوثين

****

"السلام عليك أيها الإله الأعظم.. إله الحق.

لقد جئتك يا إلهي خاضعاً لأشهد جلالك..

جئتك يا إلهي مُتحلياً بالحق، مُتخلياً عن الباطل..

فلم أظلم أحدًا ولم أسلك سبيل الضالين..

لم أحنث في يمين ولم تُضلني الشهوة..

فتمتد عيني لزوجة أحد من رحمي..

ولم تمتد يدي لمال غيري..

لم أكن كاذباً، ولم أكن لك عصيّاً..

ولم أسع في الإيقاع بعبد عند سيده.

إني يا إلهي لم أُوجع ولم أُبك أحداً، وما قتلت وما غدرت..

بل وما كنت مُحرضاً على قتل..

إني لم أسرق من المعابد خبزها ولم أرتكب الفحشاء ولم أدنس شيئاً مُقدساً..

ولم أغتصب مالاً حراماً ولم أنتهك حُرمة الأموات..

إني لم أبِع قمحاً بثمن فاحش ولم أغش الكيل..

أنا طاهر، أنا طاهر، أنا طاهر.

وما دُمت بريئاً من الآثام، فاجعلني ياإلهي من الفائزين".

كان يوسف يقرأ ذلك الطقس الجنائزى، والمنقوش على الجدار أمامه مُصوراً رحلتهم إلى الدار الأخرى، بينما خُط إلى الحائط المقابل للتوابيت الموجود به الباب رسمات تصور رحلتهم البحرية إلى مكان ما، وأما الحائطان المتبقيان فقد نُقش عليهم رموز بلغة غريبة لم يعهدها من قبل، أما التوابيت فبجانب تلك اللغة الغريبة نُقش عليها بماء الذهب جملة غير معتادة.

((زارع الشر يروى أرضه بمياه الظلم فلا تنبت إلا أشواك الحقد.. وزارع الخير يروى أرضه بمياه الحق فلا تنبت إلا زهور المحبة))

فكر يوسف فى تلك الحكمة التى إمتلكها الأقدمون ، والتى جعلت حضاراتهم تُخلد أبد الدهر، فى الوقت الذى ينسى الناس فى عصرنا هذا أمسهم، ربما لأننا أصبحنا نفتقد تلك الحكمة التى بُنيت عليها تلك الحضارات كأرقى أنواع المعرفة الإنسانية، فبالحكمة تُبنى الأمم وتُشيد الحضارات، وبالحكمة يُصنع الإنسان ليقوم بتلك المهمة التى أوكله الله بها، فيُعمر فى الأرض ويرتقى بنفسه وبغيره من مخلوقات الله، إنها الحكمة .. مغامرة العقل البشرى الأولى فى فك طلاسم هذا الوجود وكشف النقاب عن أسراره وخفاياه..

إقترب يوسف من أحد التوابيت وكان أصغرهم، وأخرج عتلته الحديدية واضعاً إياها فى الفُرجة البسيطة بين الغطاء والتابوت، وحاول بقدر ما يستطيع إزاحة الغطاء، وبعد جهد زحزح الغطاء مساحة كافية ليري ذلك المخلوق الموجود بداخله..

كانت المومياء لا تختلف إطلاقاً عن أى مومياء فرعونية، ما عدا حجم الرأس حيث كانت جبهته مسطحة بشكل أكبر من الإنسان الطبيعى، وكذلك حجم الجمجمة.. بينما بقية الجسد كان بنفس الشكل.. أصابته خيبة أمل، فقد كان يشعر أنه سيري جثمان مخلوق فضائي أو جسد مختلف.. حاول غلق التابوت لكنه لم يستطع وبدأ فى تفحص المقبرة ..

أدوات كثيرة لا يعلم عنها أى شئ، ولم يرها فى أى متحف قبل ذلك، كما وجد العديد من المخطوطات والمكتوبة بتلك اللغة الغريبة، ويجاورها رسومات لبعض المعابد الفرعونية، وتخطيط للهرم الأكبر وعدة تماثيل إلى جواره.. طوى يوسف هذه المخطوطات ووضعها بداخل حقيبته.. كما وجد مادة بيضاء غريبة لم يعلم عنها شيئاً، موضوعة داخل فخار فأخذها، وكذلك مادة حمراء بأحد الأوانى الفخارية.. اقترب من الصناديق الثلاثة الموضوعة إلى جوارهم وفتحهم، فوجدها ممتلئة لآخرها بقطع ذهبية.. فقام بغلقهم مرة أخرى.

تلك المقبرة من المستحيل الكشف عنها، وإلا بالفعل تم ربط الحضارتين مع بعضهما البعض، وإبراز دور هؤلاء المبعوثين ومن قبلهم وقبلهم.. حمد الله كثيراً أن رينيه قد لجأ إليه ولم تسمح له الأقدار بأن يصل إلى هنا، فالمقبرة.. بغض النظر عن تاريخها الذى سيُسقط الكثير من المفاهيم الفرعونية، والتى كانت لا تقدر بثمن، فما إكتشفه فى المقبرة الأخرى منذ عدة ساعات لا يُقدر بعُشر الموجود فى هذه المقبرة..

وبالقرب من أحد الجدران، كان هناك كوة فى الحائط تسمح بمروره إلى مكان ما .. لكنه كان متحيراً ، من أين أتى جت ورجاله لعمل تلك المقبرة..

- من خلال أحد الجدران التى تم طمسها ووضع حجر ضخم.. ذلك الحجر الضخم الفاصل بين الكهفين يا يوسف.

جفل يوسف عندما سمع صوت ادوميت، الذى كان مستنداً بخياله الطويل الأسود إلى أحد التوابيت.. مما جعله يهتف في توتر:

- أين كنت..؟
- كنت بجوارك دائماً.
- ولكنك لم تدلنى على تلك المقبرة .. أنت فقط....

قاطعه ادوميت بنفس نبرته الهادئة:

- بل أرشدتك عن طريق الهواء الساخن، وعن طريق إختيارك للصعود فى الأدراج الحجرية عوضاً عن الهبوط، وبمساعدتك فى كثير من الأمور، وفى اختياراتك الصائبة.
- حسناً والآن ..؟؟
- الآن ماذا.؟
- أخبرنى أولاً، هل يعلم كائناً من كان شيئاً عن هذه المقبرة يا ادوميت .؟
- لا يعلمها بشرياً على الإطلاق، فلم تطأ أقدام أحد هذه المقبرة منذ آلاف وآلاف السنوات
- إذن لابد من طمس هذه الحجرة للأبد، فلا أريد أى مخلوق أن يهتك هذا السر يا ادوميت.
- أى سر..؟،
- الحضارتين ..
- هل تقصد اختلاط الحضارتين ..؟

- نعم.. فوقوع مثل هذه المخطوطات أو النقوش المرسومة على الحائط مع تلك البرديات التى أخفاها العالم الفرنسي قد يؤدى إلى كارثة حقيقية..

- ولكن هل ستترك أنت محتويات المقبرة على حالها هكذا.. دون أن تمسها؟

- نعم، فلن تمتد يدى إلى أى شئ فيها، رغم وجود عشرات وعشرات الأشياء التى لا تقدر بثمن.

- و مع ذلك أخذت بعضاً من المخطوطات والتى تشير إلى خريطة داخل الهرم الأكبر، وكذلك أماكن هامة فى العواصم القديمة.

- لدراستها..

- كيف، وأنت لا تعلم عن هذه اللغة شيئاً..؟

- سنري يا ادوميت

- لكنك أخبرتنى أنك لن تمد يدك إلى أى شئ.

- إلا تلك...

- حسناً سأسمح لك بأخذ ما هو موجود داخل حقيبتك فقط.

- ومنذ متى تسمح لى أو لا تسمح يا ادوميت..؟

- منذ اليوم يا يوسف، أنت تريد نقض العهد، ولا تدرى عواقب ذلك.

- أريد فقط أن أرتاح، وأنت تعلم لماذا..؟، أنت طوال الوقت لا يهمك سوي الدماء والدماء فقط.

- ستحتاجنى مرة أخرى، وأسرع مما تتخيل يا يوسف.

- حتى إذا احتجتك، فأنت مجبر على المجئ ومجبر على مساعدتى.

- سنرى...

- نعم، سنرى..

- والآن فآخر طلب اليوم أن تطمس على هذه المقبرة للأبد، أغلق تلك الفتحة الصخرية الموجودة أمامك إلى الأبد، لا أريد كائناً من كان أن يصل أبداً إلى هذا المكان، حتى لو نسف الجبل كله نسفاً.. أفهمت..؟

- حسناً ، ولكن هناك أمراً آخر أود إخبارك إياه....

****

فى تلك الأثناء كان أكرم يقوم بالإتصال بفاروق وبقية الرجال فى المقبرة الموجودة فى المعبد القديم فأخبره فاروق أن الأمور تسير على ما يرام، وتم إخراج كافة محتويات المقبرة ووضعهم فى السيارة الدبلوماسية، وأن الرجال يقومون الآن بطمس أى أثر للمقبرة، وسوف يقوم بصرفهم مع رجال رينيه، والإنطلاق مع رينيه ومساعده إلى قصر يوسف فى غرب سهيل..

حاول أكرم الإتصال بيوسف مرة أخرى، لكن الجبل منع من إتمام إشارة الإتصال، فنظر إلى ساعته التى كانت تقارب الرابعة، ولم يتبق إلا ساعة على بزوغ النهار فى تلك الليلة الباردة.

أما فى الأعلى فقد كان يوسف فاغراً فاه بدهشة من ادوميت الذى كان يخبره بشئ فى منتهى الخطورة، فهتف به:

- كيف ذلك يا ادوميت..؟، إن الأمر كذلك قد ازداد صعوبة أكثر من ذى قبل، فقد كنت أشعر أن الأمر قد انتهى وانتهينا من هذه البردية الملعونة، فكيف أبحث عن.....

قاطعه ادوميت :

- أنت من أردت منى إخبارك، إن كنت تريد طمس هذا الأثر فسوف يحدث حالاً، أما بخصوص.....

قطع صوت ادوميت فجأة صوت عواء ذئب يتردد فى الجوار وهو يحفر بأقدامه ذلك الجدار الصخري، مما جعل ادوميت يرتعد وهو يختفي من الوجود لرعبه من الذئاب، فالذئاب هى الوحيدة القادرة على تثبيت الجن...

وأسقط فى يد يوسف هو الآخر، لكن قبل أن يخرج سريعاً وجد ادوميت قد أغلق الفتحة الصخرية إلى الأبد، وأصبح هو عالقاً بالداخل.. وربما إشارة من ادوميت بأن الكوة الموجودة بالجدار هى الوحيدة التى يستطيع الخروج منها.. زاد صوت الحفر وقد انضمت إلى الذئب عدة ذئاب أخرى، فكان صوتهم يكاد يصم الآذان، وكيف لا وقد عثروا أخيراً على ضحية حية لا يفصلهم سوى جدار فقط.. لم ينتظر أن يقرر، بل قفز إلى الكوة الموجودة فى الحائط، والتى وجدها تستقيم مرة أخرى ،فأصبح زحفه أكثر صعوبة، ولكنه كان يُسرع أكثر من ذى قبل، وكلما أسرع كلما زادت أصوات الذئاب، لكنها كانت

تأتى من أسفله.. وفجأة وجد نفسه يزحف على ممر صخري يعلو به إلى سطح الجبل، فوقف مستنداً بظهره إلى الفتحة الصخرية وهو ينقل قدم بجوار قدم، ولكن من فرط فزعه من الصوت نظر أسفل منه فإذا به يجد حوالى أربعة ذئاب جبلية تنظر إليه بعيونها النارية، لكنها لم تكن تستطيع الوصول إليه، فكانت تحاول القفز إليه فقط ، ولكنه كان يعلوها بقرابة العشرة أمتار... ولكن المرعب أن إحداها والذى كان يبدو وكأنه كبيرهم كان مستكيناً، فلم يفعل مثلهم بل نظر إليه برأسه الأكبر حجماً ثم تشمم الهواء، وهو يُطلق عواءاً مُخيفاً، فسكت الجميع وكأنه يخرسهم، ثم نظر مرة أخرى إلى يوسف ونظر إلى يمينه ثم همهم وكأنه يحثهم على المُضي خلفه، فقد اختار الملعون أحد الأنفاق، وهو يزحف بداخلها ومن خلفه بدأ بقية الذئاب فى الدخول إليها ..

وكأنه كان يعلم أن هناك طريقاً مُختصراً للوصول إليه.. أما يوسف فقد كان فى قمة الرعب والفزع لأنه ليس معه أى وسيلة يدافع بها عن نفسه، فهو يرفض قتل الروح مهما كانت إلا للدفاع عن نفسه.. وكل ما فعله هو أنه سارع الخطى دون أن يدرى إلى أين يتجه، لكنه كان عليه أن يصعد حتى يري إلى أين تقوده قدماه..

وأثناء صعوده وجد فتحة فى جدار الجبل.. فدخل إليها وهو يُخرج جهاز التتبع الحرارى فلم يجد أى أثر للذئاب فى محيط عشرون متراً ، فتحرك سريعاً من خلال تلك الفتحة التى كانت بحجمه وبدأ فى العدو داخلها، دون أن يعلم إلى أين يتجه، لكنه فقط كان ينظر برعب إلى الجهاز الحرارى وإلى الأرض أمامه التى كانت تتدرج به بصورة سريعة..مئات الأمتار التى شعر يوسف أنها تقوده إلى كهف جهنم هذا، لكنه الهواء الساخن الذى بدأ فى الوصول إلى رئتيه مرة أخرى، وقد لاحظ أن الأرض تضيق وتصغر أكثر حتى تحول المكان الفسيح إلى فتحة ضيقة.. ومن خلفه بدأ الجهاز يشع بوجود جسم ضخم حرارى وقد صاحب ذلك صوت العواء الذى يأتى إليه من خلفه ..

زحف يوسف تلك الأمتار المتبقية إلى النفق، وهو ينظر فى آخره حتى لاحظ وجود فتحة فى أرضيته، وبالفعل ألقي حقيبته وقفز إليها على يديه، كانت القفزة مؤلمة بصورة كبيرة لكنه لم يعد يشعر بشئ، ربما من كمية الأدرينالين التى كان جسده يفرزها منذ دخوله إلى ذلك الجبل الملعون.. ولدهشته وجد نفسه بداخل الحجرة الصخرية التى دخل إليها فى بادئ الأمر، وصوت أكرم الذى بدا جلياً فى الميكروفون وهو يسأله عن موقعه.. لكن يوسف أخبره بأن يستعد لأنه فى طريقه إليه خلال دقائق..

دار يوسف فى أنحاء الغرفة باحثاً عن تلك الفتحة الغبية التى قفز منها بمجرد دخوله الجبل وفى كل لحظة كان ينتظر ظهور الذئب ، ولكن لدهشته إختفي من جهاز التتبع الحرارى..

بحث أكثر حتى وجد تلك العلامة الفسفورية على أحد الأنفاق، وقتها علم أنها تلك الفتحة التى ينبغى أن يخرج منها، وبالفعل قفز إليها .. كان يعلم أنها ستتدرج به إلى أسفل، فألقي بحقيبته وهو يتحامل على نفسه حتى وضع جسده فى الممر الضيق وبدأ فى الزحف لأسفل .. لكن النفق كانت به رائحة غريبة.. فبدأ فى التحرك سريعاً بعدما سمع تلك الهمهات تأتى إليه من الداخل..

لم يستطع العودة ففتح الجهاز الموجود بالحقيبة الآن، وأكمل الزحف أسرع فأسرع وهو يتحدث إلى أكرم للتواجد أمام الفتحة الآن .. ولكنه تيبس وقد شلت حركته تماماً عندما وجد أن هناك ما يسد منفذ الخروج..

فقد وجد عينان ناريتان ينظران إليه مباشرة ..

فقد كان هناك أحد الذئاب ينتظره بداخل النفق وهو يتطلع إليه ..

كان الإتصال مفتوحاً بين يوسف وأكرم الذى استمع فى تلك اللحظة إلى ذلك العواء القاتل، بينما يوسف يهمس إليه بضعف..

- ذئب يسد الخروج.

تحرك الذئب قليلاً وهو يستند على قائمتيه الخلفيتان مستعداً للقفز والهجوم على يوسف فى أى وقت، لكنه كان يزحف بهدوء إلى يوسف الذى تراجع متقهقراً وهو يتساءل، لماذا لم يقفز ذلك الغبي ويكتفى بأن يتقدم ببطء نحوه فقط..؟، لكن الرد كان أسرع مما يتخيل، فقد وجد أكبر الذئاب هو من ينتظر يوسف من خلفه وعلى مسافه لا تتعدي العشرة أمتار، بينما كان الآخر يقترب منه من الأمام..

مرت عدة دقائق تسمر فيها الجميع دونما سبب إلا خوفهم من تلك المصابيح التى أشعلها يوسف، وقد بدأ الذئب الأكبر فى العواء، وكأنه يُصدر أمراً بالتقدم من ناحية باب الخروج، وفعلاً بدأ الذئب الأكبر فى التقدم منه، وقتها أيقن يوسف

أنه مقتول لا محالة، لكن قاطعه صوت إطلاق النار فى النفق وأعقبة جر الذئب الآخر الذى يقف فى إتجاه الخروج من الخارج ..

وقتها علم يوسف أن أكرم قتل ذلك الذئب الغبي، وهو يجذبه إلى الخارج حتى يفسح طريقاً لخروج يوسف الذى ترك مصابيحه مكانه مشتعلة، وهو يصرخ على أكرم سريعاً للخروج سوياً من هذا النفق.. وقتها أدرك الذئب الآخر أن الفريسة تهرب منه مرة أخرى، فبدأ فى التقدم لكنه لم يستطع أن يلحق يوسف الذى شعر أنه نبتت له عشرات الأيدى والأرجل وهو يعدو إلى الخارج ..

وأخيراً قفز أكرم إلى الخارج مُلقياً بجثة الذئب ومن خلفه كان يوسف الذى قفز إلى أرضية الجبل، بينما وقف أكرم فى انتظار الذئب الأكبر، لكن الأخير لم يخرج إليهم، فسارع أكرم ويوسف بسد الفتحة المؤدية إلى الداخل بعناية لإغلاقها إلى الأبد..

استند يوسف برأسه إلى الأرض وهو يلتقط أنفاسه، وهو لم يزل غير مصدق أنه كان على شفا حفرة من الموت لولا تدخل أكرم.. الذى باغته قائلاً:

- لم تجدها، أليس كذلك..؟

نظر يوسف إلى أكرم بنظرات مشتتة، وتذكر ما مر به فى الساعات الماضية وهو ينطق بصعوبة:

- هراء يا أكرم.. كل ما رأيته كان هراء، لا يوجد أى شئ، مجرد طرقات بداخل ذلك الجبل الملعون، ومهما تتوغل بها تكتشف أنك تدور حول نفسك..

قالها يوسف وهو يتطلع من حوله وقد بدأ يتجرع زجاجة من العصير والتى ناولها له أكرم لتعويض دمائه ، بينما كان ضوء الفجر قد بدأ يبزغ وبدأت تباشير النهار.. ويوسف يتساءل:

- أخبرنى يا أكرم كيف حال فاروق ورينيه وبقية الرجال..؟

- الحمد لله، إن فاروق فى طريقه للقصر، أما الرجال فقد تفرقوا بسيارات حتى لا يثيروا الشبهات، وفاروق معه رينيه ومساعده ألبير والذى يخبرنى أنهم لا يصدقون ما حصلوا عليه من كنز.
- الحمد لله ، كل شئ يسير على ما يرام، والآن هيا بنا إلى المنزل، سأغفو أنا فى المقعد الخلفي ، وعند وصولنا أيقظنى بالله عليك..

وقفزا إلى السيارة ليبدأ فى السير ولكنهم على بُعد سمعوا عواء ذلك الذئب الضخم مرة أخرى،

****

كان فاروق فى هذه الأثناء يقود السيارة الدبلوماسية فى الطريق إلى النوبة، بينما جلس ألبير إلى جواره ومن خلفهم كان رينيه وهو يحاول التفكير فى كيفية تحويل محتويات هذه المقبرة إلى هالستات.. وهو ينظر برعب إلى شعره والذى لم يدرك كيف تحول للون الرمادى دون أن يشعر.. بدأ يشعر بذلك الصداع وهو يتطلع إلى الطريق بتأفف ثم قال لفاروق:

- هل تبقي كثيراً على القرية يا فاروق..؟

نظر فاروق فى مرآة السيارة إلى رينيه، وهو يخبره بلغة إنجليزية سليمة:

- لا يا سيدى، لم يعد يفصلنا عنها إلا نصف ساعة فقط..
- اسمها غرب سبيل على ما أعتقد..؟
- لا يا سيدى، اسمها غرب سهيل وهى من أجمل قري العالم، حيث جمعت تلك القرية النوبية بين جمال الطبيعة والموقع الفريد، وهى تقع على النيل مباشرة أمام خزان أسوان،أنا من هناك ومنذ عشر سنوات فقط بعد أن قرر أهلها تحويلها من قرية عادية إلى مزار سياحى وقرية نموذجية لهذا النوع من السياحة بهدف إبراز العادات والحياة النوبية، حتى وصلت شهرتها إلى العالمية، وأصبح يقصدها السائحون من جميع أنحاء العالم ليشاهدون التماسيح أيضاً...

قاطعه رينيه بدهشة قائلاً:

- تماسيح..؟!!

- نعم.. إن كل منزل لدينا تقريباً لديه هواية تربية التماسيح، والسيد يوسف لديه حمام سباحة كامل يحتوى على أندر أنواع التماسيح.. ستراها بنفسك.. الكثيرين فعلاً يأتون إلينا ليركبون الجمال، ويمارسون رياضات التزحلق على الرمال، ويأتيها المرضى للإستشفاء بالدفن فى رمالها وعمل حمام "الطين النيلى" ، ان لديك برنامج سياحى هائل يا سيدى وسترى بنفسك مدى جمال الطبيعة والنيل والقصر المقام على ضفافه.

- كنت أتمنى كل ذلك يا فاروق لكن الوقت و.....

قاطعه يوسف بلطف قائلاً:

- إن لدينا الكثير من البيوت النوبية التى يطلق عليها (أنا كاتو) وتعنى (بيتنا) بالنوبية على الطراز النوبى، وكذلك الكافيتريات وأحواض تماسيح، حيث يتجول السائح فى القرية دون مضايقات، وبمجرد دخوله القرية يشعر بالأمان، حيث لا يوجد أى فرد أمن بالقرية، والجميع يعتبر السائح ضيفه، فلا أحد يغلق بابه عليه ليلاً أو نهاراً، لأنها آمنة بطبيعتها، ويكفى صاحب المحل أو البازار وضع قطعة من القماش على باب محله ليس لإخفاء بضاعته، لكن لحمايتها من الأتربة.

تركه رينيه يتحدث إلى ألبير بعد أن ضجر من كثرة حديثه، وهو ينظر خلفه ويُمسك هاتفه ليقوم بالإتصال بأحدهم، بينما لم يزل فاروق يتحدث ويتحدث..

وبعد حوالى سبع دقائق كانت هناك سياراتان تقتربان سريعاً من السيارة التى يستقلها رينيه حتى أجبراها على الدخول إلى المنطقة الصحراوية، ليهبط من السيارتين خمسة رجال مُحملين بأسلحة وليشهروها فى وجه فاروق، بينما أجبره أحدهم على النزول من السيارة ..

هبط من السيارة الأخرى شخص يعرفه رينيه جيداً، فقد صرخ فى وجهه بمجرد أن رآه:

- ماذا كنت تنتظر..؟أين كنت كل هذا الوقت..؟، هل كنا سنراك بعد دخولنا القرية..؟

- إن الطريق وعر يا مسيو رينيه، ولا تنس أنى كنت أؤمن لك الطريق، وما هى إلا ساعة حتى نكون خارج مصر بأكملها..

هبط رينيه من السيارة وهو يتجه إلى فاروق الذى كان ينظر إليه جذعاً، بينما كان ألبير يبحث فى السيارة عن أجهزة اللاسلكى، وكذلك أى هواتف مع فاروق، حتى أخذها جميعاً وهو يستطلع الطريق، أما الرجل فكان يصدر أوامره إلى بقية رجاله قائلاً:

- هيا إنقلوا الصناديق سريعاً إلى داخل السيارتين، أمامكم أقل من دقيقتين.

وما هى إلا دقيقتين حتى كانت الصناديق كلها قد نُقلت من السيارة الدبلوماسية إلى السيارتين الأخرتين، والتى ركب الجميع فيها، لكن رينيه هبط إلى جوار فاروق قائلاً:

- لا ضغائن بيننا يا فاروق..منذ اليوم الأول، وأنا لا أثق فى زعيمك، فكنت أشعر أنه سيغدر بي لا محالة، وبما أننا لا يمكن أن نتعاون مرة أخرى مع بعضنا لكونه بذلك الشكل الذى رأيته عليه منذ ساعات، الأمر الذى يجعلنى أحمد الله أنى خرجت سليماً من بين يديه.. بلغه تحياتى يا فاروق، وأخبره أنه لو كان مكانى ربما فعل ذلك.. أخبره أن ينسانى إلى الأبد..

قاطعه صوت الرجل من داخل السيارة والجالس بجوار البير صارخاً فيه:

- مسيو رينيه.. ماذا تفعل..؟!!، فلتقفز بداخل السيارة، إن لدينا أمور أهم من حديثك مع السائق..

وبعد دقيقة واحدة كانت السيارتان تنطلقان فى طريقهما إلى خارج الحدود المصرية..

****

أفاق يوسف على يد أكرم يهزه ويوقظه قائلاً بحزن:

- أخبار سيئة يا يوسف ..

أخبره أكرم بما فعل رينيه ،وبعد نصف ساعة كان أكرم وفاروق وعدة رجال مع يوسف بجوار السيارة الدبلوماسية لإخراجها من الرمال، بينما كان فاروق يخبره بكل ما حدث..

لم يبد على يوسف أى رد فعل أبداً، فقد كان جالساً على الرمال مستنداً برأسه على أحد الأشجار القريبة وهو يشاهد إخراج السيارة ..بينما إقترب أكرم منه قائلاً:

- لقد أتت لى على بريدى الإلكترونى قائمة الأشخاص القادمين مع رينيه.. لكن أخبرنى أولاً لما أراك لست مهتماً بما حدث..؟

تمتم يوسف بهدوء غريب:

- لأنى كنت أود أن أفتعل أى موقف وأترك رينيه يبتعد عنى، فيكفي ما يأتى من خلفه من مشاكل.. ليذهب إلى الجحيم هو وتلك المقبرة.. أيهما كان أفضل، لو قتل فاروق وسرق المقبرة، أم يسرقها فى صمت ويمضي..؟

هتف أكرم فى حنق:

- ولكنى أشعر وكأن شخص أتى إلينا ليضحك علينا فى بلادنا ثم يهرب عائداً إلى بلاده.. إن ذلك لكبير جداً فى حقنا يا يوسف.

تطلع إليه يوسف فى هدوء وهو يبتسم إبتسامة واثقة بالرغم من الإرهاق الذى بدا واضحاً على وجهه:

- سيأتى يا أكرم.. سيقبل الأرض من تحت أقدامى للعفو عنه.. سيأتى وسترى بعينيك.

هتف أكرم فى حيرة متسائلاً:

- كيف..؟

- إن ذلك المجنون لا يدرى أنه قد أصيب بلعنة لا فكاك منها إلا بطقوس أخرى.. دعه.. إن غداً لناظره لقريب كما يُقال.

كان يوسف فى هذه الأثناء يُطالع القائمة، فإذا به يقفز صارخاً كمن لدغه ثعبان، حتى إن أكرم جفل من تلك القفزة والتى لا تناسب تعبه وإجهاده:

- يا لغبائي، كيف لم أتابع القائمة بمجرد دخولهم القاهرة.
- ماذا فى القائمة أزعجك إلى هذا الحد..؟
- حاييم جولد شتاين
- من ..؟
- إنه زميلى اليهودى فى المعهد البريطانى و...، اللعنة كيف وصل رينيه إلى هذا الرجل..؟، نعم.. نعم .. الآن فسر لنا كل شئ.. أتعلم لو نظرت فى هذه القائمه بمجرد دخولهم لكنت إكتشفت هذه الخدعة.
- لم يمض على هروبهم إلا ساعة ونصف هل.....

قاطعه يوسف وهو ينظر إلى الطريق الذى يبدو أنه ممتد بلا نهاية قائلاً:

- لا.. من المستحيل إدراكهم الآن.. دعهم.. فسوف تدور الدائرة عليهم بأسرع مما يتخيلون..

****

كان رينيه فى تلك اللحظات يشعر بأن الصداع يكاد أن يفتك به فطلب منه ألبير الهبوط من السيارة والمكوث قليلاً فى أى كافيتريا، ومحاولة تناول مُسكن، وبالفعل توقفت السيارة إلى جانب الطريق ليهبط منها ألبير ليبتاع دواءً مُسكناً ، وما لبث أن دخل للصيدلية القريبة حتى خرج مع شاب من الصيدلية ليطلب منه أخذ تلك الحقنة المهدئة.

فكشف رينيه عن يده ليعطيها له ويتوقف عن الشعور بالألم.. استند على يد ألبير وجلسا على أحد المناضد بالكافيتريا المجاورة ليطلبا إثنين من القهوة السادة .. وقد بدأ مفعول الحقنة يسري ليشعر رينيه بأن حدة الصداع قد بدأت تخف بينما إقترب منه ألبير وهو يهمس له:

- مسيو رينيه.. هل أنت أفضل الآن..؟، هل زال الصداع ..؟، صدقنى سيزول الآن تماماً.. فقط إهدأ ولا تقاوم.. انصت فقط إلىّ ..لقد وضعت فى جيبك العلوى تذكرة وجواز سفر باسم الكساندر موليير، وحجزت لك فى طائرة العاشرة صباحاً على طائرة الخطوط الألمانيه من مطار أسوان الدولى ..

نظر إليه رينيه فى دهشة وهو يتمتم:

- ها..؟، ماذا تقول..؟، أنا لا أفهم شيئاً..؟
- لا تخف، فأنت ستشعر الآن بشلل فى أطرافك سيزول بعد ساعة على الأكثر، وستذهب بعد عدة دقائق فى النوم، ولن يوقظك أحداً فى هذا المقهى.

حاول رينيه أن يقف أو يصيح، لكنه سقط على الكرسي مرة أخرى، فأسنده ألبير قائلاً:

- لا تكن غبياً وتقاوم.. لقد أخبرتك بكيفية رجوعك إلى النمسا بجواز سفر آخر، حتى لا يتعقبك رجال يوسف الذين سيقلبون عليك مصر بأكملها فى غضون دقائق.. أما أنا فلا تتذكرنى أبداً.. ولن أطلب منك مغفرتك، فأنت سارق من يوسف، ويوسف سارق من بلاده.. وأنا سارق منك، وهذا الأفّاق اليهودى مجرد لعبة فى يدى بمجرد أن عرفتنى عليه.. هيا فأنا أرى عينيك تتثاقلان.. لا تقلق علىّ، فكل شئ مُدبر منذ وصول حاييم.. ستمر السيارة من منافذ مخصوصة بطريقة لم تخطر على بال يوسف نفسه.. وخلال ساعات لن يتبقى أى أثر لألبير.. سأذهب إلى بلاد جديدة بشخصية جديدة.

حاول رينيه جاهداً أن يُبقى عينيه مفتوحة وهو يتمتم بصعوبة:

- كيف تجرؤ.........

وقبل أن يُكمل بقية جملته كان قد ذهب فى نعاس كامل، بينما إقترب أحد النادلين منهم بكوبين من القهوة، فأخبره ألبير أن مسيو الكساندر يرتاح فقط، ولا يريد أحد إيقاظه، ثم أخرج ورقة بخمسين دولار مُعطياً إياها للنادل الذى قفز فرحاً وهو يبتعد.. واعداً بالا يوقظه حتى يفيق هو..

بينما إستقل ألبير السيارة بجوار حاييم وانطلقا وهو يُلقى نظرة أخيرة على رينيه..

****

إقترب يوسف من مدخل القرية وهو لا زال يتذكر آخر موقف جمعه مع ادوميت.. كان قد نسى الموقف بأكمله مما مر عليه بسبب مطاردة الذئاب، ثم فاجعة السرقة فهروب رينيه مع محتويات المقبرة، لكن آخر كلمات ادوميت عادت تدق فى رأسه مرة أخرى، وهو يتذكر وقوفه أمام ادوميت وطلبه منه إغلاق تلك المقبرة للأبد، وادوميت يتساءل:

- لماذا تريدنى أن أطمس هذا الأثر.؟
- لقد أخبرتك.. أريد التأكد من أن يكون الأثر الوحيد الذى يدل على علاقة حضارتنا بتلك الحضارة قد أصبح مطموساً تماماً..
- ومن أخبرك أن هذا هو الأثر الوحيد الموجود فى طيبة يا يوسف..؟

ذُهل يوسف عندما سمع تلك الجملة، فهتف بادوميت:

- وهل هناك أى أثر آخر يدل على اختلاط الحضارتين يا ادوميت..؟
- نعم، هناك أثراً آخر فى مكان ما فى طيبة ..
- وأين هو ..؟
- لن تصل إليه إلا عن طريق خاتم خاص، وهذا الخاتم قد أصبح موجوداً فى يد أحد الإنسيين المتعاملين مع الجن ..

هتف يوسف فى ذهول:

- ماذا..؟!!
- هناك من خلف البحور السبعة يا يوسف، سوف تُجبر على الوصول إليه لتتعاونا من أجل إنهاء الأثر الوحيد الدال على إرتباط الحضارتين .
- أنا لا أفهم شيئاً..

- إبحث عن الصندوق ..؟

- أى صندوق..؟

- لم تكن تلك الزيارة الأولى للمبعوثين عندكم .. فلتبحث فى سيرة الأمير خا ام واس ولى عهد رمسيس الثانى المُختفي.. والد كل من أوزير و سي أوزير ..ابحث فى سيرة سي أوزير خصوصاً يا يوسف..

- وهل تعلم أين كان إختفائه..؟، ولما..؟

- بالطبع أعلم، لكنه غير مصرح لى بالحديث.. ابحث وتوصل إلى ذلك البشري للحصول منه على الخاتم حتى تتوصلا إلى الأثر المتبقى، وعند وصولكم إليه سوياً سترى ما بداخل هذا الصندوق..

- وما الموجود بداخله..؟

- إنه السر المفقود يا يوسف.. سر العظمة والمجد القادم من مملكة البحور السبعة والممالك السبعة.. سيأخذكم إلى مكان ما فى زمان ما .. أحسنا استغلاله، وإلا تلاشيتم كما ذرات الغبار..

- وكيف أصل إليه ..؟

- ربما تتوصل إليه بإتصالك مع الجنى الخاص به ..؟

- وأين ألقاه..؟، وكيف..؟

- باسمه وطقوس استدعائه ..؟

- و ما اسمه..؟

- بدزميران.. اسمه بدزميران يا يوسف..

أفاق يوسف من شروده على يد أكرم وهو يفتح له باب السيارة مُشيراً إليه بالنزول، فقد وصل أخيراً إلى قصره.. ابتسم يوسف فى قرارة نفسه وهو يردد ذلك الإسم فى رأسه مرة بعد مرة وكأنه التصق برأسه .. فمن يعلم..؟، ربما جمعه به مغامرة ما مع البشري الآخر الذى يمتلك ذلك الخاتم الذي سيقودهم سوياً إلى ذلك الصندوق..

إلى السر المفقود...

****

قبل قرنين تقريبا من الزمان فى جناح زوجه ولى عهد مصر

****

كانت (محو سخت) زوجة الأمير (خا ام واس) لا زالت تجلس فى محاولة منها أن تتمالك نفسها وهى تستمع إلى أقوال ذلك العراف القادم إليها من مكانٍ بعيدٍ جداً، فقد أخبرها ولى العهد منذ أسبوع أنه ربما كان لديه بعضاً من الحلول.

نعم.. فقد يئست من حملها طوال تلك السنوات الماضية.. حتى أمهر أطباء طيبة لم يُفلحوا أبداً فى علاجها من تلك الحالة، وقد بدأت الأمور فى القصر تتوتر، إذ يلزم وجود ابن لولى العهد وحفيد لفرعون مصر.. ولذلك لم يكن ولى العهد فى بداية الأمر مُصدقاً لجدوى الخوض فى الأمر من جديد بواسطة ذلك الطبيب العراف، ولكن كنصيحة من والده فرعون مصر وافق أخيراً على أن يتولى علاج الأميرة، بعد أن أخبره بأنه يستطيع علاجها من غضون أسبوع، بشرط السرية التامة، وألا يعلم كائناً من كان عن مكان وجوده ولا مساعدته للأميرة.. بدا الأمير متخوفاً من وجوده فى جناح حريم القصر، لولا أنه وافق عندما وجده شيخاً يكاد يقارب المائة عام ويستند على عصى غريبة الشكل..

كانت تتعلق بذلك الأمل الواهى، ولذلك عندما أخبرها ولى العهد أن عليها مقابلة الطبيب العراف يومياً فى جناحها بحضور الوصيفات وتناول ما يعطيه لها من أعشاب لم توجد من قبل فى مصر، والتى أحضرها معه من ذلك المكان البعيد الذى ينتمى إليه، وافقت على الفور..

كان اليوم هو اليوم السابع والأخير لتناول تلك الوصفة الطبية، وبعد أن انتهت من تناولها، جلس ذلك الحكيم بالقرب منها بعد أن أمرها بإخراج الوصيفات لأنه لديه ما يقصه عليها، وبعد أن خرج الجميع، أخرج من جعبته صندوق من خشب الصندل الذى تفوح منه تلك الرائحة المميزة، وقد زينت قوائمه من حجر البيانيت النادر جداً وجوده .. وأعطاه للأميرة وقص عليها تلك النبوءة.. مما جعلها تهز رأسها وهى تهتف غير مصدقة :

- أعد ما قلته لى مرة أخرى يا سيدى الطبيب، فأنا لازلت غير مصدقة لما ترويه حتى الآن.
- حسناً يا بُنيتى، ستَحملين قريباً جداً، وسيرتفع شأن ابنك كولىّ ولىّ العهد، وسيبزغ اسمه فى السماء.. ستتحدث طيبة كلها عن معجزاته.. وفى وقت ما سينقذ البلاد من هجوم سحري مظلم..

هتفت الأميرة بلهفة ودموعها تكاد تغلبها :

- ولدى..!!
- نعم.. سيقص الناس فى القصور تعاويذه السحرية المُنقذة.. ستظل قصصه آلاف وآلاف السنوات كعبرة وعظة لكل من سيأتى بعده.
- ولدى أنا..؟!!
- نعم، ولكن...
- ولكن ماذا..؟
- فليبتعد عن كهنة آمون.. سيضمرون له الشر يا مولاتى، أرى من نجمه أنه سيمر بنكبة كبري بأيديهم...
- يا إلهى..!!، أكمل يا سيدى.
- لا أري أي شئ بعد ذلك يا مولاتى.. فلتحفظى هذا السر بيننا إلي الأبد .
- أقسم لك إن حدث فلن أُخبر به أحداً قط، وسأعمل على إبعاده عن طريق الكهنة دوماً.
- وهناك شيئاً آخر يا مولاتى..
- ما هو يا سيدى..؟

إقترب وهو يضع الصندوق المزخرف بالبانيت بجواها، والذى أمسكته بيدها فسرت فى جسدها رعشة غريبة، وحاولت فتحه لكنها وجدته مُصمت ، فلم تجد له ناحيه تستطيع فتحه منها ، فسألته مندهشة..:

- وماذا بخصوص هذا الصندوق..؟
- لا تحاولى فتحه يا مولاتى، إنه مقدس ولن يُفتح إلا فى مكان وزمان ما حينما يحين موعده ...
- وما الذى يعنيه هذا يا سيدى..؟
- إن هذا الصندوق به سر الخلود المقدس الذى قامت عليه حضارتنا، وتتميز به بلادنا عن كل العالم.. هذا الصندوق يا مولاتى هو هدية من بلادنا لإبنك المعظم فرعون مصر القادم، لن يستطيع فتحه إلا بعد مرور أربعون عاماً على ولادته، ولن يستطيع فتحه إلا عن طريق هذا الخاتم.

قالها وخلع خاتم غريب الشكل من إصبعه ذو حجر كريم يتلون كل فترة بلون مختلف، وهو يمد يده إلى الأميرة التى استقبلته وهى تتأمل تلك التحفة فى تعجب، بينما استطرد الحكيم:

- هذا الخاتم يجب أن يكون فى يد ولدك دائماً أو فى رقبته.. هو من سيرتبط قدره به يا مولاتى.. لن يخلعه أبداً، وسوف يقوم عن طريق هذا الخاتم بعد مرور الزمان ليفتح الصندق.. وقتها سيعلم كيف يفتحه، فالصندوق لن يُفتح سوى لمن كُتب له فتحه ، ووقتها ستظهر تلك الفتحة السحرية والتى سيولجها الخاتم، أفهمتِ كل ذلك يا مولاتى، يجب أن تخبرى ولدك ذلك بمجرد بلوغه.. وإحرصى على ألا تمتد يد أخرى إلى هذا الصندوق أو يعرف أحد سره، والذى ستخبريه بنفسك لولدك.
- أنا لا أفهم شيئاً يا سيدى، ولكن إن كان لى هذا الولد فسأفعل كل ما أخبرتنى به، وسأحتفظ بذلك الصندوق إلى أبد الآبدين حتى يبلغ ولدى .. ااااه يا سيدى كم هى عظيمه تلك الكلمة .. ادعو آمون المقدس أن تتحقق نبوئتك.
- ستتحق يا مولاتى وسترين .. وللأسف لن أكون حاضراً هنا عند تحققها.
- أطال الله عمرك يا سيدى، ولكن أخبرنى.. إن حدث هذا، ماذا أُسمي المولود.؟

سكت قليلا متحيراً وهو يحك رأسه بيده ثم ينظر هنيهاً إلى الأعلى، وكأنه يخاطب النجوم ثم ابتسم العجوز قائلاً:

حسناً فيلكن اسمه سي أوزير... نعم هو سي أوزير يا مولاتى

النهـــــــــــاية

شكر خاص

****

وكالعادة لا يسعنى إلا أن أهدى هذه القصة لأشخاص كان لهم أكبر الأثر فى تشجيعى ووقفوا بجانبى فى كل الأوقات فعذرًا لكم ولكنى أود أن أشاركهم لحظات النجاح

برديس محمد .. د/ ميرفت صلاح.. مروة الصعيدى.. هبه عبد اللطيف

شكر خاص لاغلى الناس

رنا مكاوى.. وسام كامل .. امانى سالم

أصدقائى الأدباء:

محمود الجعيدى.. عمرو سمير عاطف ..د / أحمد سعد الدين ..هند عبد الله..لمياء السعيد.. ايه سعد الدين.. إيمان عبد المقصود.. د/حازم نجيب.. احمد الكيرانى.. منار حجازى.. محمد مسعد .. رحمة أنور.. ك/أحمد إبراهيم.. احمدناصر.. نشوى مصطفي.. رضوي موافي

أصدقائى الغاليين :

د/ هيثم الحاج على.. إيهاب حسن.. هاله البشبيشي.. بسنت مسعد ..احمد يونس ..مى سامح.. منة عامر.. نهى احمد ..عبير الانصارى.. يوستينا.. دينا احمد .. باسم الشبراويشي.. امانى شعبان.. نيرفانا .. روكا..الفنان / طارق لطفي..أيمن حسين ..مروى القاضي..لمياء العربي..سمير صلاح..عصمت علوان ..منى سليم.. نسمه مصطفى.. زياد شحاته ..امنه محمود ..نهاد الشمبكى.. داليا فرحات ..ساره محمد..سهى حامد.. زينه عمرو..محمد فايز.. سهي سمير.. دعاء صبحى. .طارق وافى.. ايلاف.. شعبان مطيرة.. سلوى ا لقلتاوى..نهاد شيبه.. شادى الكردى .. ايمان عبد المجيد.. شفاء مدنى.. رؤي جرجير.. ننوسة.. كيشو..بندق ..

وشلة حسين غراب أصدقاء العمر.. وجميع قططى قط قط

شكراً لأنكم فى حياتى

إهداء خاص جدًّا

****

روح (د/ غادة نجيب) (د/ ساره القزاز)

من يسكن قلبي لا يمكن أن يموت

****

وأخيرًا وليس آخرًا أستاذنا ومعلمنا ووالدنا الروحى حسام حسين صاحب الفضل الأكبر.

أهديكم جميعًا هذا العمل المتواضع..

السر المفقود

G T 177

الكتب والمراجع

****

- مقالات متنوعه — د/ أيمن عبد النعيم   الباحث والمحاضر الاثارى فى علم المصريات
- الطب المصري القديم — د/ حسن كمال
- كتاب الموتى الفرعونى — برت ام هو (عن برديه أنى) بالمتحف البريطانى
- المومياوات المصريه من الموت الى الخلود — روجيه ليشبرج- فرانسواز دونان
- البحث عن خانوم — الحسين عبد البصير
- حكم وامثال كاجمنى و بتاح حتب — برديات منوعه
- المؤامره الكبري — جيمس هنري بريستيد
- فجر الضمير — جيمس هنري بريستيد
- موسوعه تاريخ مصر — احمد حسين
- الشرطه فى مصر القديمه — د/ بهاء الدين ابراهيم
- الفرعون الاخير وزوال حضاره عريقه — فرانسيس فيفر
- الحكم والامثال و النصائح عند المصريين القدماء — محرم كمال
- اساطير ايا صوفيا — فرحات اصلان
- معجم الحضاره المصريه القديمه — جورج بورنر- سيرج سونرون

****

نبذة عن الكاتب

****

عمرو محمد مرزوق

كاتب وروائى مصرى من مواليد محافظة الغربية ومقيم بالقاهرة

ماجستير فى القانون الجنائى جامعة القاهرة ومُقَيَّد بالدكتوراة بجامعة عين شمس ومن اصداراته المطبوعه

- أناشيد الموت، إصدار دار اكتب 2014
- ميدوم، إصدار دار نون 2015
- شامبالا،إصدار دار نون 2016
- الكابوس،إصدار دار نون 2017
- نساء فى التاريخ اصدار دار زين 2018
- سي أوزير اصدار دار نون 2018
- دقات العاشره اصدر دار ادباء 2000 مجموعه قصصيه
- ويبقي العشق اصدار دار السعيد 2018

للتواصل مع الكاتب الحساب الشخصى..

https://www.facebook.com/amr.m.marzouk

صفحة الكاتب على الجود ريدرز باسم : عمرو مرزوق

البيدج الأدبى للكاتب على الفيس باسم : عمرو م. مرزوق